إرشاد القرآن والسنّة

إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة

تأليف

محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة الدمشقي

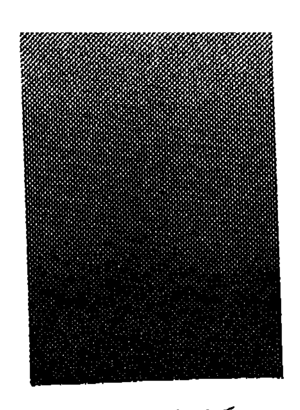
المتوفى سنة ٥٧١ هـ

دراسة وتحقيق

أيمن عبد الرزّاق الشّوّا

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

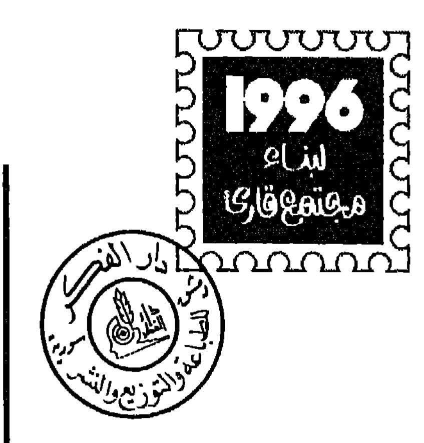


بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد القرآن والسنة

إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة

إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة / تأليف محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الدمشقي ؛ دراسة وتحقيق أيمن عبد الرزاق الشوا . ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦
. ـ ١٨٣ ص ؛ ٢٤ سم .
١ ـ ٢١٨,٤١٦٨ ق ي م إ ٢ ـ العنوان
٣ ـ ابن قيم الجوزية ... ٤ ـ الشوا
ع ـ ٨٥٩ / ٧ / ١٩٩٦
مكتبة الأسد



الرقم الاصطلاحي: ١٠٦٨,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-268-6

الرقم الموضوعي: ٢١٠

الموضوع: دراسات إسلامية

العنوان: إرشاد القرآن والسنة

إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة

التأليف: محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية الدمشقي

التحقيق: أيمن عبد الرزاق الشوا

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ١٨٤ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

سورية - دمشق - ص. ب (٩٦٢).

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.Fikr.com/

E-Mail: Fikr @asca.com

الطبعة الأولى

1417هـ = 1996م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي أيّد الحقّ بأوضح البراهين ، وأرسل حبيبه سيِّدنا محمداً ﷺ عامةً لجميع العالمين بتبليغ ما به نجاة الموفّقين ، وإقامة الحجّة على الهالكين .

وصلّى الله على فاتح الهدى ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم ، وهاديهم إلى صراط العزيز الحميد ، الذي أبان الله به المَحَجّة ، وأقام به الحجة ، وأنار به السبيل ، وأوضح به الدليل ، وهدى به من الضلالة ، وعلّم به من الجهالة ، وأرشدَ به من الغيّ ، وفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً ، فلم يَدَعْ باباً من أبواب الهدى والعلم إلا فتحه ، ولا مشكلاً إلاّ أوضحه ، ولا طريقاً تقرِّب إلى الجنة وتُباعِدُ من النّار إلاّ بيّنها وأرشد أمّته إليها ، ودلّهم عليها ، فاستغنى به الموفّقون المهديّون من أمته عن كل ما سواه ، ولم تكن بهم إلى أحد سواه حاجةٌ ، ومَنْ جاءهم بشيء من العلم عرضوه على قوله وسنّته ؛ فإنْ زكّاه قبلوه وارتضوه ، وإن لم يزكّه طرحوه وتركوه فهم الأغنياء به ، المفتقرون إلى ما جاء به أشدَّ من افتقار الجسد والروح إلى حياتها ، قد انتسبوا إليه وإلى سنّته بأقرب نسبٍ ، وتمسكوا منها بأقوى سببٍ .

أما بعد ، فإننا أمام موضوع جليلٍ يتحدث عن إرشاد القرآن والسُّنّة إلى طريق المناظرة وتصحيحها ، وبيان الحجج القرآنية ، والبراهين العلمية في أمور العقيدة الصحيحة . ألّفه عالم جليل من أفذاذ علماء القرن الثامن الهجري ، هو ابن القيِّم .

ابنُ القَيِّم : (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ)

هُوَ مُحَمَّدُ بنُ أبي بكر بن سعد بن حَرِيْزٍ الزُّرعي ثم الدمشقي . الملقّب بشمس الدِّين ، والمكنّى بأبي عبد الله ، والمعروف بابن قيِّم الجوزيَّة ، والجوزيَّة مدرسة كان أبوه قيِّماً عليها .

ولد ابن القيّم في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمئة ، ونشأ في بيت علم وفضل ، تلَقّى علومه الأولى عن أبيه ، وأخذ العلم عن كثيرٍ من الأعلام في عصره ، وله في كل فنٍ إنتاج قيّم .

كان رحمه الله بحراً زاخراً بألوان العلوم والمعارف ، وكان مبرّزاً في فقه الكتاب والسُّنة وأصول الدين واللغة العربية ، وعلم الكلام وعلم السلوك وعبارات المتصوفين ، وغير ذلك . وقد انتفع به وتتلمذ عليه العلماء ولا تزال مؤلفاته حتى اليوم مصادر إشعاع ومنارات توجيه .

ولقد أُوتي توفيقاً من الله فكان موضوع إعجابٍ لكل العلماء المنصفين في وقته وحتى الآن ، ذلك أنه كان مستقلٌ الشخصية شأنه شأن الإمام العزّ بن عبد السّلام ، لا يصدر رأيه في المسائل إلاّ بعدَ الوقوف بتدبر على ما قالته الطوائف المختلفة ، والنظر بعين فاحصة ، ورأي ثاقب ينفي به الباطل ، ويؤيِّدُ به الحق الذي يراه ، ويحرص على دعم اتجاهاته وآرائه بالكتاب والسُّنّة .

كان يستهدف إخراجَ المسلمين من خلافاتهم ، وتضارب آرائهم ، وخصوصاً أن هذه الخلافات غريبة على المشتغلين بدين الله ، وأنّ روح الإسلام تأباها ، ولا تسمح بها . يقول السيد سابق : « .. ظهر ابن القيّم ظهور الغيور على أمته ، المهتَمّ بحاضرها ، الباحث عن خير مصيرٍ لها في مستقبلها ، الراغب في إنهاضها من كبوتها ، وإقالتها من عثرتها ، وإخراجها من ظلمات الخلافات والعودة بها إلى طريق النور الذي سلكه سلفنا الصالح ، فوصلوا في نهايته إلى أكرم الغايات في ضوء هذا الدين القويم ، وبتوجيهات القرآن الكريم »[١] .

---

(١) من مقدمة تحقيق أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين . ص/ط .

مذهبُ ابن القيِّم :

التزم ابن القيِّم في مباحثه الفقهية اتِّباعَ الدليل ، ونبذَ التعصب الذميم ، فقد سعى إلى إبراز الأحكام الفقهية من أصولها ، من الكتاب والسُّنة في المقام الأول ، وربما استأنس بآراء الأئمة الفقهاء ، ما وجد الدليل الواضح معهم ، فهو يحكي أقوالهم ويوازن بينها ، ولم يمنعه مسلكه أن يخالف عشرات المسائل ما وجد إلى الدليل سبيلاً :

إنّـــا تحيّـــزنـــا إلى القرآن والنقـــل الصحيـــح مفسر القرآن
وكـــذا إلى العقـــل الصريـــح وفطرة الرحمن قبـــل تغيّر الإنســـان[1]

ولا شك أن الكلام على مذهبه أحد مقتضيات المنهج في الكلام على مذهبه النحوي ، وسنرى أنه يعتمد نصوص القرآن الحجة لقواعد النحو والتصريف الصحيحة ، والشاهد عليها ، وتبعاً لذلك كان نقده لآراء النحاة ونظرته للمسائل الخلافية بين البصريين والكوفيين ، يردُّ كل توجيهٍ وكل رأيٍ فيه مغايرة للمعنى القرآني ، في سبيل اطِّراد القاعدة النحوية ، ويتراءى لي أن الخط الرئيسي في مذهبه النحوي هو الخط الرئيسي في مذهبه الفقهي : الإنصاف والاتِّباع لما أيَّده الدليل ، وفي ذلك يقول : « وكثيراً ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده ، فنحكي المذهب الراجح ونرجحه ونقول هذا هو الصواب ، وهو أولى أن يؤخذ به »[2] .

وعبَّر عن ذلك في موضع آخر فقال : « إن عادتنا في مسائل الدين كلها ، دِقِّها وجلِّها أن نقول بموجبها ، ولا نضرب بعضها ببعض ، ولا نتعصب لطائفة على طائفة ، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ، ونخالفها فيما معها خلاف الحق ، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة ، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه »[3] .

---

(١) القصيدة النونية ص ١٦٦ .
(٢) أعلام الموقعين لابن القيِّم : ١٧٧/٤ .
(٣) طريق الهجرتين لابن القيِّم : ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

وقد عرف العلماء هذا المسلك من ابن القيّم ، وأشادوا به ، قال الإمام الشوكاني : « ليس له على غير الدليل معول في الغالب ، وقد يميل إلى المذهب الذي نشأ عليه ، ولكنه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة ، كما يفعله غيره من المتهذبين ، بل لا بدَّ له من مستند في ذلك .. وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال ، وعدم التعويل على القيل والقال »[1] .

فكرة الكتاب :

أثناء دراستي وبحثي عن نحو الإمام ابن القيّم في غالب كتبه ، لا سيّما (بدائع الفوائد) وقفتُ فيه على فصولٍ في حُجَج القرآن ومناظراته ، وكذلك الحجج من السُّنة النَّبوية . وهي فصول قال عنها المؤلف : إنها فصول عظيمة النفع جداً ، وهي كما قال حول هذا الموضوع الجليل ، فقد طالعتُها فوجدتها غزيرة المواد ، كثيرة المفاد ، عزيزة الأصول ، غريبة الفصول ، لطيفة المَعاني ، عظيمة المطالب ، بليغة العبارات ، عجيبة المواضيع والأبواب . وأعدتُ الاطّلاع عليها بشغف مستعجلاً لما فيها من الدقائق المحجوبة واللآلئ المكنونة التي لا نظفر بمثلها في كتاب . فكان من الطبيعي أن تتوجّه الدراسة نحوها ونحو تحقيقها وشرحها .

أهميّة الكتاب :

أفردتُ هذه الفصولَ بكتابٍ لأهميتها في مجال منهج الأحكام الشرعية وأصول الدين ، وحرصتُ أشدَّ الحرص على أن يُمهّد لها بدراسةٍ ومقدمةٍ تتوجّهُ نحو القرّاء الأعزّاء ، فتنشّط إليها نفوسُهم ، وتقبل عليها قلوبهم ، وينعموا بجناها نعياً خالصاً من كدر السّآمة التي يجلبها تطويلُ مَنْ كتب في هذه الأبحاث حول الجدل والحجج والمناظرات ، وحول من فرّع وعقّدَ في هذه المباحث ، فأحالها إلى بَلْبَلَةٍ فكريّة ،

(١) البدر الطالع : ١٤٤/٢ ـ ١٤٥ ، وانظر رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٢٢ ، الرسائل السلفية للشوكاني ص ١٦ .

لا يحصّل القارئ منها بطائلٍ ، ولا يظفر منها بثمرةٍ ، فكانت كتب الجدل تشبه الدّوّاماتِ التي تدور بالقارئ وتدير رأسه ، وتستنفد جهده .

ورأيت عرض هذا البحث الممتع لأنظار الباحثين لما فيه من الفوائد الجمّة ، والتحقيقات المهمة في أصول الحجج والمناظرات ، وإرشاد العباد إلى سلوكها بأيسر طريق . مع ازدياد أهمية هذا الموضوع في الوقت الحاضر ؛ لكثرة الطامحين غير الواقفين عند حدودهم للتأليف في مجالات التفسير والأصول والعقيدة ، وإصدار الآراء التي لا تستند إلى حجة ولا برهان ولا تأييد من كتاب الله تعالى ولا من حديث شريف ، ولا أثرٍ لعلم العربية ، فكأن التأليف في ذلك كلّه مشاع ، وكأن كلاً يدلي بدلوه عرف أم لم يعرف . حتى أصبح التّفرّغ لتمحيص هذا البحث المتشعب ضرورياً لِلَمّ شتاته وتنسيق متفرقاته .

عملي في الكتاب :

كان عملي في هذا الكتاب حرصي على إخراج نصّه إخراجاً صحيحاً ، مستعيناً بنسخةٍ مخطوطة ، أفدت منها في إزالة بعض الإشكال الذي ارتاب المطبوع[1] ، ولقد حَرَصت على شرح هذا الكتاب ، وعلى ربط أفكاره وموضوعاته بأماكنها من كتب اللّغة والأدب وكتب الأصول والتفسير ، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة ، وإكمال ما أشار إليه ابن القيّم بإيجازٍ شديدٍ ، أظهرته للباحث اليوم لتكمل لديه صورة ما يريده ابن القيّم . ونقلتُ من الآراء ما دعت إليه ضرورة البحث ، وأومأت إلى ما لم أنقل ورجعت إلى المصادر الأصلية الأصيلة لهذا البحث ونقلتُ عنها نقلاً دقيقاً .

---

(١) طُبع كتاب بدائع الفوائد لابن القيّم للمرة الأولى في المطبعة المنيرية في أربعة أجزاء كبيرة . وهذه الفصول متضمنة في الجزء الرابع من ص ١٢٦ إلى ص ١٧٤ ، وجاء في نهايتها في الحاشية(١) : إلى هنا تمت الفصول كما نبّه عليها في النسخة الأخرى .
والنسخة المخطوطة المعتمدة هي نسخة المكتبة الظاهرية ، وهي في مكتبة الأسد العامرة برقم ١٠٥٣٦ ـ عام . والأوراق المحققة منها تقع من ورقة ٣٣٥ إلى الورقة ٣٧١ .

وكان قصدي في ذلك إمّا تعضيد رأي ، أو توهين قول ، أو تفصيل مجمل ، أو توضيح أمر مبهم ، أو الإشارة إلى مصدر فكرةٍ ، أو اتفاق خاطر ؛ ليكون الدارس للكتاب على بيّنة مما ذكره ابن القيّم ، محيطاً بفقه المسائل التي عرضْتُ لها ، جامعاً لأطراف الآراء ووجوه المذاهب فيها ، فإن كنت أصبْتُ فالخيرَ أردتُ ، وإن تكن الأخرى ففي نَقَدات القُرَّاء ما يقيم كل عِوَجٍ ، ويصلح كلَّ منآد ﴿ وفَوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦/١٢] .

موجز الكتاب :

سمّى ابنُ القيّم هذه المباحث فصولاً عظيمة النفع جداً في إرشاد القرآن والسُّنّة إلى طريق المناظرة وتصحيحها ، وبيان العِلل المؤثِّرة والفروق المؤثرة .. وهي من كنوز القرآن التي ضلَّ عنها أكثر المتأخرين .

ضمَّن هذه الفصول أزيدَ من خمسةٍ وعشرين حديثاً نبويّاً ، بيَّن من خلالها قواعدَ كيفية المناظرة وإقامة الْحُجَج ، وقد تنوَّعت هذه الأحاديث ، وشملت أحكامَ العبادات والمعاملات والعقائد وأصول الدين . وبيَّن من خلالها أيضاً أنَّ العِلَلَ والمعاني حقٌّ شرعاً وقَدْراً .

وفي الحديث عن حُجَج القرآن ذكر قواعدَ المناظَراتِ وأصولَها من خلال التفسير والحجج والبراهين . فذكر منها :

- مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته .
- الاستدلال على أصل الخلق والإيجاد ودليل الاختراع .
- البرهان الشّافي في التّوحيد وبيان العقيدة الصحيحة .
- وُجوه إعجاز القرآن الكريم .
- البُرهان على نُبوّة الأنبياء
- مناظرة الملائكة في خلق آدم عليه السلام .

ـ مناظرة إبليس عدوّ الله في شأن آدم .

ـ مبادئ تعليم المناظرة من كتاب الله تعالى من خلال الشواهد القرآنية وبيانها .

ـ من وجوه الإعجاز النبوي الشريف . وغيرها من الفوائد التي لا نكاد نجدها في غير هذا المؤلف كما قال الإمام ابن القيّم رحمه الله .

غاية ابن القيّم من هذه الفصول :

أرادَ ابن القيّم من هذه الفصول أن يبيّن طريقَ القرآن الكريم في الاستدلال وتوجيه العقول والمدارك لفهم أعمقِ الحقائق ، بأيسر سبيلٍ وأقوم طريق . ومَقصدُه توجيهُ الناظرين في القرآن الكريم والدّاعين إلى نشر قضاياه ومبادئه إلى أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني وتقريبه بما يرفع الْحُجُب الاصطلاحية عن وجهه الجميل ، وليؤكّد أنّ القرآنَ جاء على ما هو مألوفٌ من أساليب اللُّغة العربية الفُصحى التي تجمع بين عُمقِ المعنى ودقّة التصوير ووضوح التعبير وسلامة التركيب ، دون إخلالٍ بالصورة الإنسانية البيانية التي تثير الضمير ، وتوقظُ المدارك النفسية ، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية والفلسفية المعقّدة . وفي هذا يقول :

« فالمادَّةُ الْحَقُّ يُمكِنُ إبرازُها في الصُّور المتعدّدة ، وفي أيّ قالَبٍ أُفرِغَتْ وصورةٍ أُبْرِزَتْ ظهَرَتْ صحيحةً ، وهذا شأن موادّ وبراهين القرآن »[1] .

لقد خلق الله تعالى الإنسانَ ناطقاً مُفكِّراً يتوارد عليه من الخواطر والمعلومات ما يجعلُه مدفوعاً بالضرورة إلى الإفضاء بها والإفصاح عنها ، وقد تشتدّ وتبرز أشد البروز في مواقف الحجاج والنقاش وتبادل الأفكار واحتكاك بعضها ببعض ، موافقةً أو مخالفةً أو مبرهنةً أو معارضةً أو تعلُّماً أو تعليماً ، إلى غير ذلك مما هو يرتكز في الفطرة الإنسانية وما تستند عليه طبيعة النوع البشري من التعرف والتفاوت إدراكاً وعلماً .

(١) بدائع الفوائد : ١٦٠/٤ .

وفي هـذا المجـال يصرّح ابن القيّم بـأن الله سبحـانـه فَطَرَ القلـوب على قبـول الحـق والانقياد له والطمأنينة والسكون إليه ، ولو بقيت الفِطَرَ على حالها لما آثرت على الحق سواه[1] ، وهذا كلام في غاية الوضوح والإنصاف لكلٍّ متدبّرٍ .

تقسيم علم الحجج والمناظرات :

هذه الفصول النافعة التي بحثها الإمام ابن القيّم تُـذكر حسب مـا صنفـه العلمـاء في تقسيم العلوم في العلوم البـاحثـة عمّـا في الأذهـان من المعقولات ، وهي علم المنطق وعلم آداب الدرس ، علم النظر ، علم الجدل . وهي من فروع أصول الفقه[2] .

وممّن ألّفَ في هذا الموضوع : الإمـام أبو جعفر بن عمر الشهير بـالخصّـاف ، المتوفّى سنة ٢٨٠ هـ له كتاب (الْحُجج) . والإمام أبو زيـد الـدّبوسي في القرن الرابع الهجري وله كتاب (تأسيس النظر) .

والإمـام السيوطي في الإتقـان خصص نوعـاً جعل عنوانـه : علم جـدل القرآن[3] . وذكر فيه أن القرآن الكريم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة ، ومـا من برهـان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات العلوم العقلية والسمعية إلاّ وكتـاب الله قـد نطق به .

وألّف الإمـام ابن الجوزي المتـوفى ٥٩٧ هـ : الإيضـاح لقـوانين الاصطـلاح ، وقـد رتّبه على خمسة أبواب :

الأول : الحاجة إلى الجدل .

الثاني : قواعد المناظرة .

---

(١) التفسير القيّم : ١٩٧ .

(٢) كشف الظنون : ١/١٤ـ١٥ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن : النوع الثامن والستون .

الثالث : أقسام الأدلة وأحكامها .

الرابع : الاعتراض .

الخامس : الترجيحات[1] .

وألّف ابن الحنبلي المتوفى ٦٣٤ هـ كتاباً في هذا الشأن سمّاه : (استخراج الجِدال من القرآن الكريم)[2] ، وفيه أبواب مختصرة حول : ذكر الحجة والجدل ، أوّل من سنّ الجدال ، جدال الأنبياء عليهم السلام للأمم ، ذكر الأدلة على وجود الصانع سبحانه ، ذكر الأدلة على أنه واحد سبحانه ، ذكر أدلة البعث في الكتاب العزيز ، ذكر أدلة نبوّة محمد ﷺ من الكتاب العزيز . وذكر الأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز .

وعقد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة الفصل التاسع في أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات ، وذكر أنه علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم ومِرَان المطالعين له على الاستدلال عليه[3] .

وبيَّن أيضاً أهمية هذا العلم فقال : احتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظرون عند حدودها في الرّد والقبول : وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ، ومحلُّ اعتراضه أو معارضته ، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ، ولذلك قيل فيه إنه معرفةٌ بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره .

---

(١) كشف الظنون : ١/١٥ .

(٢) طبع الكتاب بتحقيق محمد صبحي حسن حلاّق . مؤسسة الرّيان ، ط١ ، ١٩٩٢ م .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٤٥٧ .

أسلوبُ القرآن في دعوته وأدلّتِه :

اعتمد القرآن الكريم في إقامة الدليل على أساس فطريّ ، ويكاد كلُّ إنسانٍ أن يكون مفطوراً على الاعتقاد بوجودِ إلهٍ خَلَقَ العالم ، ودبَّره ، يكاد الناس يجمعون على ذلك بفطرتهم مهما اختلفت تسميات الإله عندهم ، ويستوي في ذلك المُمعِن في البداوة ، والمُغْرِق في الحضارة ، وهذا ما يعجب له الباحث الاجتماعي ؛ إذ يرى إجماع القبائل التي لم تتصل بغيرها أي اتصال ، والتي لا تعرف من العالم إلا رقعتها من الأرض على وجود إلهٍ خالقٍ . فالقرآن الكريم اعتمد على هذه الفطرة ، وخاطب الناس بما يُحْيي هذه العاطفة ، وينمِّيها ، ويقوِّيها ، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وأحاطه برعايته ، وخلق لأجله الأرض والسماء ، والليل والنهار ، والشمس والقمر والحيوان والنبات ، وما ندرك وما لا ندرك ، وما نعلم وما لا نعلم : ﴿ اللهُ الَّذي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فيهِ بِأَمْرِهِ ولِتَبْتَغوا مِن فَضْلِهِ ولَعَلَّكُم تَشْكُرونَ ﴾ [الجاثية : ١٢/٤٥] . و ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم ما في السَّمواتِ وما في الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ ﴾ [لقمان : ٣٠/٣١] ، و ﴿ ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ وأَنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ ، ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وأَنَّ ما يَدْعونَ مِن دونِهِ هُوَ الباطِلُ ، وأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطيفٌ خَبيرٌ ، لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ ، وإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الْحَميدُ ، أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم ما في الأَرْضِ والفُلْكَ تَجْري في البَحْرِ بِأَمْرِهِ ، ويُمْسِكُ السَّماءَ أَن تَقَعَ على الأَرْضِ إلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤوفٌ رَحيمٌ ، وهُوَ الَّذي أَحْياكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحْييكُم إِنَّ الإِنسانَ لَكَفورٌ ﴾ [الحج : ٦١/٢٢-٦٦] .

وأسلوب القرآن في إثبات الحقّ بالحجج ترغيباً فيه أسلوب دقيق وواضح ، وأمثلته كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ أوَلا يَذْكُرُ الإنسانُ أنّا خَلَقْناهُ مِن قَبْلُ ولَمْ يَكُ شَيئاً ﴾ [مريم : ٦٧/١٩] ، ومنها قوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ ﴾ [الطّارق : ٥/٨٦-٦] . ومنها : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِهِ ، أنّا صَبَبْنا المَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شَقّاً ، فَأنْبَتْنا فيها حَبّاً ، وعِنَباً وقَضْباً ، وزَيْتوناً ونَخْلاً ، وحَدائِقَ غُلْباً ، وفاكِهَةً وأبّاً ﴾ [عبس : ٢٤/٨٠-٣٠] . ومنها : ﴿ ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماء ماءً فَيُحْيي بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلونَ ﴾ [الرّوم : ٢٤/٣٠] .

قال الإمام العزُّ بن عبد السّلام : « استدلَّ بإخراج النَّبات وبخلقه إيّانا في بطون الأمهات على أنّه قادرٌ على جمع الرُّفات وبعثِ الأمواتِ ترغيباً في النظر لذلك ، لنؤمن بالبعث فنستعد له بالطاعات »[1] .

وسلكَ القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد هذا المسلك فاستدلَّ على ذلك بالمألوف والمشاهد وما يؤدي إليه النزاع من فساد ﴿ لَوكانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢/٢١] ، ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِن إلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِما خَلَقَ ولَعَلا بَعْضُهم عَلى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : ٩٢/٢٣] .

سار القرآن على هذا المنهج في إثبات قدرته تعالى وعلمه ، وهذا الأسلوب يساير الفطرة ويغذّيها ، ويشعر كلُّ إنسانٍ في أعماقِ نفسه بالاستجابة له ، والإصغاء إليه حتى المُلْحِد بعقله ، وما أجمل قول الشاعر :

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ واحِدُ

فنظرة العاميّ إلى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شموسها وأقمارها تبعث عنده الإيمان بمدبِّر الكون وعظمته . والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها أقدَرُ على معرفة العظمة ، وأشدُّ إعجاباً بخالقها ومدبِّرها .

---

(١) نبذ من مقاصد الكتاب العزيز ص ٣٨ .

وهكـذا العـاميُّ والفيلسوف كلُّهم صـالح لأن يتـأثر بهـذا المنهـج على اختـلافٍ في استعدادهم ومداركهم وحياة عواطفهم وعقولهم .

فـالقرآن الكريم لا يـؤلف برهـانــه تــأليف المنطقي من مقــدمــة صغرى وكبرى ونتيجـة ، ولا يتعرض لألفـاظ الفلسفـة من جَـوْهَرٍ وعَرَضٍ ونحـوهمـا ولا يحـددهمــا ، ولا يثير المشـاكل العقليـة ، ويبني عليهـا ؛ لأن الـدين لم يــأت للفـلاسفــة وحــدَهم ، ولا للعلماء وحدَهم ، فالفلسفة والعلم حظٌّ أقلُّ عددٍ من النـاس ، وإنمـا اعتمـد القرآن على الفطرة والعاطفة ، وهما قدر مشترك بين جميع الناس ، فلذلك آمن بـالله تعـالى العلمـاء والجهلاء والفلاسفة وغيرهم . ولو ذهبنـا نتـدبَّر سِيـاق الآيـة حـديثٌ عن آيـات الكون وبدائع خلقه سبحانه لتكون حجَّة لكل متفكِّرٍ ، فبدأت الآيات بقوله تعالى : ﴿ أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماء ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً ألوانُها ﴾ ، واختتمت بالحـديث عن العبـادة : ﴿ إنَّ الَّـذينَ يَتْلونَ كِتـابَ اللهِ وأقـاموا الصَّلاةَ ﴾ [فـاطر : ٢٩/٣٥] ، وكانت ضمنْ البداية والخاتمة آية : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ [فاطر : ٢٨/٣٥] .

فالقرآن الكريم قد اجتمع فيـه مـا لم يجتمع في غيره ؛ فـإنـه الـدعوة والْحُجَّـة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، وهو الشـاهـد والمشهود لـه ، وهو الحكم والـدليل ، وهو الـدعوى والبيِّنـة ، قـال الله تعـالى : ﴿ أفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّـهِ ويَتْلُـوهُ شـاهِـدٌ مِنـهُ ﴾ [هود : ١٣/١١] ، أي من ربِّه ، وهو القرآن . وقال تعالى لمن طلب آيـةً تـدلُّ على صـدق رسوله له : ﴿ أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتـابَ يُتْلَى عَلَيْهِم ؟ إنَّ في ذَلِـكَ لَرَحْمَـةً وذِكْرى لِقَـوْمٍ يُـؤْمِنـونَ ، قُـلْ كَفَى بـاللهِ بَيْني وبَيْنَكُم شَهيــداً ، يَعْلَمُ مــا في السَّمـواتِ والأرْضِ ، والَّــذينَ آمَنــوا بِــالبــاطِــلِ وكَفَروا بِــاللهِ أُولَئِــكَ هُمُ الخَــاسِرونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٥٠-٥١] .

فـأخبر سبحـانـه أنَّ الكتـاب الـذي أنزلـه على رسولـه يكفي من كلِّ آيـة ؛ ففيـه الْحُجَّة والـدّلالـةُ على أنّـه من الله ، وأنَّ الله سبحـانـه أرسل بـه رسولَـه ، وفيـه بيـانُ

مـا يُوجِبُ لمن اتَّبعـه السعـادةَ والنجـاةَ من العـذاب . ثم قـال : ﴿ قُلْ كَفى بِـاللهِ بَيْني وبَينَكُم شَهيداً يَعْلَمُ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ [العنكبوت : ٥٢/٢٩] .

فإذا كان سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادتُه أصدقَ شهادة وأعدَلَها ؛ فـإنَّها شهادةٌ بعلمٍ تامٍّ محيطٍ بالمشهود به ، فيكون الشاهدُ به أعدلَ الشُّهداء وأصدقَهم .

« وهو سبحانه يذكر علمَه عند شهادتـه ، وقـدرتَـه عنـد مجـازاتِـه ، وحكمَتَـه عنـد خلقِـه ، وأمرِه ورحمتَـه عنـد ذكرِه إرسـالَ رسلِـهِ ، وحِلْمَـه عنـد ذكرِ ذنـوبِ عبـاده ومعاصيهم ، وسَمعه عند دعائه ، ومسألتَه وعزَّتَه وعلمه عند قضائِه وقدرتِه »[1] .

فضل علم إقامة الحجج والبراهين :

إنَّ علمَ إقامة الحُجَج والبراهين لتأييد مباني أصول الدين ، وشرائع الأحكام الفقهية علمٌ رفيع مناره ، عظيمٌ مقداره ، تجب العنـايـة بـه على العلمـاء ، ودراستـه على أذكيـاء النبهاء . لتصير دلائل الأصول ، ملكة راسخة للعقول . لمن كان لـه قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد .

وهـذا العلم كان بـاعثَ الرُّسل الكرام ؛ لإقـامـة الحُجَّـةِ على الخَلْقِ بحكمِ آيـاتـه[2] ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رَسولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم ﴾ [إبراهيم : ٤/١٤] .

تعريفات دقيقة :

بسط العلمـاء تعريفـات دقيقـة حول الألفـاظ الفقهيـة والمصطلحـات الأصوليـة ، وما يرد في البيان القرآني والحديث الشريف ، وبيَّنوا دلالة هذه الألفاظ في كلِّ سياق ، وأوضحوا الفروق اللغوية فيما بينها ، ويعنينا في هذا المقـام بعض المصطلحـات المتعلقـة

---

(١) التفسير القيم : ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢) راجع الإحكام في فصول الأحكام لابن حَزْم ، الفصل الثالث ، الجزء الأول .

ببحث المناظرات والحجج وما يسير في فلكها من تعابير دقيقة ، لها هـدفها ولها قيمتها التعبيرية ؛ فلدينا الْحُجَجُ ، والمناظرات ، والبيّنة ، والْجَدَل ، ونحو ذلك ..

وقد يكون بين هذه التعريفات عمومٌ وخصوص ، وربَّما يكون بينها اشتراكٌ ومجاز ، قد يتبادر إلى الذهن أنها في سياق البحث الأصولي سواءً ، لكنها عند التَّريُّث توحي بمعنى خاصٍّ في كلِّ سياق استُخدِمَتْ فيه . حتى إنها في اشتقاقها تبدو مختلفة وتؤدي معاني واسعة ، لها أصول لغوية ولها استعمالات شرعية ، حدَّدها الشرع ووجَّه دلالتها ، لتكون خطوةً مثمرةً نحو فهمها وبيان مقصودها .

فإذا نظرنا إلى كلمة الْجَدَل ، وأصلها اللغوي في معاجم العرب فإننا نجد : في القاموس المحيط[1] : الْجَدَل : اللّددُ في الخصومة والقدرة عليها . وفي المصباح المنير[2] : جَدِلَ الرجل جَدَلاً فهو جَدِلٌ ؛ إذا اشتـدَّتْ خصومتُـه ، وجادل مجادلةً وجِدالاً ، إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، هذا أصله . ثم استعمل على لسان حَمَلَة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحقّ ، وإلاّ فمذموم ، ويقال : إنَّ أوَّلَ مَن دَوَّن الجدل أبو علي الطبري[3] .

وأبان القاضي الجرجاني تعريفاً أصولياً للجدل فقال في تعريفاته :

« الْجَدَل هو القياس المؤلف في المشهورات والمسلّمات ، والغرضُ منه إلزامُ الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان ، وبه يتم دفع المرء خصمَه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه »[4] .

---

(١) القاموس المحيط : (جَدَل) .

(٢) المصباح المنير : (جدل) .

(٣) هو الحسن بن القاسم ، شيخ الشافعية ببغداد ، درَّس الفقه وصنَّف التصانيف كالمحرّر والإفصاح ، وصنَّف في الأصول والجدل والخلاف . وهو أول من صنَّف في الخلاف المجرَّد ، وكتابه فيه يسمَّى المحرّر . توفي سنة ٣٥٠ (شذرات الذهب ٣/٣) .

(٤) التعريفات : ص ٥٠ ، وانظر الكليات : ١٧٢/٢ . الإحكام في أصول الأحكام : ٣٦/١-٣٧ .

نظرة الحديث الشريف نحو الجدل وما شابهه :

رُويَت عِدّةٌ أحاديث نبويّة كان الخطاب فيها متوجِّهاً نحو النهي عن المراء والتحذير من المجادلة وما فيها من بعدٍ عن منهج الحق ، وضياع للوقت وإنقاصٍ لقيمة العلم ، واضطراب لمنهج الدين القويم ، ومن هذه الأحاديث :

ـ « إيَّاكُمْ والمِرَاءَ » . رواه الدارمي في المقدمة ٣٥ .

ـ « دَعِ المِرَاءَ ؛ فإنَّ نَفعَه قليلٌ » . رواه الدارمي في المقدمة ٢٩ .

ـ « كَفَى بِكَ إثْماً أنْ تَزَالَ مُمَارِياً » . رواه الدارمي في المقدمة ٢٩ .

ـ « لا تَعلَّموا العِلْمَ لِتماروا به السُّفَهاءَ » . رواه ابن ماجه في المقدمة ٢٣ . وأحمد في المسند ١/١٩٠ .

ـ « المِراءُ في القرآن كُفْرٌ » . رواه أبو داود في السُّنة ٤ . وأحمد في المسند ٢/٢٨٦ ، ٣٠٠ .

وانظر باب ما جاء في كراهية المراء . سنن أبي داود . أدب ١٧ ، ٤٥ ، والترمذي في البر ٥٨ .

ـ « لا تُجادِلَنَّ عالِماً ولا جاهِلاً » . رواه الدارمي في المقدمة ٢٩ .

ـ « جِدالٌ في القرآن كفر » . رواه الإمام أحمد ٢/٢٥٨ ، ٤٧٨ .

ـ « ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً إلاّ أوتوا الجدل » . رواه الترمذي في تفسير سورة ٤٣ ، وابن ماجه في المقدمة ٧ ، والإمام أحمد في المسند ٥/٢٥٢ ، ٢٥٦ .

ـ « إيّاكَ والخصومةَ والجدالَ في الدين » . رواه الدارمي في المقدمة ٢٩ .

وانظر باب اجتناب البدع والجدل . سنن ابن ماجه ، مقدمة ٧ .

وروي في الأثر : « إنَّ الله ينهاكم عن قيلٍ وقال ، أي عن المجادلة بالباطل لِيُدحَضَ به الحق » ، قال الفارسي : وليس على النهي عن الخوض في العربية وتعلُّمها ؛ لأن الحضَّ على النظر فيها قد كثرت الرواية به عن السلف . ذكره في الْحُجَّة[1] .

وعن أبي العالية قال : آيتانِ في كتاب الله ما أشدَّهما على من يجادل فيه : ﴿ ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ إلاَّ الَّذينَ كَفَروا ﴾ [غافر : ٤/٤٠] .

﴿ وإنَّ الَّذينَ اخْتَلَفوا في الكِتابِ لَفي شِقاقٍ بَعيدٍ ﴾ [البقرة : ١٧٦/٢][2] .

الْجَدَل بين القبول والرفض :

وقد نظر العلماء فيما ورد من آيات كريمة في هذا المجال ، فقال الإمام ابن الحنبلي[3] : « فأما الجدال فهو مذموم في كل موضع ذُكِر إلاّ في ثلاثة مواضع :

أحدها في النحل : ﴿ ٱدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُم بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٢٥/١٦] .

الموضع الثاني في العنكبوت : ﴿ ولا تُجادِلوا أَهْلَ الكِتابِ إلاّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] .

الموضع الثالث في الْمُجادِلة : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَولَ الَّتي تُجادِلُكَ في زَوْجِها ﴾[4] [المجادلة : ١/٥٨] » .

معاني المجادلة بالتي هي أحسن :

---

(١) الحجة في علل القراءات للفارسي : ٢٥٨/١ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٦٢/٢ .

(٣) استخراج الجدال : ص ٥٣ .

(٤) هذه المرأة هي خولة بنت ثعلبة الأنصارية كانت تحت زوجها أوس بن الصامت ، وقصتها مشهورة في كتب التفسير .

قال الإمام ابن الجوزي في قوله تعالى : ﴿ وجادِلْهُم بِالَّتي هِيَ أحْسَنُ ﴾ ثلاثةُ أقوال :

أحدها : جادلهم بالقرآن .

الثاني : بـ (لا إله إلا الله) . روي القولان عن ابن عباس .

الثالث : جادلهم غير فظٍّ ، وألِنْ لهم جانبك[1] .

قال ابن الحنبلي : يحتمل أن يكون المراد بالأحسن : الأظهر من الأدلة ويحتمل بالتعبير عن الإتيان بمثل القرآن ؛ لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً وأكملها حسناً وإحساناً وأرجحها من الثواب ميزاناً ، وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهاناً ، ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلِّها ودحضها ، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم ؛ لتكون الحجة عليهم أظهر ، والجحد منهم أنكد ، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام مع الأمم عند الدعوة والمجادلة[2] .

وذكر الإمام النسفي أنَّ هذه الآية تدلُّ على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين ، وعلى جواز تعلُّم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة[3] . وقد عالج الإمام أبو محمد ابنُ حزم (٤٥٦ هـ) هذا الموضوع باستيفاء شمولي ومنهجية دقيقة في كتابه الإحكام في أصول الأحكام ، فأحببتُ أن أورد ها هنا أهم هذه المسائل لما فيها من الفائدة .

قال أبو محمد : احتجوا في إبطال الجدال والمناظرة بآيات ذكروها وهي قوله تعالى : ﴿ لا حُجَّةَ بَينَنا وبَينَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَينَنا وإلَيهِ المصيرُ . والَّذينَ يُحَاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجيبَ لَهُم حُجَّتُهُم داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِم وعَلَيهِم غَضَبٌ ولَهُم عَذابٌ شَديدٌ ﴾ [الشورى : ٤٢/١٥-١٦] .

---

(١) زاد المسير : ٥٠٦/٤ .

(٢) استخراج الجدال : ص ٥٣ .

(٣) تفسير النسفي : ٢٦٠/٣ .

قال أبو محمد : وهذه الآية مبينة وجهَ الجدال المذموم ، وهو قوله تعالى فمن يحاجّ بعد ظهور الحق . وهذه صفة المعاند للحق ، الآبي من قبول الحجة بعد ظهورها ، وهذا مذموم عند كل ذي عقل . ومنها قوله تعالى : ﴿ وقالوا ءَأَلِهَتُنا خَيرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً ، بَل هُم قَوْمٌ خَصِمونَ ﴾ [الزُّخرف : ٥٨/٤٣] .

قال أبو محمد : وإنما ذمَّ تعالى في هذه الآية من خاصم وجادل في الباطل وعارض الآلهة التي كانوا يعبدون من حجارة لا تعقل بعيسى النبي العبدِ المؤيَّدِ بالمعجزات مِنْ إحياء الموتى وغير ذلك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِنا ما لَهُم مِنْ مَحيصٍ ﴾ [الشُّورى : ٣٥/٤٢] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ فَإنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ ومَنِ اتَّبَعَني ﴾ [آل عمران : ٢٠/٣] .

قال أبو محمد قال تعالى : ﴿ ولَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً ﴾ [النِّساء : ٨٢/٤] . فصحَّ بهذه الآية أن كلامَ الله تعالى لا يتعارضُ ولا يختلف . فوجدناه تعالى أثنى على الجدال بالحق وأمر به . فعلمنا يقيناً أن الذي أمر به تعالى هو غير الذي نهى عنه بلا شك . فنظرنا في ذلك لنعلم وجه الجدال المنهي عنه المذموم ، ووجه الجدال المأمور به المحمود ، لأنا قد وجدناه تعالى قد قال : ﴿ ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالِحاً ﴾ [فُصِّلت : ٣٣/٤١] . ووجدناه تعالى قد قال : ﴿ ٱدْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وجادِلْهُم بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ . إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ ﴾ [النَّحل : ١٢٥/١٦] . فكان تعالى قد أوجب الجدال في هذه الآية وعلم فيها تعالى جميع آداب الجدال كلِّها من الرفق ، والبيان ، والتزام الحق ، والرجوع إلى ما أوجبته الحجَّةُ القاطعة . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنهُما أَتَّبِعْهُ إن كُنْتُم صادِقينَ . فَإنْ لَم يَسْتَجيبوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعونَ أَهْواءَهُم ﴾ [القصص : ٤٩/٢٨-٥٠] . ولم يأمر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ أن يقول هذا شكّاً في صدق ما يدعو إليه . ولكن قطعاً لحجتهم ، وحسماً لدعواهم ، وإلزاماً لهم . مثل ما التزم لهم من رجوعه إلى الأهدى ، واتباعه الأمر الأصوب .

وإعلاماً لنا أن من لم يأت بحجة على قوله يصير بها أهدى من قول خصمه ، ويبين أن الذي يأتي به هو من عند الله عزّ وجلّ فليس صادقاً ، وإنما هو مُتَّبِعٌ لهواه . وقال تعالى : ﴿ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ ما في السَّموات وما في الأرْضِ إنْ عِنْدَكُم مِنْ سُلْطانٍ بهذا أتقولونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ . قُلْ إنَّ الَّذينَ يَفْتَرونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحونَ ﴾ [يونس : ١٠/٦٨-٦٩] .

قال أبو محمد : ففي هذه الآية بيان أنه لا يقبل قول أحد إلا بحجَّة . والسلطان ههنا بلا اختلاف من أهل العلم واللغة هو الحجَّة ، وإن من لم يأت على قوله بحجة فهو مبطل بنص حكم الله عزّ وجلّ وأنه مفترٍ على الله تعالى وكاذب عليه عزّ وجلّ بنص الآية لا تأويلَ ولا تبديل . وأنه لا يفلح إذا قال قولة لا يقيم على صحتها حجة قاطعة ، ووجدناه تعالى قد علمنا في هذه الآيات وجوه الإنصاف الذي هو غاية العدل في المناظرة ، وهو أنه من أتى ببرهانٍ ظاهر وجب الانصراف إلى قوله ، وهكذا نقول نحن اتِّباعاً لربنا عزّ وجلّ بعد صحة مذاهبنا ، لا شكّاً فيها ولا خوفاً منا . أن يأتينا أحد بما يفسدها ، ولكن ثقةً منّا بأنه لا يأتي أحد بما يعارضها به أبداً ، لأننا ولله الحمد أهل التخليص والبحث ، وقطع العمر في طلب تصحيح الحجة واعتقاد الأدلة ، قبل اعتقاد مدلولاتها . حتى وفقنا ولله تعالى الحمد على ما ثلج اليقين ؛ وتركنا أهل الجهل والتقليد في ريبهم يترددون ، وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن ، فنقول مجدين مقرين : إنْ وجدنا ما هو أهدى منه اتَّبعناه وتركنا ما نحن عليه . وإنما هذا في مسائلَ تعارضت فيها الأحاديث والآي في ظاهر اللفظ ، ولم يقم لنا بيان الناسخ من المنسوخ فيها فقط ، أو في مسائل وردت فيها أحاديث لم تثبت عندنا ولعلها ثابتة في نقلها ، فإن بلغنا ثباتها صرنا إلى القول بها ، إلا أن هذا في أقوالنا قليل جداً ، والحمدُ لله ربِّ العالمين . وأما سائر مذاهبنا فنحن منها على غاية اليقين . وقال الله تعالى : ﴿ ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ إلاّ بالَّتي هِيَ أحْسَنُ إلاّ الَّذينَ ظَلَموا مِنْهُم ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٤٦] . فأمر عزّ وجلّ كما ترى بإيجاب المناظرة في رفق . وبالإنصاف في

الجدال وترك التعسف والبذاء والاستطالة إلاّ على من بدأ بشيء من ذلك فيعارض حينئذ بما ينبغي ، وقال تعالى : ﴿ فَانْفُذوا لا تَنْفُذونَ إلاّ بِسُلْطانٍ ﴾ [الرّحمن : ٣٣/٥٥] . والسُّلطان الحجَّة كما ذكرنا ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨/٢] . فذكر عزّ وجلّ تقرير إبراهيم عليه السلام قومه على نُقْلة الكواكب والشمس والقمر التي كانوا يعبدون من دون الله ، وأن ذلك دليل على خلقها وبرهان على حدوثها . فقال عزّ وجلّ : ﴿ وتِلْكَ حجَّتُنا آتَيْناها إبْراهيمَ على قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣/٦] . وقد أمرَنا تعالى في نصّ القرآن باتِّباع مِلَّة إبراهيم عليه السلام ، وخَبَّرنا تعالى أنّ من مِلَّة إبراهيمَ المحاجَّةَ والمناظَرَةَ ، فمرةً للملك ، ومرةً لقومه . والاستدلال كما أخبرنا تعالى عنه ففرض علينا اتِّباعَ المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق ، وأن نطلب الصَّواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْراهيمَ لَلَّذينَ اتَّبَعوهُ وهذا النَّبِيُّ والَّذينَ آمَنوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨/٣] . فنحن المتبعون لإبراهيم عليه السلام في المحاجة والمناظرة فنحن أولى الناس به ، وسائرُ الناس مأمورون بذلك . قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعوا مِلَّةَ إبْراهيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٥/٣] . ومن مِلَّتِهِ المناظرةُ كما ذكرنا ، فمن نهى عن المناظرة والحجة فليعلم أنه عاصٍ لله عزّ وجلّ ، ومخالفٌ لملّة إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما . قال الله عزّ وجلّ وقد أثنى على أصحاب الكهف : ﴿ إنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِم وزِدْناهُم هُدًى ، ورَبَطْنا عَلى قُلوبِهِم إذْ قاموا فَقالوا رَبُّنا رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلَهاً لَقَدْ قُلْنا إذاً شَطَطاً ، هؤلاء قَوْمُنا اتَّخَذوا مِن دونِهِ آلِهَةً لَولا يَأْتونَ عَلَيهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلى اللهِ كَذِباً ﴾ [الكهف : ١٣/١٨-١٥] . فأثنى الله عزّ وجلّ عليهم في إنكارهم قول قومهم إذ لم يُقِمْ قومهم على قولهم حجة بيّنة ، وصدقهم تعالى في قولهم إنّ من ادَّعى قولاً بلا دليل فهو مفترٍ على الله عزّ وجلّ الكذب . وقال تعالى : ﴿ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها ﴾ [الأحزاب : ٢٢/٣٤] ، فلا أظلمَ ممن قامت عليه الحجَّة من كتاب الله تعالى ، ومن

كلام نبيّه ﷺ فأعرض عنه ، وهو الحجّة القاطعة والبرهان الصادع . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وأَمْرُهُ إلى اللهِ ، ومَنْ عادَ فَأُولَئِكَ أصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥/٢] . وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَموا أهْواءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الرّوم : ٢٩/٣٠] . فأخبر تعالى ، كما تسمع ، أنَّ من اتَّبَعَ قولاً وافقه بلا علم بصحته فهو ظالم ، وأنَّ من لم يرجع إلى ما يسمع من الحق فهو من أهل النار . وقال تعالى : ﴿ ومَنْ أضَلُّ مِمَّن اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ [القصص : ٥٠/٢٨] . وأنكر الله تعالى أن يكذب المرء بما لا يعلم فقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبوا بِما لَم يُحيطوا بِعِلْمِهِ ولَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْويلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩/١٠] . فصحَّ بكل ما ذكرنا الوقوفُ عمّا لا نعلم والرجوعُ إلى ما أوجبته الحجّة بعد قيامها . وقال تعالى : ﴿ ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ، وكَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّا جاءَهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٨/٢٩] .

قال أبو محمد : في هذه الآية كفاية في إيجاب أن لا يصدّقَ أحد بما لم تقم عليه حجة ، وأن لا يأبى ما قامت عليه الحجّة . فمن أظلم ممن عرف ما ذكرناه وأخذ بوسواسٍ يقوم في نفسه ، أو بخبرٍ لم يقم على وجوب تصديقه برهان ، أو قلَّد إنساناً مثلَه لعله عند الله تعالى على خلاف ما يظن ، وعلى كلِّ حال فهو غير معصوم لكن يخطئ ويصيب . وقالَ تعالى : ﴿ قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾ [البقرة : ١١١/٢] . فأوجب تعالى أنَّ مَنْ كان صادقاً في دعواه فعليه أن يأتِيَ بالبرهان ، وأنَّ من لم يأتِ بالبرهان فهو كاذب مُبْطِل أو جاهل . وقال تعالى : ﴿ ها أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حاجَجْتُم فيما لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران : ٦٦/٣] . فلم يوجب تعالى المحاجّة إلا بعلم ومنع منها بغير علم . وقال تعالى : ﴿ فلا تُمارِ فيهِمْ إلاّ مِراءً ظاهِراً ﴾ [الكهف : ٢٢/١٨] .

قال أبو محمد : فلما وجدنا الله تعالى قد أمر في الآيات التي ذكرنا بالحجاج والمناظرة ، ولم يوجب قَبول شيء إلاّ ببرهانٍ وجب علينا تَطَلُّبُ الحِجاجِ المذموم على ما قدّمنا فوجدناه قد قال : ﴿ ويُجادِلُ الَّذينَ كَفَروا بِالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الْحَقَّ ﴾

[الكهف : ٥٦/١٨] . فذمَّ تعالى كما ترى الجدال بغير حجة والجدال في الباطل ، وأبطل تعالى بذلك قول المجانين : كلٌّ مفتون مُلَقَّنٌ حجَّةً ، وبيَّن تعالى أن المفتون هو الذي لا يلقن حجة ، وأن المحق هو الملقن حجة على الحقيقة ، وهم أهل الحق . وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلْطانٍ أتاهُم كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ الَّذينَ آمَنوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥/٤٠] . فقد جمعت هذه الآيات بيان الجدال المذموم والجدال المحمود الواجب ؛ فالواجب هو الذي يجادل متولِّيه في إظهار الحق ، والمذموم وجهان بنص الآيات التي ذكرناها : أحدهما من جادَلَ بغير علم ، والثاني من جادل ناصراً للباطل بشَغَبٍ وتمويه بعدَ ظهور الحق إليه . وفي هذا بيان أن الحق في واحدٍ وأنه لا شيءَ إلاّ ما قامت عليه حُجَّة العقل ، وهؤلاء المذمومون هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ أنّى يُصْرَفونَ ﴾ [غافر : ٦٩/٤٠] . وقوله تعالى : ﴿ ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلْمٍ ويَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَريدٍ ﴾ [الحج : ٣/٢٢] . وبقوله تعالى : ﴿ ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللهِ لَهُ في الدُّنيا خِزْيٌ ونُذيقُهُ يَوْمَ القِيامَةِ عَذابَ الْحَريقِ ﴾ [الحج : ٩/٢٢] . وبقوله تعالى : ﴿ ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ إلاَّ الَّذينَ كَفَروا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُم في البِلادِ ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُم قَومُ نُوحٍ والأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِم وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسولِهِم لِيَأْخُذوهُ وجادَلوا بالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُم فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ﴾ [غافر : ٤/٤٠-٥] . فبيَّن تعالى كما ترى أن الجدال الْمُحرَّم هو الجدال الذي يُجادَل به لينصر الباطل ويبطل الحق بغير علم .

قال أبو محمد : ويقال لمن أبى عن مطالبته الجدالَ ومعاناة طلب البرهان إن فرعون قال : ﴿ ما أُريكُم إلاَّ ما أَرَى وما أَهْديكُم إلاَّ سَبيلَ الرَّشادِ ، وقالَ الَّذي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعوني أَهْدِكُم سَبيْلَ الرَّشادِ ﴾ [غافر : ٢٩/٤٠-٣٠] . فبأي شيء يعرف المحق منهما من المبطل هل يجوز أن يعرف ذلك إلا بدلائل غير كلامهما ؟ فهذا كلام العزيز الجبار الخالق البارئ قد نصصناه في اتِّباع البرهان وتكذيب قولِ مَنْ لا حجَّةَ في يديه ، وهو

الذي لا يسع مسلماً خِلافه . لا قول من قال اذهب إلى شاكٍّ مثلك فناظره ، فيقال له : أترى رسولَ الله ﷺ كان شاكّاً إذ علّمه ربُّه تعالى مجادَلة أهلِ الكتاب وأهل الكفر وأمره بطلب البرهان وإقامة الْحُجَّة على كل من خالفه ، ولا قول من قال أوَ كلما جاء رجل هو أجدل من رجل تركنا ما نحنُ عليه أو كلاماً هذا معناه .

قال أبو محمد : وهذا كلام يستوي فيه مع قائله كلُّ مُلْحِدٍ على ظهر الأرض فلئن وَسِعَ هذا القائل أن لا يَدَعَ ما وجد عليه سلَفه بلا حجة لحجة ظاهرة واردة عليه ليَسَعَنَّ اليهودي والنصراني أن لا يَدَعا ما وجدا عليه سلَفَهما تقليداً بلا برهان ، وأن لا يقبلا برهانَ الإسلام الوارد عليهما وحجته القاطعة . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ ألا لَعْنَـةُ اللهِ على الظَّالِمينَ الَّذينَ يَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ ويَبْغونَها عِوَجاً ﴾ [هود : ١١/١٨-١٩] .

قال أبو محمد : فإذا قد حضَّ الله تعالى على المجادلة بالحق وأمر بطلب البرهان فقد صحَّ أنَّ طلب الحجة هي سبيل الله عزّ وجلّ ، وصحَّ بالنص الذي ذكرنا أن من نهى عن ذلك وصدَّ عنه فهو صادّ عن سبيل الله تعالى ، ظالم ملعون بلا تأويل إلا عينَ النصّ الواردِ من قِبل الله تعالى وبالله نعتصم وقال تعالى : ﴿ ولا يَطَئونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ ولا يَنالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلاً إلاّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ ﴾ [التَّوبة : ٩/١٢٠] . ولا غيظ أغيظ على الكفار والمبطلين من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة ، وقد تهزم العساكر الكُبَّار ، والحجَّةُ الصحيحةُ لا تُغْلَبُ أبداً فهي أدعى إلى الحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي والأعداد الجمة ، وأفاضل الصحابة الذين لا نظير لهم إنما أسلموا بقيام البراهين على صحة نبوة محمد ﷺ عندهم ، فكانوا أفضل ممن أسلم بالغلبة بلا خلاف من أحد من المسلمين ، وأول ما أمر الله عزّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ أن يدعوَ له الناس بالحجة البالغة بلا قتال . فلما قامت الحجة وعاندوا الحق أطلق اللهُ تعالى عليهم السيفَ حينئذٍ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ ﴾ [الأنعام : ٦/١٤٩] . وقال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلى الباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ٢١/١٨] . ولا شكَّ

في أن هذا إنما هو بالحجة ؛ لأن السيفَ مرةً لنا ومرةً علينا ، وليس كـذلـك البرهـان ، بل هو لنا أبداً ، ودامغ لقول مخالفينـا ، ومُزهِقٌ لـه أبـداً . ورُبَّ قوةٍ بـاليـد قـد دَمَغَتْ بالباطل حقّاً كثيراً فأزهَقَتْه[1] .

قال أبو محمد : وقـد علّمنـا اللهُ عزّ وجلّ الحجّـةَ على الـدَّهريـة[2] في قولـه تعـالى : ﴿ وكُلُّ شَيءٍ عِنْـدَهُ بِمِقْـدارٍ ﴾ [الرّعد : ٨/١٣] . وقـولـه تعـالى : ﴿ وأحْصَى كُـلَّ شَيءٍ عَدَداً ﴾ [الجنّ : ٢٨/٧٢] . وعلّمنـا الحجّـةَ على الثنويـة[3] بقولـه تعـالى : ﴿ لَو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدتـا ﴾ [الأنبيـاء : ٢٢/٢١] . وعلى النصـارى وعلى جميع المِلَل وقـد بيَّنّـا في كتابنا المرسوم بكتاب الفصل وأرينا فيه عظيم ما أفادنـا الله تعـالى في ذلـك من الحكمـة والعلم بالمحاجة وإظهار البرهان بغاية الإيجاز والاختصار ، وقد أمر الله تعـالى بـالجـدال على لسـان رسـولـه ﷺ كما جـاء عن أنس بن مـالـكٍ قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « جاهِدوا المشركين بأموالِكم وأنفسِكُم وألسنتِكُم »[4] .

قال أبو محمد : وهذا حديث في غـايـة الصحـة ، وفيـه الأمر بـالمنـاظرة وإيجـابهـا كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله .

وأبـدى ابن حـزم شـواهـد من عصر الصحـابـة في اختـلافهم لطلب الحـق ونصرتـه فقال :

وقـد تحـاجَّ المهـاجرون والأنصـار وسـائر الصحـابــة رضـوان الله عليهم ، وحـــاجَّ ابنُ عباس الخوارجَ بأمر عليّ رضي الله عنه . وما أنكر قطُّ أحدٌ من الصحابة الجِدال في طلب الحق ، فلا معنى لقـولٍ لمن جـاء بعـدهم . وبـالجملـة فـلا أضعفَ ممن يروم إبطـال

(١) الإحكام في أصول الأحكام : ١٣/١-٢٩ ، فصل في إثبات حجج العقول .

(٢) الدَّهْري : القائل ببقاء الدهر .

(٣) الثَّنوي : القائل بتعدد الآلهة .

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي . انظر الجامع الصغير للسيوطي ٤٨٨/١ .

الجِدال بالجدال ، ويريدُ هدم جميع الاحتجاج بالاحتجاج ، ويتكلَّفُ فساد المناظرة بالمناظرة . لأنه مقرٌّ على نفسه أنه يأتي بالباطل ؛ لأن حجَّته هي بعض الحجج التي يريد إبطال جملتها . وهذه طريق لا يركبها إلا جاهل ضعيف ، وإزهاق الباطل وتبيينه ، فمن ذم طلب الحق وأنكر هدم الباطل فقد ألحد ، وهو أهل الباطل حقاً والخصام بالباطل هو اللَّدد الذي قال فيه عليه السلام : « أبغضُ الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم » ، أو كما قال ﷺ . فإذا قد بطَلَت كلُّ طريقٍ ادَّعاها خصومنا في الوصول إلى الحقائق من الإلهام والتقليد وثبت أن الخبر لا يعلم صحته بنفسه ، ولا يتميز حقه كذبه ، وواجبه من غير واجبه ، إلا بدليل من غيره . فقد صحَّ أن المرجوع إليه حجج العقول وموجباتها ، وصحَّ أن العقل إنما هو مميِّز بين صفات الأشياء الموجودات ، وموقف للمستدلِّ به على حقائق كيفيات الأمور الكائنات ، وتمييز المحال منها . وأمَّا مَن ادَّعى أنَّ العقلَ يُحَلِّلُ أو يحرِّم ؛ أو أنَّ العقل يوجِدُ عِلَلاً موجبةً لكون ما أظهر الله الخالِق تعالى في هذا العالم من جميع أفاعيله الموجودة فيه من الشرائع وغير الشرائع ، فهو بمنزلة من أبطل موجب العقل جملةً . وهما طرفان : أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل . والثاني قصَّر فخرج عن حكم العقل ، ومن ادَّعى في العقل ما ليس فيه كمن أخرج منه ما فيه ولا فرق . ولا نعلم فرقةً أبعد من طريق العقل من هاتين الفرقتين معاً : إحداهما التي تُبطل حجج العقل جملة ، والثانية : التي تستدرك بعقولها على خالقها عزّ وجلّ أشياءَ لم يحكم فيها ربهم بزعمهم . فثقفوها ورتَّبوها رتباً أوجبوا أن لا محيد لربهم تعالى عنها ، وأنه لا تجري أفعاله عزّ وجلّ إلا تحت قوانينها[1] . لقد افترى كلا الفريقين على الله عزّ وجلّ إفكاً عظيماً ، وأتوا بما تقشعرُّ منه جلودُ أهل العقول ، وقد بيَّنّا أنَّ حقيقة العقل إنما هي تمييز الأشياء المدرَكة بالحواسّ وبالفهم ومعرفة صفاتها التي هي عليها جاريةً على ما هي عليه فقط من إيجاب حدوث العالم وأن الخالق واحد لم يزل وصحة نبوة من قامت الدلائل على نبوته ، ووجوب طاعة من توعَّدنا بالنار على

(١) وفي هذا الموضوع صنف ابن القيم كتابه : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

معصية ، والعمل بما صححه العقل من ذلك كله وسائر ما هو في العالم موجود مما عدا الشرائع ، وأن يوقف على كيفيات كل ذلك فقط . فأما أن يكون العقل يوجب أن يكون الخِنزير حراماً أو حلالاً ، أو يكون التيس حراماً أو حلالاً ، أو أن تكون صلاة الظهر أربعاً وصلاةُ المغرب ثلاثاً ، أو أن يمسح على الرأس في الوضوء دون العنق ، أو أن يُحدِثَ المرء من أسفله فيغسل أعلاه ، أو أن يتزوج أربعاً ولا يتزوج خمساً ، أو يقتل من زنا وهو مُحصَن وإن عفى عنه زوجُ المرأة وأبوها ، ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمداً إذا عفا عنه أولياء المقتول ، أو أن يكون الإنسان ذا عينين دون أن يكون ذا ثلاث أعين أو أربع ، أو أن تخص صورة الإنسان بالتمييز دون صورة الفرس ، أو أن تكون الكواكب المتحيرة سبعاً دون أن تكون تسعاً ، وكذلك سائر رتب العالم كلها . فهذا ما لا مجال للعقل فيه ، لا في إيجابه ولا في المنع منه ، وإنما في العقل الفهم عن الله تعالى لأوامره ، ووجوب ترك التعدي إلى ما يخاف العذاب على تعديه ، والإقرار بأن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ولو شاء أن يحرم ما أحل أو يحل ما حرم لكان ذلك له تعالى ، ولو فعله لكان فرضاً علينا الانقياد لكل ذلك ولا مزيد . ومعرفة صفات كل ما أدركنا معرفته مما في العالم وأنه على صفة كذا وهيئة كذا كما أحكمه ربه تعالى ولا زيادة فيه ، وبالله تعالى التوفيق وإليه الرغبة في دفع ما لا نطيق .

المناظرة :

للمناظرة معانٍ لغويةٌ أصيلة ، ومعانٍ أخرى في مجال علم الحجج والمناظرات والجدل ونحو ذلك ، كما أنَّ لأصل هذه الكلمة معانٍ متعددة في البيان القرآني .

أولاً : من المعاني اللغوية للنَّظر : تأمُّل الشيء بالعين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُروا ماذا في السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠/١٠١] .

وكذلك التَّفكُّر في الشيء ، كقوله تعالى : ﴿ ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾

[الحشر : ١٨/٥٩] . والتفكّر بالنظر كقوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيفَ ضَرَبوا لَكَ الأَمْثالَ ﴾ [الإسراء : ٤٨/١٧] .

والتَّفكُّر بالنظر في الآفاق كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُروا في مَلَكوتِ السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٨٥/٧][١] .

وفي القاموس : « تناظرتِ النَّخلتانِ : نظرت الأنثى منها إلى الفحل فلم ينفعها تلقيحٌ حتى تُلْقَحَ منه » .

والنَّظر : الفِكْر في الشيء تقدّره وتقيسُه .. والتَّناظر : التَّراوض في الأمر[٢] .

وفي المصباح المنير : المناظرة أن تناظر أخاك في أمر ، إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه .

وناظره مناظرةً بمعنى جادله مجادلةً . وهذا هو مستعمل أهل هذا الفن[٣] .

قال الإمام الزُّهْريّ رحمه الله تعالى :

لا تُناظِرْ بكتابِ اللهِ ، ولا بكلام رسول الله ﷺ .

قال أبو عُبيد القاسمَ بن سَلاَّم ؛ قوله : لا تناظر ، لم يُرد لا تتَبعْه ولا تنظر فيه ، وليس ينبغي أن تكون المناظرة إلاّ بالكتاب والسُّنّة ، ولكن الذي أراد عندي أنَّه جعله من النظر وهو المثَل ، يقول : لا تجعل شيئاً نظيراً لكتاب الله ولا لكلام رسول الله ﷺ ، أي لا تَتْبَعْ قول أحَدٍ وتدعُهُما .

ويكون أيضاً في وجه آخر أن يجعلها مثلاً للشيء يَعْرِض مثل قول إبراهيم : كانوا يكرهون أن يذكروا الآية عند الشيء يعرض من أمر الدنيا ، كقول القائل للرجل إذا

(١) انظر هذه المعاني وأمثالها في المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم جـ٥١٧/١ و ٢٤١-٢٤٢ .

(٢) القاموس المحيط : نظر .

(٣) المصباح المنير : نظر .

جاء في الوقت الذي يريد صاحبه : ﴿ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا موسى ﴾ [طه : ٤٠/٢٠] . هذا وما أشبهه من الكلام »[1] .

قال أبو البقاء الكفوي :

المناظَرة : هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصّواب ، وقد يكون مع نفسه .

والمجادلة : هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم ، سواء كان كلامُه في نفسه فاسداً أو لا .

وإذا علم بفساد كلامه وصحة كلام خصمه فنازعه فهي المكابرة ، ومع عدم العلم بكلامه وكلام صاحبه فنازعه فهي المعاندة[2] .

الْحُجَج :

وكما بيَّنا معاني الجدل والمناظرة لابُدَّ أن نذكر معاني الحجج والآيات الواردة في البيان القرآني حول ذلك .

أولاً ـ مسرد الآيات التي بيَّنت ورود معنى الحجج في القرآن الكريم :

اشتمل القرآن الكريم على بيان الحجج والمناظرات في الآيات التالية :

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذي حاجَّ إبراهيمَ في رَبِّهِ﴾ [البقرة : ٢٥٨/٢] .

﴿ها أنتُم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران : ٦٦/٣] .

﴿فَمَن حاجَّكَ فيهِ مِن بعدِ ما جاءَكَ منَ العلمِ فقُل تَعالَوا نَدعُ أبناءَنا وأبناءَكُم﴾ [آل عمران : ٦١/٣] .

(١) غريب الحديث للقاسم بن سلاّم : ٤٤٧/٢ ـ ٤٤٨ ، الفائق للزمخشري : ١٠٧/٣ .

(٢) الكليات للكفوي : ٢٦٣/٤ ، لسان العرب (نظر) ، القاموس (نظر) .

﴿ وحاجَّهُ قَومُه ، قالَ : أتُحاجُّونّي في اللهِ وقد هَدان ﴾ [الأنعام: ٨٠/٦].

﴿ فَإِنْ حاجُّوكَ فقُل أسْلَمْتُ وَجْهيَ للهِ ومَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: ٢٠/٣].

﴿ لِمَ تُحاجُّونَ في إبراهيمَ وما أُنْزِلَتِ التوراةُ والإنجيلُ إلاّ مِن بعدِهِ ﴾ [آل عمران: ٦٥/٣].

﴿ فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما لَيسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦/٣].

﴿ أتُحاجُّونَنا في اللهِ وهُوَ رَبُّنا ورَبُّكُم ﴾ [البقرة: ١٣٩/٢].

﴿ أتُحَدِّثونَهُم بِما فَتَحَ اللهُ عَليكُم لِيُحاجُّوكُم بهِ عندَ رَبِّكُم ﴾ [البقرة: ٧٦/٢].

﴿ أنْ يُؤتَى أحَدٌ مِثلَ ما أُوتيتُم أو يُحاجُّوكُم عِندَ رَبِّكُم ﴾ [آل عمران: ٧٣/٣].

﴿ والَّذينَ يُحاجُّونَ في اللهِ من بعدِ ما اسْتُجيبَ لَهُ حُجَّتُهم داحِضَةٌ ﴾ [الشورى: ١٦/٤٢].

﴿ وإذْ يَتَحاجُّونَ في النّارِ فَيقولُ الضُّعَفاءُ للَّذينَ اسْتَكبَروا إنّا كُنا لكُم تَبَعاً ﴾ [غافر: ٤٧/٤٠].

﴿ فَوَلُّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ لِئلاّ يكونَ للنّاسِ عَليكُم حُجَّةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٠/٢].

﴿ لِئلاّ يكونَ للنّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُلِ ﴾ [النّساء: ١٦٥/٤].

﴿ قُل فَلِلهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ فلو شاءَ لَهَداكُم أجْمَعينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩/٦].

﴿ لَنا أعْمالُنا ولَكُم أعْمالُكُم لا حُجَّةَ بَيْنَنا وبَينَكُم ﴾ [الشورى: ١٥/٤٢].

﴿ وتِلكَ حُجَّتُنا آتَيناها إبراهيمَ على قَومِهِ ﴾ [الأنعام: ٨٣/٦].

﴿ وما كانَ حُجَّتَهم إلاّ أنْ قالوا ائتُوا بِآبائِنا ﴾ [الجاثية: ٢٥/٤٥].

ثانياً ـ معاني الْحُجّة :

وأما الْحُجَّةُ فهي عبارة عن دليل الدعوى وقد تُطْلَق على الشُّبْهة أيضاً ، لأنها مستنَدُ المخالفة ، قال الله تعالى : ﴿ حُجَّتُهُم داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِم ﴾ [الشُّورى : ١٦/٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ لِئَلا يَكونَ للنّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ ﴾ [النِّساء : ١٦٥/٤] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلِلهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ ﴾ [الأنعام : ١٤٩/٦] ، أي الدليل القاطع الذي

لا يعارضه معارض ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناهـا إبراهيمَ على قَوْمِـهِ ﴾ [الأنعام : ٦/١٨٣][(١)] .

قال الزمخشري : أحجَّ خصمَه : غَلَبَه في المحاجَّة[(٢)] .

وقال الفيومي : الْحُجَّةُ الدليل والبرهان ، والجمع حُجَج[(٣)] .

وفي الصحاح للجوهري : الْحُجَّـة : البرهـان ؛ تقول : حـاجَّـه فحجَّـه ، أي غلبـه بـالْحُجَّة ، وفي المثل : لَجَّ فَحَـجَّ . وهـو رجُـلٌ مِحجَـاجٌ أي جَـدِل[(٤)] . ويشبهـه قـول الفيروزابادي : الْحُجَّة بالضّم البرهان ، والمِحجاج : الْجَدِلُ[(٥)] .

والتَّحاج : التَّخاصم .

وفي الأساس : احتَجَّ على خصمه بِحُجَّة شهباءَ[(٦)] .

قال ابن فارس : ومن الباب : الْمَحَجَّة : وهي جـادَّة الطريق . ويمكن أن تكون الْحُجَّة مشتقَّةً من هذا ؛ لأنها تقصَدُ ، أو بها يقصـد الحق المطلوب ، يقـال : حـاججت فلانـاً فحججتـه ، أي غلبتـه بـالحجـة ، وذلـك الظفر يكون عنـد الخصومـة ، والجمع : الْحُجَج ، والمصدر : الحِجاج[(٧)] .

وبيَّن الإمام الكَفَويُّ معنى الْحُجَّة فقال :

الْحُجَّة بالضم : البرهان ، وعند النُّظَّار أعمّ منه لاختصاصه عندهم بيقين المقدّمات ،

(١) كتاب استخراج الجدل : ص ٦٢ .
(٢) الفائق : ٢٦٣/١ .
(٣) المصباح المنير : حجج .
(٤) الصحاح : حجج .
(٥) القاموس المحيط : حجج .
(٦) أساس البلاغة : حجج .
(٧) مقاييس اللغة : ٣٠/٢ .

وما ثبت به الدعوى من حيث إفادته للبيان يسمى بَيِّنَة . ومن حيث الغلبةُ به على الخصم يسمى حُجَّة .

والمجادلة الباطلة قد تسمّى حجّة كقوله تعالى : ﴿ حُجَّتُهُم داحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِم ﴾ [الشُّورى : ١٦/٤٢] . إما على حسبانهم ومساقهم أو على أسلوب [تهكم بهم][(١)].

ومّما يَرِدُ في هذا المجال ويتعلّق بأصول المناظرات وثمارها مصطلحُ البيّنة والبيّنات .

فالبيّنات جمع بَيِّنَة وهي صفة في الأصل . يقال : آيةٌ بيِّنة ، وحُجَّة بيِّنة . والبيِّنةُ اسمٌ لكلِّ ما يبيِّن الحقَّ من علامةٍ منصوبةٍ أو أمارة أو دليلٍ علمي .. قال تعالى : ﴿ لَقَد أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ ﴾ [الحديد : ٢٥/٥٧] .

فالبيِّناتُ الآياتُ التي أقامها الله دلالةً على صدقهم من المعجزات ، والكتاب هو الدعوة ، وقال تعالى : ﴿ إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وهُدًى للعالَمينَ ، فيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إبْراهيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٦/٣] .

ومقامُ إبراهيمَ آيةٌ جزئيّة مرئيّة بالأبصار ، وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون : ﴿ قَدْ جِئتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِن رَبِّكُم فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَني إسْرائيلَ ، قالَ : إنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقينَ . فَأَلْقى عَصاهُ ﴾ [الأعراف : ١٠٦/٧] . وكان إلقاء العصا وانقلابها حيَّة هو البيِّنة .

وبما أنَّ غايةَ كلّ منصف في العلم أن يصل إلى الحق ، فإننا نجد من الضرورة أن نذكر ولو تعريفاً موجزاً للحقّ الذي هو غايتنا :

في القاموس : « الحقُّ ضدّ الباطل ، والأمرُ المَقْضيُّ ، والعدل والإسلام والمال

---

(١) الكليات : ٢٦٣/٢ .

والمِلك والموجود والثابت والصدق والموت والحزم » ، ويعنينا من هذه المعاني أولها أي الحقّ ضد الباطل ، ويقال : حقَّه ، كَمَدَّه : غلبه على الحق كـ : أحقَّهُ .

والأمرُ يحُقّ ويحِقّ حَقّةً وَجَبَ ووقع بلا شك .. وحَقَقْتُ الأمر تَحَقَّقْتُه وتيقنتُه .. والْمَحقَقُ من الكلام : الرصين . وتَحقَّقَ الْخَبَرُ : صَحَّ .

وذكر العلماء في تعريف الحقّ أنه الحكم المطابق للواقع ، وهو تعريف شامل وعام يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذهب . باعتبار اشتمالها على ذلك ، ويقابله الباطل ، وأما الصدق فقد شاع في الأقوال خاصةً ، ويقابله الكذب ، وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع ، وفي الصدق من جانب الحكم . فمعنى صدق الحكم مطابقته الواقع ومعنى حقيقته مطابقة الواقع إياه[1] .

إثبات حجج العقول :

ذكر الإمام ابن حزم أنْ ليس كل معتقدٍ لمذهبٍ مّا فهو مُحِقٌّ فيه . ولا كلُّ ما استدل به مستَدِلٌّ ما على مذهبه فهو حق . قال : ولو قلنا ذلك لفارقنا حكم العقول .

ثم بيَّن ما يترتب على الاستدلال من حججٍ ومن براهينَ ، فقال : إنَّ من الاستدلال ما يؤدي إلى مذهبٍ صحيح إذا كان الاستدلال صحيحاً مرتباً ترتيباً قويماً .. وقد يوقع الاستدلال إذا كان فاسداً على مذهب فاسد ، وذلك إذا خولف به طريق الاستدلال الصحيح .. فالراجع عن مذهب إلى مذهب لا بدَّ له ضرورةً من أن يكون أحد استدلاليه فاسداً ، إما الأول وإما الثاني . وقد يكونا معاً فاسدين فينتقل من مذهب فاسد إلى مذهب فاسد . أو من مذهب صحيح إلى مذهب فاسد . أو من مذهب فاسد إلى مذهب صحيح . لا بد من أحد هذه الوجوه ، ولا يجوز أن يكونا صحيحين معاً ألبتة ، لأن الشيء لا يكون حقاً باطلاً في وقت واحد من وجه واحد .

(١) المنصف للشمنّي : ٢٩٩/٢ .

وقد يكون أقساماً كثيرة كلها باطل إلاّ واحداً ، فينتقل المرء من قسم فاسد منها إلى آخر فاسد ، وهذا إنما يعرض لمن غبن عقله ، ولم ينعم النظر ، فمال بهوى أو تَهَوَّد بشهوة ، أو أحجم لفرط جبنه ، أو لمن كان جاهلاً بوجوه طرق الاستدلال الصحيحة لم يطالعها ولا تعلمها ، وأكثرُ ما يقعُ ذلك فيما أخذ من مقدمات بعيدة ، فكان الطريق المؤدي من أوائل المعارف إلى صحة المذهب المطلوب طريقاً بعيداً كثير الشعب ، فيكلُّ فيها الذهن الكليل ويدخل مع طول الأمر وكثرة العمل ودفته السآمة ، فيتولد فيها الشك والخبال والسّهو .

وقد بيَّن دور العقل في تعرُّف الدلائل الصحيحة فقال : إن ما كان من الدلائل صحيحاً مسبوراً محققاً فهو حجة العقل ، وما كان منها بخلاف ذلك فليست حجة عقل ، بل العقل يبطلها .

وأجاب عن صِحّة حُجَّة العقل وكيف تعرف بأمثلة واضحة فقال : إن صحة ما أوجبه العقل عرفناه بلا واسطة وبلا زمان .. ولم يكن بين أول أوقات فهمنا وبين معرفتنا بذلك مهلةٌ ألبتة ؛ ففي أول أوقات فهمنا علمنا أن الكلَّ أكثر من الجزء . وأن كل شخص فهو غير الشخص الآخر ، وأن الشيء لا يكون قائماً قاعداً في حال واحدة .. وبهذه القوة عرفنا صحة ما توجبه الحواس . ولا يغفل أن يربط هذه المعرفة بإرادة الله وفعله سبحانه « ولا يدري أحد كيف وقع له ذلك إلا أنه فعل الله عز وجل في النفوس فقط ، ثم من هذه المعرفة أنتجنا جميع الدلائل » ، والقرآن الكريم يوجب صحة حجج العقول لإثبات الحق وإزهاق الباطل .

الحرص على معرفة الحق :

وجَلِيٌّ أنَّ قِوام هذه المعرفة ببراهينها ، وتحرير قوانينها ، ليتميَّز صحيحُ الاعتقاد من فاسده ، ويتبيَّن طريقُ الحقِّ لقاصده ، ومن هنا اهتمَّ ابنُ القَيِّم بما أوتيه من توفيقٍ وتأييدٍ مِنَ الله ، بتوسيع نطاق مباحث الأدلة التوحيدية والبراهين الأصولية الأوليّة ،

انتصاراً للحق من أنْ تغشاه ظُلُماتُ ذوي الإلحاد وقياماً بالْمُسْتَطاعِ مِنْ واجباتِ الدفاع ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللهُ ، لا يُكَلِّفُ نَفْساً إلاّ ما آتاها ﴾ [الطّلاق : ٦٥/٧] .

والتَّصدي لمثل هذا البحث أمر لا يقدر عليه إلاّ الأفذاذ من العلماء الذين رَسَخوا في معرفة العقيدة الصحيحة ودلائلها ..

فمن المستَصعَب النَّظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق . فهذا صَعْبٌ عند من غلبت عليه أمور الحِسّ ، سَهْلٌ عند أهل العقل .

هذا وإن مثل هذه الموضوعات القيِّمة حول المناظرات وبيان حُجَجِ القرآن وبراهينه لجديرة بالبحث والدراسة ، وإظهارُها للناس أولى ؛ لِما فيها من فتح الأذهان لما هي غافلةٌ عنه ، ولما ينبغي التَّفطُّن له « وقد أخرج تعالى مخاطَباته في محاجّة خلقه في أجْلَى صورةٍ ؛ ليفهم العامّةُ من جَلِيِّها ما يُقْنِعُهم ، وتلزمُهم الحجَّةُ ، ويفهم الخواصُّ من أبنائها ما يَربي على ما أدركه فَهْمُ الخطباء »[1] .

ثمراتُ طلب هذا العلم :

والذي يفرض على المسلم ألا يأتي بعملٍ ما ، إلاّ بعد أنْ يعلم حُكْمَ الله فيه ؛ فإن العلم سابقُ العملِ والأميرُ عليه ، وأيُّما عمل لم يَقُمْ على أُسس العلم وركائزِ المعرفة فهو إلى الفساد أقربُ منه إلى الصِّحّة ، وإلى الرَّدِّ أقربُ منه إلى القَبول .

في الحديث الشريف عن سيدنا رسول الله ﷺ : « طَلَبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مُسْلِم »[2] . والعلم عند الإطلاق ينصرف إلى علم الدِّين الذي جاءت به رسالة الله تبارك وتعالى ، فإنه سبحانه أوجب الأعمال وأوجبَ عِلْم ما يُصَحِّحُها . وما أخَذَ العهدَ على العلماء أن يُعَلِّموا الجاهلين إلاّ وقد أخذَ العهد أيضاً على هؤلاء أنْ يتعلَّموا ، واللهُ سائلٌ

(١) الإتقان في علوم القرآن : ١٣٥/٢ .

(٢) الحديث صحيح رواه أنس بن مالك .

الفريقين عن هذا الأمر فالمسؤولية مُوَزَّعَةٌ ، متكاملة . ومن هنا كنتُ في محاضرات التدريس لطلاَّب الشريعة ، أحثُّ الطلبة على الاهتمام بتعلُّم العربية وبذل أقصى الجهد لدراستها ومحبتها ، وكنت أردّد على مسامعهم أنكم أيها الطلاب تحرصون على تصحيح العقيدة السليمة ، وتدرسون العلم النافع لتصحيح العبادة ، وتلتزمون مبادئ الأخلاق لتصحيح المعاملة ، فلم لا تهتمون بتصحيح اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ؟ وكل هذه المعارف والعلوم منهج متكامل في معرفة أصول الدين الإسلامي ومبادئه .

لقد حثَّ الإسلام على طَلَب العلم ، وعلى النظر والتَّفكر والاعتبار والاستنتاج ، وجعل شعار دعوته ﴿ قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف : ١٢/١٠٨] ، و ﴿ ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النَّحل : ١٦/١٢٥] . وترادفت أخبار الحثّ على طلب العلم فيه ، وفي كلام النبي ﷺ كقوله : « ٱغدُ عالماً أو متعلِّماً أو مُحبّاً أو مستمعاً ولا تكن الخامسة فتهلك »[١] . وقوله : « ليس منّي إلاّ عالم أوْ مُتعلِّم »[٢] . فكان هذا سَبَباً في إطلاق الحريّة العلمية للناس جميعاً ، وخاصةً أهل الأخلاق منهم ، الذين هم الطبقة الوسطى في كل أمة ، والذين بهم قِوامُ الأمَّة ؛ إذ يحملون ما فوقهم ويمنعون عما تحتهم ، وبذلك نضجت المنافساتُ العلمية ، وآتت ثمارها ، وأفضى الأمر في العلوم إلى ما وقع من الامتحان والاختبار ، ثم الاختراع والاستنتاج .

هذا وإنَّ العقل البشري يتطلَّع دائماً إلى قوة الإقناع ، عن طريق الحجّة والعلم والبرهان . وكتاب الله العزيز معجزةٌ خالدة لنبيّ الإسلام محمّد ﷺ يحاجّ العقل البشري في أرقى ما وصل ويصل إليه من العلم ، ويتحدّاه إلى الأبد ببيانه ودلائله ، ذلك أنه :

كالبَدْرِ مِن حيثُ التفَتَّ رأيتَه يهدي إلى عينيكَ نوراً ثاقبا

---

(١) الحديث رواه البزار عن أبي بكر ، وذكره الطبري في الأوسط ، وهو في مسند الفردوس للديلمي .

(٢) الحديث رواه ابن عمر .

كالشمسِ في كَبِدِ السّماء ، وضوؤها   يغشى البلادَ مشارقاً ومغارِبـا[1]

وما إنْ دعا البشر إلى عقيـدة التوحيـد حتى وقف النـاس منـه مواقفَ متبـاينـةً ، فكان يسلك معهم مسالك التوجيه والإرشاد ، ويعامل خصومَـه بمـا يتنـاسب وأحوالهم العلمية والاعتقادية ؛ فيجادل المشركين جدال هـدايـة ودلالـة ، ويجـادل أهل الكتـاب جدال تخطئة وإلزام لأنهم على علم .

ويأتي شديداً وقاسياً ، بل مصحوباً بالتهـديـد والوعيـد عنـد جـدالـه للمنـافقين ؛ وما ذلك إلاّ لأنهم كانوا أعرف الناس بلغة العرب ، وبما جاء بـه الرسول الأعظم ﷺ ، من السّمو البياني ، والإعجاز القرآني ، لكنهم تظاهروا بالإسلام فأبطنوا النفـاق ، فكانوا أكثر الأقوام وِزراً ، وألزمهم حجّةً ، وألزمهم بالتهديد والتقريع[2] .

وقد اشتمل البيـان القرآني على الرّد على الخصوم من الحجج والبراهين ، ومـا سـاقـه من الأدلة لتثبيت العقائد ، وتقرير قواعد الإسلام ، مما جاء على ألسنة رسله وأنبيائه ، وما ألهم الله به عباده الصالحين من قولٍ بالحق ودفعٍ للباطل .

ونرى أن مثل هـذه الحجج والأدلـة أمر ضروري لتبليغ رسـالـة الله تعـالى إلى أهل الأرض ، ودفع مـا يعتورهـا من شبهـات ، وإزالـة مـا يقف في طريقهـا من عقبـات ، وكشف ما يُحاك ضدّها من مؤامرات ، وما يدبَّر لها من كيـدٍ وضلال ، وهو أمرٌ نـدبنـا إليه سبحانـه وتعـالى بقولـه : ﴿ ٱدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّـكَ بِـالْحِكْمَـةِ والْمَوْعِظَـةِ الْحَسَنَـةِ ، وجَادِلْهُم بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النّحل : ١٢٥/١٦] .

وقد جعل الله سبحانه مراتبَ الـدَّعوة بِحَسبِ مراتبِ الْخَلْق ؛ فـالمستجيبُ القـابل الذّكي الذي لا يعاند الحقّ ولا يأباهُ يُدْعى بطريقِ الحكمةِ .

---

(١) الأبيات للمتنبي .

(٢) مفتاح دار السعادة : ١٩٣/١ .

والقابلُ الذي عنده نوع غَفْلةٍ وتأخُّرٍ يُدْعى بالموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب .

والمعانِدُ الجاحد يُجادَل بالّتي هي أحسنُ .

هـذا هو الصحيح في معنى الآيـة لا مـا يزعم أسيرُ منطِق اليونـان أنَّ الحكمـة قيـاس البرهان ، وهي دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطـابـة ، وهي دعوة العوام ، وبالمجـادلـة بـالتي هي أحسن القيـاس الجـدلي ، وهو ردُّ المشـاغب بقيـاس جـدلي مسلَّم المقدمات .

وهذا باطل ، وهو مبني على أصول الفلسفة . وهو مُنافٍ لأصول المسلمين ، وقواعدِ الدين من وجوه كثيرة [1] .

النَّظر قانون الاستدلال :

قال جمال الدين الخوارزمي : النَّظر قانونُ الاستدلال في الأمور ، وحاكم العـدل ، وقاضي الصدق ، وبرهانُ الشَّريعة ، ومحكُّ الحقِّ والباطل ، وبريدُ المعرفـة ، وسلطـانُ الحقيقة ، وترجمانُ الإيمان ، وحجَّـةُ الأنبيـاء ، ومحجَّـة الأوليـاء ، والسيفُ القـاطِعُ على الأعداء ، شجرةٌ طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فـالنظر رأسُ السعـادة عنـد أهل الدنيا والدين . فأساس التدبير وصحة الاعتقاد وخُلاصة التوحيد في نـاصيـة النظر ، كما أن أساس الكفر والشرك في جانب التقليـد ، والنظر : هو الفكر في حـال المنظور فيـه لمعرفة حكمةٍ أو فكر القلب في شاهد يدلُّ على غائب ، فإن قيل : مـا الحجـة على صحـة النظر وأنه مؤدٍ إلى العلم ؟ فيقال : إنَّ في العالم حقّـاً وبـاطلاً ، والنـاس صنفـان : أهلُ الحقّ وأهل الباطل ، ولا يُتصور معرفة الحق من البـاطل إلاّ بـالنظر ، والإنسـانُ خُلِقَ كامل الرأي عظيمَ الفكر درّاكاً للمعـاني ، وأُوتي الإدراك وهو العقل ، فـإذا استعملـه على وجهه وقع عنده العلمُ بالمنظور فيه ، كما يقع العلم بالمـدركات عنـد الإدراك ، فعنـد فتح

(١) التفسير القيم : ٣٤٤ .

الأجفان يبصر الأشياءَ ، وعند الاستماع والإصغاء يسمع ، وعند استعمال اللسان يتكلم ، فعند النظر يعلم ، ولو كان فاسداً لم يتضمّن العلم ؛ لأن الفاسد لا يُحكَمُ له بقضيةٍ صحيحة .

والدليل على أن النظر يوصل إلى العلم ـ وهو طريق الحقائق ـ فَزَعُ العقلاء إليه إذا التبس عليهم حكم شيء من الغائبات ، كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعريف ما يخفى من أحوال المرئيات والمسموعات فالنظر دليل العلم .

ولَمّا رأينا عقلاء العالم وجَهابذة المعاني مهما نزلت بهم نازلة أو حدث لهم حادث من المشكلات المهمات فزعوا إلى النظر وتفكروا وتدبَّروا ليعرفوا وجه الصواب من الخطأ والحق من الباطل عرفنا بضرورة العقل أنَّ النظر طريق العلم .

فنحن ، معشرَ المسلمين ، نعرف الحقّ من الباطل بالنَّظر ، ونعرف الكُفر من الإيمان بالنظر ، ونعرف الله ورسوله بالنظر ، ونعرف أنَّ التأسي بلا برهان باطل ولا معصوم إلا رسول الله ﷺ كل ذلك بالنظر ، وبالجملة فالناس من عهد آدم عليه السلام إلى منقرض العالم إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر ، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا وتفكروا ، ولا يقولون : اسمعوا وتفكروا ، فلولا أنه طريق واضح ومنهج لائح لما فزعوا إليه[(١)] .

حريّة الجدل والمناقشة :

يقول المثل الشائع : الحقيقة بنت البحث ، ولا يكون البحث النافع إلاّ على قاعدة حرية التفكير والتعبير ، ولله دَرُّ الإمام ابنِ حزم حيثُ يقول : « مَنْ حَقَّقَ النَّظَرَ وراضَ نفسَه على الحقائق ، وإنْ آلَمَتْها في أوَّل صَدْمَةٍ كان اغتباطُه بذمِّ النّاسِ إيّاه أشدَّ وأعظمَ من اغتباطه بمدحهم إيَّاه » ، لذلك كان للمجادِل أن يقولَ كلَّ ما يجول بخاطره

---

(١) دلائل التّوحيد للقاسمي : ٨ ـ ٩ .

في شأن ما يبحث ، وتعيَّنَ على مناظِرِه أنْ يُصغي ويتفهَّم كلَّ ما يُسْرَدُ أمامه على بساط البحث من غير تأفُّفٍ أو ضجرٍ ، ولو كان ما يُقالُ مُخالِفاً لرأيه واعتقاده ؛ إذ طالما سمعنا كلاماً خِلْناه في أول الأمر خَطأً أو وهماً أو سهواً ، ولكنَّنا بعدَ التَّريُّثِ والبحث والاستقصاء ألفيناه الصّوابَ بعينه ، وأنَّنا المخطؤون . إلاَّ أنَّ بعضَ الناس يركبون متن عَمياءَ فيتسرَّعون في أحكامهم ويستبدُّون بآرائهم من جهةٍ ، ولا يقيمون لآراء الآخرين وزناً ، بلا تدبُّر ولا إمعانِ نظر ، كأنهم أُوتوا قَبَساً أو شعاعاً من نور اليقين ، وفي ظنِّهم أنْ ليس الرأي إلاَّ ما علِموه وليس العلم إلاَّ ما أُلهموه ، ويسترسلون في هذه الخطّة العوجاء حتى يتَّضح لهم فساد اعتقادهم ويميز الخبيثُ من الطيّب ، فيتولاهم الأسف والندم ولاتَ ساعةَ مَنْدَم .

قال الإمام عليّ بن أبي طالب ، كرَّم الله وجهه : « لا تكن عَبْدَ غيرِك وقد جَعَلَك اللهُ حُرّاً » ، وليس القصدُ من العبودية هناك أن تُباع وتشرى بالمال مثلَ السلعة ؛ فحسبُ ؛ بل ذلك يشمل استعبادك لآراء الغير والانصياع لها بلا روية ولا تمحيص .

وقد بيَّنَ الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي مذهبه في الحجج والمناظرة والجدال بين الحريّة والتقليد ، وبين الإنصاف والإجحاف فقال : أنا لا أقول إلاّ ما أعتقدُ ، ولا أعتقدُ إلاّ ما أسمع صداه من جوانب نفسي ، فربما خالفتُ الناسَ في أشياءَ يعلمون منها غيرَ ما أعلم ، ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحقَّ أولى بالمجاملة منهم ، وأنَّ في رأسي عقلاً أُجِلُّه عن أن أنزل به إلى أن يكون سِيُقَةً للعقول ، وريشةً في مَهابِّ الأغراض .

فهل يجمُلُ بعد ذلك بأحدٍ من الناس أن يرميَني بجارحةٍ من القول أو صاعقةٍ من الغضب لأني خالفْتُ رأيه أو ذهبت غيرَ مذهبه ، أو أن يرى أنَّ له من الحق في حملي على مذهبه أكثرَ مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي ؟

لا بأسَ أن يؤيِّد الإنسان مذهبَه بالْحُجَّة والبرهان ، ولا بأسَ أن يَنْقُضَ أدلَّة خصمه ويزيِّفها بما يعتقد أنه مُبطِلٌ لها ، ولا ملامَة عليه في أن يتذرَّع بكل ما يعرف

من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلةً واحدةً لا أحبّها لـه ولا أعتقـد أنها تنفعه ، أو تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشّتْم والسِّباب .

إنَّ لإخلاص المتكلِّم تـأثيراً عظيمـاً في قوة حُجَّتـه وحلول كلامـه المحـلَّ الأعظمَ من القلوب والأفهام ، والشّاتم يعلم عنـه النـاس أنَّـه غيرُ مخلص فيما يقول ، فعبثـاً يحـاول أن يَحملَ الناسَ على رأيه ، أو يقنعَهم بصدقه ، وإنْ كان أصدقَ الصّادقين .

أتدري لِمَ يسُبُّ الإنسانُ مناظرَه ؟ لأنَّـه جـاهلٌ وعـاجزٌ معـاً ، أمّـا جهلُـه فلأنـه يذهبُ في وادٍ غيرِ وادي مناظره ، وهو يظنُّ أنه في واديـه ، ولأنـه ينتقل من موضوع المنـاظرة إلى البحث في شؤون الْمُنـاظَر وأطْواره وصفـاتـه وطبـائعـه ، كأنَّ كلَّ مبحث عنـده مبحثٌ (فيزيولوجي) . وأمّـا عجزُه فلأنـه لوعَرَفَ إلى منـاظِره سبيلاً غيرَ هـذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونةَ ازدراء النّاسِ إياه وحَماها الدُّخولَ في مأزقٍ هو فيـه من الخاسرين ، مُحِقّاً كان أم مُبْطِلاً .

ولا يَجُـوزُ بحـالٍ من الأحـوال أن يكـونَ الغرضُ من المنـاظرةِ شيئـاً غيرَ خِـدْمَـةِ الحقيقة وتأييدِها ، وأحسَبُ أنْ لوسَلَكَ الكتّـابُ هـذا المسلـكَ في مبـاحثهم لاتّفقوا على مسـائلَ كثيرةٍ ، هم لا يزالـون مختلفين فيهـا حتّى اليـوم ، ومـا اختلفـوا فيهـا إلاَّ لأنَّهم فيما بينهم مختلفون ، يسمعُ أحدُهم الكلمـةَ من صـاحبـه ويعتقـد أنَّهـا كلمـةُ حقٍّ لا ريب فيها ؛ ولكنَّه يبغضُه فيبغضُ الحقَّ من أجله ، فينهض للرَّدِّ عليه بحُجَجٍ واهيةٍ وأسـاليبَ ضعيفةٍ . وإن كان قوياً في ذاته ؛ لأنَّ القلم لا يقوى إلاَّ إذا استمدَّ قوّته من القلب ، فـإذا عَيَّ بالْحُجَج والبراهين لجأ إلى المراوغة والْمُهاتَرَة .

والمرءُ يُخْطِئ مرةً ويصيبُ ، وكلٌّ يؤخـذ من قولـه ويتركُ ، فـإذا ضـاقَ بمنـاظره وبالنـاس ذرعـاً فرَّ إلى أضعف الوسـائل وأوهنهـا ، فَسَبَّ منـاظِرَه وشَتَمـه ، وذهب في

التمثيل به كلّ مذهب ، فيسجّل على نفسه الفرار من تلك المعركة ، والْخُـذْلان في ذلـك الميدان[1] .

ويقول الأستاذ المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة :

ونحن لا نرى الخلاف في الفروع إلاّ ثمراتٍ ناضجـةً لما بثّـه القرآنَ الكريم والسُّنـة النَّبوية في نفوس الناس من البحث بعقولهم وتـدبير شؤونهم بـالشورى ومبـادلـة الرأي ، مستضيئينَ بسُنَّة النَّبي ﷺ ومستظلين بأحكام القرآن[2] .

وما أجمل كلمةَ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه :

ما أُحبُّ أنَّ أصحاب محمد ﷺ لا يختلفون ؛ لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق ، وإنهم أئمة يُقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سُنَّةً[3] .

ما يُكْرَهُ فيه المناظرة والجدال والمراء :

إنَّ غاية المناظرة أن تَصل بأصحـابهـا إلى الحقّ ، حتى يعلموا عِلْمَ اليقين أنهم أدركوا غايةَ مقصودِهم في التَّوصل إلى القناعة واطمئنان القلب .

وهذا في مجالات العلوم المختلفة وسائر الفنون ، وقد ذكرنـا قولَـه ﷺ : « المِراءُ في القُرآن كُفْرٌ » . وبيانه أن يتمادى اثنانِ في آيةٍ يجحَدُها أحدُهما ويـدفعُهـا أو يصيرُ فيهـا إلى الشَّك ، فذلك هو المِراء الذي هو الكفر .

وأمـا التنـازع في أحكام القرآن ومعـانيـه بغيـة التوصل إلى معرفتـه وتـدبُّر أسراره فلا ضير ، فقد اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في كثيرٍ من ذلك ، وهـذا يبين لـك أن المراء الذي هو كفر هو الجحود والشك ، كما قـال عزّ وجلّ : ﴿ ولا يَزالُ الَّذينَ كَفَروا

(١) النظرات : بحث أدب المناظرة .

(٢) المدخل الفقهي العام : ١/١٩٢ .

(٣) الاعتصام للشاطبي : ٣/١١ نقلاً عن ابن القيّم في أعلام الموقّعين .

في مِرْيَةٍ مِنهُ ﴾ [الحج : ٢٢/٥٥] ، ونهى السَّلَفُ رحمهم الله عن الجِدال في الله جلَّ ثناؤه في صفاته وأسمائه .

وأما الفقه فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر ؛ لأنه علم يحتاج فيه إلى ردِّ الفروع إلى الأصول للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ، لأن الله عزّ وجلّ لا يُوصَفُ عند الجماعة أهل السُّنّة إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسول الله ﷺ ، أو أجمعت الأمة عليه ، وليس كمثله شيء فيدرَكُ بقياسٍ أو بإنعامِ نظر ، وقد نهينا عن التفكر في الله وأمرنا بالتفكر في خلقه الدَّال عليه ، مصداقاً لقوله ﷺ : « **تَفَكَّروا في خَلْقِ الله** ولا تَفَكَّروا في ذاتِ الله »[١] .

قال عمر بن عبد العزيز : مَنْ جَعَلَ دينَه عُرْضاً للخصوماتِ أكثرَ التَّنَقُّلَ . وكان السَّلف الصالح يكرهون التَّلُّون في الدين .

وعن إبراهيم النَّخعي ﴿ فَأَغْرَيْنا بَينَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ ﴾ [المائدة : ٥/١٤] ، قال : الخصومات والجدال في الدين ، وعن هيثم بن بشير عن العوام بن حوشب قال : « إيَّاكم والخصومات في الدِّين ؛ فإنها تُحبِطُ الأعمالَ »[٢] .

كما روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال : إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم دون العامَّة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[٣] .

وقال الأوزاعي : بلغني أنَّ الله إذا أراد بقومٍ شرّاً ألزمهُمُ الْجَدَلَ ومنعهُمُ العملَ[٢] .

وعن ابن الحنفيّة قال : لا تنقضي الدنيا حتى تكون خصوماتُهم في ربِّهم !.

وقال ابن عباس : لا يزال أمر هذه الأمة مقارباً حتى يتكلموا في الولدان والقَدَر .

---

(١) رواه أبو الشيخ عن ابن عباس . انظر الجامع الصغير ، رقم الحديث ٣٣٤٦ .

(٢) جامع بيان العلم ، لابن عبد البر : ٢/١١٣ ـ ١٢٢ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله : ٢/١١٤ .

وأنشد أبو مصعب بن عبد الله الزبيري مبيِّناً عواقبَ الْجَدَل :

أأقعدُ بعد ما رجَفَت عِظامي ... وكانَ الموتُ أقربَ ما يليني
أُجادِلُ كلَّ معترضٍ خصيمٍ ... وأجعَلُ دينَه غَرَضاً لِديني
فأتركُ ما علمتُ لرأي غيري ... وليس الرأيُّ كالعِلْمِ اليقين
وما أنا والخصومةَ وهي لبس ... تَصرَّفُ في الشمال وفي اليمين
وقد سُنَّتْ لنا سُنَنٌ قِوامٌ ... يَلُحْنَ بكلِّ فَجٍّ أو وَجيْنِ
وكانَ الحقُّ ليسَ له خَفاءٌ ... أغرَّ كغُرَّةِ الفَلَقِ المبينِ
وما عِوَضٌ لنا مِنْهاجُ جَهْمٍ[1] ... بمنهاجِ ابنِ آمنةَ الأمينِ
فأمّا ما علمتُ فقد كفاني ... وأمّا ما جهلتُ فجنِّبُوني
فلستُ مكفِّراً أحداً يُصَلِّي ... وما أُحرِمْكُمُ أنْ تُكفِروني
وكنّا إخوةً نَرمي جميعاً ... فنرمي كلَّ مرتابٍ ظنين
فما بَرِحَ التكلُّفُ أن رُمِينا ... بشأنٍ واحدٍ فوقَ الشؤون
فأوشَك أن يَخرَّ عمادُ بيتٍ ... وينقطعَ القرينُ عن القرينِ

وكان الإمام مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهُهُ ، ولم يزل أهلُ بلدنا يكرهونه وينهون عنه ... ولا أحب الكلام إلاّ فيما تحته عملٌ . وأما الكلام في دين الله وفي الله عزّ وجلّ فالسكوت أحبُّ إليَّ[2] ، وهو رأي أهل الإنصاف والحقّ ، إلاّ أن يضطرَّ أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع بردِّ الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه أو خشي ضلالَ عامّةٍ أو نحو هذا .

---

(١) جهم بن صفوان السمرقندي . قال عنه الذهبي : الضّال المبدّع . هلك في زمان صغار التابعين ، وقد زرع شرّاً عظيماً ، من عقائده أن الإيمان هو المعرفة فقط دون سائر الطاعات .. وأن الإنسان مجبر على أفعاله . ترجمته في ميزان الاعتدال : ٩٧/١ ، الأعلام : ١٤١/٢ . وانظر كتاب تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي .

(٢) جامع بيان العلم وفضله : ١١٤/٢ .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إنه لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلاّ وفي قلبه دَغَل (أي : ريب) .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : لأن يلقى الله عز وجل العبدُ بكل ذنبٍ ما خلا الشِّركَ خيرٌ من أن يلقاه بشيء من الكلام .

وقال الإمام مالك رضي الله عنه : أرأيتَ إن جاء من هو أجدلُ منه ، أيدَعُ دينَه كلَّ يومٍ لدينٍ جديد ؟!

وإذا نظرنا في سيرة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأبي يوسف وزُفَرَ ، ومن أخذ عنهم لم نجدهم قد استهووا النظر في الكلام ، بل ما كانوا يهتمون بغير الفقه والاقتداء بمن تقدَّمَهُم ، معتمدين على ما جاء منصوصاً في كتاب الله ، أو صحَّ عن رسول الله ﷺ أو أجمعت عليه الأمة ، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلِّم له ولا يناظر فيه .

وتَنَاظر القوم وتجادَلوا في الفِقه ونُهوا عن الجِدال في الاعتقاد (العقيدة) لأنه يؤول إلى الانسلاخ من الدين . وأما الفقه فلا يوصل إليه ولا ينال أبداً دون تناظر فيه وتفهُّم له . ومن هنا كان أبو حنيفة رضي الله عنه يدعو تلاميذه أن يأخذوا بما يتجه إليه الدليل بتفكير علمي وإدراك عميق .

وما برح أهل الفقه والفضل من خيار أوليّة الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي وينهون عن لقائهم ومجالستهم ، ويحذرون مقاربتهم أشدَّ التحذير ، ويخبرون أنهم أهلُ ضلال وتحريفٍ لتأويل كتاب الله وسنن الرسول البشير ﷺ . وما توفي رسول الله ﷺ حتى كره المسائل وناحية التنقيب والبحث ، وزجر عن ذلك وحذره المسلمين في غير موطن حتى كان من قوله كراهيةً لذلك :

« ذَروني ما تركتكم ؛ فإنما هَلَكَ الـذين مِنْ قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيـائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم »[1] .

ولقد أحسن القائل :

قَدْ نَقَّرَ النّاسُ حتّى أحدَثوا بِدَعاً في الدِّين بالرَّأْي لم تُبْعَثْ بها الرُّسُلُ
حتّى استخفَّ بـديْنِ اللهِ أكثَرُهُم وفي الذي حُمِّلوا من دينـهِ شُغُلُ

وقال بعض العلماء : كلُّ مجادِل عـالم ، وليس كل عـالم مجـادلاً ؛ يعني أنـه ليس كل عالم يتأتّى له الحجّة ويحضره الجواب ويسرع إليه الفهم بمقطع الحجـة ، ومن كانت هـذه خصاله فهو أرفع العلماء وأنفعهم مجـالسـةً ومـذاكرة ، والله يؤتي فضلـه من يشـاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وفي قــول الله عــز وجــل : ﴿ فَلِمَ تُحَـــاجُّـونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِـــهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران : ٣/٦٦] ، دليل على أنَّ الاحتجاج بالعلم مباح سائغ لمن تـدبّر وأيقن وكان من الراسخين في العلم بأصول دقيقة محكمة وضوابط بيِّنة .

وقال المزني : لا تعدو المناظرةُ إحدى ثلاث :

إمّا تثبيتٌ لما في يديه ، أو انتقالٌ من خطأ كان عليـه ، أو ارتيـابٌ فلا يقـدم من الدين على شك .

قال : وكيف ينكر المناظرة من لم ينظر فيما به يردهـا ، قـال : وحق المنـاظرة أن يراد بها الله عز وجل . وأن يقبل منها ما يتبين .

وقـالوا : لا تصـحُّ المنـاظرةُ ويظهرُ الحـقُّ بين المتنـاظِرَيْنِ حتى يكـونـا متقـاربين أو متسـاويين في مرتبـة واحـدة من الـدين والفهم والعقل والإنصـاف ، وإلاّ فهـو مِراءٌ ومكابرة .

(١) الحديث صحيح عن أبي هريرة . رواه مسلم في الفضائل : ٣٦ .

قال عمر بن عبد العزيز : رأيت مُلاحاةَ الرجال تلقيحاً لألبابهم ، وقال : ما رأيت أحداً لاحى الرجال إلاّ أخذ بجوامع الكلم ، والمراد بالملاحاة هنا المحاوضة والمراجعة على وجه التعليم والتفهم والمدارسة . والله أعلم[1] .

التّحذير من المِراء في القرآن[2] :

أجمع العلماء على التحذير من المراء في القرآن ، أي الشك فيه ، كونَه كلام الله تعالى أو المراد الخوضُ فيه بأنه مُحدَثٌ أو قديم ، أو المراد : المجادلة في الآيات المتشابهة أو التدارؤ فيه ، وهو أن يروم تكذيب القرآن بالقرآن ، ليدفع بعضه ببعض ، فيتطرق إليه قَدْحٌ وطعن .

ومن حقّ النّاظِر في كتاب الله أن يجتهد في التوفيق بين الآيات ، والجمع بين المختلفات ما أمكنه ، فإن القرآن يصدّق بعضه بعضاً ، فإن أشكل عليه شيء من ذلك ، ولم يتيسّر له التوفيق ، فليعتقد أنّه من سوء فهمه ، وليَكِلْه إلى عالِمه وهو الله ورسوله ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ ﴾ [النّساء : ٤/٥٩] .

وروى الإمام أحمد في مسنده ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نزل القرآن على سبعة أحرفٍ . المِراءُ في القرآن كُفْرٌ ، ثلاث مرات ، فما علمتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه »[3] .

التّحذير من المِراء في الدِّين :

حذّر النّبي ﷺ من الوقوع في الجدل ، وجعله سبباً يتحوّل به الناس من الهدى

---

(١) هذا العنوان مأخوذ من كتاب جامع بيان العلم وفضله : ١١٣/٢ـ١٢٢ .

(٢) رسالة المسترشدين للمحاسبي : ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) ورواه الإمام أبو داود في السنة : ٤ .

إلى الضلال ، روى الصحابي أبو أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال[1] : « ما ضلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلاَّ أُوتوا الجدل » ، ثم تلا قولـه تعالى : ﴿ ما ضَرَبوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ ﴾ [الزُّخرف : ٤٣/٥٨] .

وروى الإمام أحمد في المسند عن مكحول عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا يؤمنُ العبْدُ الإيمان كلَّه حتّى يتركَ المِراءَ وإنْ كانَ صادِقاً » أي مُحِقّاً .

وروى الترمذي بسندٍ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُمارِ أخاكَ » . وروى أيضاً عن أنس مرفوعاً : « من تَرَكَ المِراءَ وهو محقٌّ بُني لـه قصر في وَسَطِ الجنّة »[2] .

وذلك أن الجدال يولد النُّفرة والكراهةَ ، ويسبِّبُ الإيحاشَ بين المتحابَّين ، فضلاً عن غيرهما ، فلذا كان لتاركه ـ وهو محق ـ هذا الأجر الجسيم ، فينبغي اجتنابه والبعد إلا على وجه الإنصاف ، أو لإظهار الحق . ولكن ما أقلَّه وأقلَّ أهله اليوم ؟!

وربما قيل في قوله تعالى : ﴿ ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ إلاَّ الَّذينَ كَفَروا ﴾ [غافر : ٤٠/٤] . كيف يصحُّ ذلك وقد يجادل فيها المؤمنون ؟

وجوابنا أنَّ المراد المجادلة الباطلة في آيات الله ، ولذلك ذمَّهم بذلك ، فهو كقوله تعالى : ﴿ وجادَلُوا بِالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر : ٤٠/٥][3] .

وعبَّر سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام عن هذه المعاني مبيِّناً أنَّ هدف المجادِل يجب أن يكونَ إظهار الحقّ ، لا للشهوة ولا للصنعة ، وبيِّن الظرف المناسب لإيراد الحجج والمناظرات والحكمة فيها فقال :

---

(١) في رواية لُقِّنوا الجدل . رواه الترمذي وأحمد .

(٢) انظر فتح القدير : ١/٤٠٠ .

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٣٦٥ .

« ومن غلب في الجدل بالباطل مع علمه بالحق أثِم لجدَله ، وإفحام خصمه ولا يجوز إيراد الإشكالات القوية بمحضر من العامة ؛ لأنه سبب إلى إضلالهم وتشكيكهم ، وكذلك لا يتفوه بالعلوم الدقيقة عند من يقصُر فهمه عنها ؛ فيؤدي إلى ضلالته ، وما كلُّ سِرٍّ يُذاع ، ولا كلُّ خبرٍ يُشاع »[1].

وقال مكيّ بن أبي طالب :

قُـلْ لِمَن يبغي المِرا والْجَـدَلا ... في البراهينِ وذكر البَـدَلا
وحكايـاتِ الأحـاديث التي ... تُورثُ العَجْزَ وتُبْدي الكَسَلا :
وَيـكَ دَعْ عَنْـكَ الخرافـاتِ ولا ... تُكْثِرِ الْمَـزْحَ أُخَيْ والهَـزَلا
مَنْ عَـدَا القرآنَ والعِلْمَ فَقَـدْ ... خـالَفَ الله وخـانَ الرُّسُـلا
فـالزَموا السُّنَّـةَ لا تَبْتَـدِعوا ... واحْذَروا الزَّيغَ وخافوا الزَّلَلا[2]

مَنْ يَتَصَدَّى للحوار والمناظرة :

إنَّ النظر والاستدلال شأنُ ذوي العقولِ الراجحة والأذهان الثاقبة ، وفيه تتفاوت درجاتُ العلماء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم إن خير الاستدلال هو الاستدلال بكتاب الله وتدبُّرِ آياته والاعتبار في بديع مخلوقاته وعجائبِ مصنوعاته ، والاقتداء بأخبار المصطفى ﷺ ، وجميل سيرته وباهر علاماتِه ، ثم إخلاصُ المحبة له ومتابعته ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ ورَسولُهُ ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] .

ولا بدَّ لمن يتصدَّى لهذا البحث من ملكة العلم النافع وبيان أوجه التفاسير الصحيحة ومعرفة السنن الشريفة بدقة وفهم ، يتيح له أن يؤثر في كل من يريد دعوته

(١) أحوال الناس : ٥٦ .
(٢) إنباه الرواة : ٣١٩/٣ .

إلى الله ، ولقد وضع العلماء شرائطَ لمن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم ، لا يحلُّ التعاطي لمن عُرِّي عنها ، وهي أنْ يعرف خمسةَ عَشَر علماً على وجه الإتقان والكمال وهي :

١ ـ اللغة . ٢ ـ النحو . ٣ ـ التصريف . ٤ ـ الاشتقاق . ٥ ـ المعاني . ٦ ـ البيان . ٧ ـ البديع . ٨ ـ القراءات . ٩ ـ أصول الدين . ١٠ ـ أصول الفقه . ١١ ـ أسباب النزول والقصص . ١٢ ـ الناسخ والمنسوخ . ١٣ ـ الفقه . ١٤ ـ الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم . ١٥ ـ علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم .

وإنَّ من يتصدّى للحجج والمناظرات والبحث والجدل في أمور الدين والعقيدة ونحو ذلك ، لا بدَّ أن يجمع هذه الشروط ، ويجمع معها بعض العلوم الدينية وما يُستجدُّ في كل عصر من أمورٍ واكتشافاتٍ تكون عوناً له في إيضاح ما يريده ، في البرهنة على ما يَدلي به من دلائلَ علمية جَليَّة ، غايتُها الوصولُ إلى الحق ، وإقناع البشر بالخير والفائدة والنور والبرهان ، وقد ذكرتُ أن التَّصدّي لمثل هذا البحث أمر لا يقدر عليه إلاّ بعض الأفذاذ من العلماء الذين رسخوا في العلم ، ومعرفة العقيدة الصحيحة ودلائلها وبراهينها ، وأوتوا التوفيق والتأييد والحكمة من الله سبحانه .

هذا وإن من أعظم الآفة على عَوامّ الأمة تصديهم لمناظرةِ مَنْ ناظرهم بما تخيل في أوهامهم وانتصب في نفوسهم من غير ارتياض بطرقِ العلم ، ولا معرفة بأوضاع القول ، ولا تحكك بآداب الجدل ، ولا بصيرة بحقائق الكلام ، ثم إلقاؤهم بأيديهم ـ عند أول صاكّة تصُكّ أفهامهم وقارعةٍ تقرع أسماعهم ، ضارعين خاشعين إلى ما لاح لهم بلا إجالة روية ولا تنقير عن خبيئة . فقصارى قولهم ونظرهم الاستخفافُ بالشرائع والأديان التي هي وِثاق الله تعالى في سياسة خلقه وملاك أمره ، ونظام الألفة بين عباده وقوام معاشهم والمنبه على معادهم الرادع لهم من التباغي والتظالم والمهيب بهم إلى التعاطف والتواصل ؛ لذا كان الجدال معهم عديمَ الفائدة ، قليلَ العائدة لما يقع في نفس أحدهم عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء . قال الإمام الأصبهاني : « ومن لا يقنعه إلا أن

لا يقنع فما إلى إقناعه سبيل ، ولو أنفقت عليه الحكماء بكل بيّنة ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياء بكل معجزة » .

منهج السَّلَف في المناظرة والحُجَج :

صفوةُ الأمة وخيارُها المتَّبعون للرسول علماً وعملاً يَدْعُونَ إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والأدلة والبراهين التي بعث لها بها رسوله ، وتدبُّر القرآن وما فيه من البيان ، ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية ، وهي محبَّةُ اللهِ وحدَهُ ، وإرادةُ عبادَتِه وَحْدَه لا شريكَ لهُ بما أمر على لسان رَسُولِه ، فهم لا يعبدون إلاّ الله ، ويعبدونه بما شرع وأمر ، ويستمعون ما أحبَّ استماعَه ، وهو قوله الذي قال فيه : ﴿ أفَلَم يَدَّبَّروا القُرْآنَ ﴾ [محمد : ٢٤/٤٧] . وهو الذي قال فيه : ﴿ فَبَشِّرْ عِبادي الَّذينَ يَسْتَمِعونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعونَ أحْسَنَهُ ﴾ [الزُّمر : ١٨/٣٩] . كما قال : ﴿ واتَّبِعوا أحْسَنَ ما أُنْزِلَ إلَيْكُم مِنْ رَبِّكُم ﴾[1] [الزُّمر : ٥٥/٣٩] .

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد ، أصول الإسلام أربعةٌ : دالٌّ ودليلٌ ومبيِّنٌ ومستدِلٌ . فالدَّالُّ هو اللهُ ، والدَّليل هو القرآنُ ، والمبيِّن هو الرسول ، قال الله تعالى : ﴿ وأنْزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم ﴾ [النَّحل : ٤٤/١٦] ، والمستدِلّ هم أهلُ العلم وأولو الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودِرايتهم .

ولهذا صار كثير من النُّظّار يُوجبون العلم والنَّظر والاستدلال لبيان الحقّ وشفاء القلوب من الشُّبَهِ مع مَنْ يطلب الاستهداء والبيان . قال ابن تيمية :

دلالة القرآن البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها هي دليل سمعي عقلي ، تميّز به القرآنُ ، وصارَ العالِمُ به من الراسخين في العلم ، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب ، وتسكن عنده النفس ، ويزكو به العقل وتستنير به البصيرة ، وتقوى به

---

(١) النبوات : ٤٧ .

الْحُجَّة ، ولا سبيلَ لأحدٍ من العالمين إلى قطع من حاجَّ به ، بل من خاصم بـه ، فلجَت حجَّتُه وكسر شبهةَ خصمِه ، وبه فُتحتِ القلوبُ واستجيب لله والرسولُ ، فدلالـة القرآن سمعيـة عقليـة قطعيـة يقينيـة لا تعترضهـا الشبهـات ، ولا تتـداولهـا الاحتمالات ، ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً »[1] .

هذا وقد خصَّص الإمام البخاري في صحيحه باباً عَنْوَنَـه بـ : (بـاب الأحكام التي تُعرف بالدلائل ، وكيف معنى الدلالة وتفسيرها) .

وجـاء في شرح الإمـام العيني عمـدة القـاري مـا نصّـه : بيـان الأحكام التي تعرف بالدلائل أي بالملازمات الشرعيـة أو العقليـة ، قـال ابن الحـاجب وغيره : المتفق عليهـا خمسة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستـدلال ، وذلـك كلمـا علم ثبوت الملزوم شرعاً أو عقلاً علم ثبوت لازمه عقلاً أو شرعاً .. والدليل ما يرشد إلى المطلوب ويلزم من العلم به العلم بوجود المدلول[2] .

قال الشافعي في (اختلاف الحديث) :

والعلم من وجهين : اتباع واستنباط ، والاتباع اتباع كتاب ، فإن لم يكن فسنة ، فإن لم تكن فقول عامة من سلفنا لا نعلم له مخالفاً ، فإن لم يكن فقيـاس على كتـاب الله عزّ وجلّ ، فإن لم يكن فقياس على سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن فقياس على قول عامة سلفنا ، لا مخالف له ، ولا يجوز القول إلاّ بـالقيـاس ، وإذا قـاس من لـه القيـاس فـاختلفـوا ، وسـع كـلاًّ أن يقـول بمبلـغ اجتهـاده ، ولم يسعـه اتِّبـاعُ غيرِه فيما أدّى إليـه اجتهادُه بخلافه[3] .

---

(١) النبوات : ٧٨ .

(٢) عمدة القاري : ٧٠/٢٥ .

(٣) اختلاف الحديث : ١٤٨ ـ ١٤٩ .

وإن من الأمور المهمة والتي لا يَسعُ طالبَ العلم والحقِّ أن يجهلَها معرفةَ الأحكام الفقهية ، التي بيَّنها القرآن الكريم ووضحتها السُّنة المطهرة .. والإحاطة بعلمها .

على أننا قد نجد أهل العلم قديماً وحديثاً مختلفين في تفسير بعض الأحكام ، ومتغايرين في بيان الدلالات ، وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويُدرَك قياساً ، وقلَّ مااختلفوا فيه إلاّ وجدنا فيه دلالة من كتاب الله أو سنة رسوله أو قياساً عليهما .. ونحو ذلك ﴿ وفَوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ [يوسُف : ٧٦/١٢] .

ولا شكَّ أنَّ وراء اختلاف الآراء الفقهيَّة آثاراً عميقةً ، لا تُدرَكُ إلاّ بالتَّعمُّق في معرفة أسرار الفقه وأصوله ، ومعرفة مبادئ الفقهاء التي صدروا عنها ، وتَبَلْوَرَت آراؤهم من خلالها فصارت مدارسَ ومذاهبَ ، وهذا الاختلاف لا يتناول الأصل في حقيقته ، وإنَّما هو اختلاف في الفروع حيث لا دليل قطعياً حاسماً للخلاف ، ومثل أقوالهم بالنسبة للشريعة كمثل أغصان الشجرة تتشعب وتتفرع ، والأصل الذي انبعثت عنه واحد ، يغذي جميع الأغصان المتفرعة ، وقد كان تأثير هذه المذاهب الفقهية كثيراً شمل :

- التوسعة والرحمة على الأمة .
- فتح القرائح وتدوين العلوم الإسلامية .
- شحذ الأذهان واستخراج الأحكام من القرآن الكريم .
- مرونة النص وسعة قابليته التطبيقية .
- ثروة فقهية حول تعدد الاحتمالات في معاني النصوص التشريعية .

إن البعد عن منهج القرآن وبيان السنة الشريفة في أمور الدين والدنيا والعبادات والأحكام ونحو ذلك جعل أهل الكلام يفرِّعون ويقعِّدون مسائل وأبحاثاً لا أصل للحق فيها . إنما هي ظنٌّ وتخمين ، وضعف وتضليل ، لا ينبغي التعويل عليها . ونحن نرى ما ينشأ بين الخصوم وأرباب المذاهب من تشعُّب الاستدلالات وإيراد الإشكالات عليها

بتطريق الاحتمالات ، حتى لا تجد عندهم بسبب ذلك دليلاً يعتمد ، لا قرآنياً ولا سُنِّيّاً ، بل انجر هذا الأمر إلى المسائل الاعتقادية ، فاطرحوا فيها الأدلة القرآنية والسُّنية ، لبناء كثير منها على أمور عادية .

وأضاف هؤلاء أنهم اعتمدوا على مقدمات عقلية غير بديهية ، ولا قريبة من البديهة هرباً من احتمال يتطرق في العقل للأمور العادية . فدخلوا في أشدّ مما منه فرّوا ، ونشأت مباحث لا عهد للعرب بها ، وهم المخاطبون أولاً بالشريعة ، ومن هنا نعى عليهم علماء الأمة كالإمام العزّ بن عبد السّلام وابن القيّم خلْطَهم مبادئ العلم بالفلسفة وشقاشق المتكلمين وأهل المنطق في مطالبهم التي لا يعود الجهل بها على الدين بفساد ، ولا يزيد البحث فيها إلاّ خبالاً[1] .

أحوال الناس في طلب العلم :

قال الحسن رحمه الله : طلب هذا العلمَ ثلاثةُ أصنافٍ من الناس :

فصنف تعلّموه للمِراء والجهل ، وصنف تعلّموه للاستطالة والْخَتْل (الخِداع) ، وصنف تعلّموه للتّفقه والعَقْل .

فصاحب التّفقه والعقل ذو كآبةٍ وحُزْنٍ ، قد تنحّى في بُرْنُسِه ، وقام اللّيلَ في حِنْدِسِه ، قد أوكدتاه يداه ، وأعمدتاه رجلاه ، فهو مقبل على شأنه ، عارف بأهل زمانه ، قد استوحش من كل ذي ثقة من إخوانه ، فشدَّ اللهُ من هذا أركانه ، وأعطاه يوم القيامة أمانه .. وذكر الصنفين الآخرين[2] .

أثر الحجج القرآنية في السنة النبوية :

نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ هداية للناس ، وتبياناً لكل شيء ، وكان رسول الله ﷺ يواجه المشكلات التي يثيرها خصومه من المشركين وأهل الكتاب ،

(١) شذرات الذهب ، لابن العماد : ٥/١٦٠ .

(٢) الفائق : ٣/٤١٢ .

وكلّما أثاروا شبهة أو راموا جدالاً ومعارضة نزل القرآن الكريم بالقول الفصل والحق الواضح الذي لا لبس فيه .

هذا وقد وعى رسول الله ﷺ أبعاد المعترك الفكري بين القرآن وخصومه ، وما اشتمل عليه من تقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وذكر التأويلات البعيدة ونحو ذلك . ورسول الله ﷺ سيد البشر وخاتم النبيين وقد نزل عليه القرآن فهو حري بأن يتخلق بأخلاقه ويسير على منواله ، وقد كان ﷺ كذلك ، فقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ فقالت : « كانَ خُلُقُه القُرآن »[1] .

وقد شهد الله تعالى له بهذا الخلق الكريم ، فقال : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ [القلم : ٦٨/٤] . كما أُوتي ﷺ جوامع الكلم ، مع ما فهمه من كتاب الله المنزل عليه ، كل هذه العوامل تجعل من الحقّ قوةً برهانية متماسكة ، تقف أمام الباطل ، وسواء أكانت هذه القوة في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهّرة فإن الجانب الذي صدرت عنه هذه القوة واحد . ومدار ذلك يتضح بأمرين :

أولهما : أننا نجد بين حجج القرآن وبين الحجج الواردة في السُّنة النَّبوية علاقة قوية ، بل هي وحدة متماسكة لا انفصام لها ، فإن الرسول ﷺ اتبع المنهج الذي سلكه القرآن في أدلته وحججه ومناظراته ، وهذا ما يظهر جليّاً في التوجيه والجدال الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة الله عندما تدعو الحاجة إلى استخدام ذلك النوع من الجدل المحكم لأن رسول الله ﷺ هو المفسّرُ والمبيِّن لأبعادِ الوحي المنزل من السماء سواءٌ منه المتلُّو أو غيرُ المتلُّو[2] .

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب المسافرين : ١٣٦ .

(٢) مناهج الجدل : ٢٦٠ .

الثاني : أنَّ الله جلَّ ثناؤه وتقدَّست أسماؤه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وأنزل عليه كتاباً هادياً له ولمن تبعه واستمسك بهديه ، وجعل رسوله ﷺ على ما أراد من ظاهره وباطنه ، وخاصّه وعامّه وما قصد له الكتاب . وكان رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن كتاب الله الدَّالّ على معانيه وشاهدَه في ذلك أصحابه ، ونقلوا ذلك عنه ، وكانوا هم المعبِّرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ . قال جابر بن عبد الله : ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، عليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملنا ..

أثر الْحُجَج والمناظرات في الصَّحابة ومن بعدهم :

لقد هُدي المسلمون إلى الحقّ فتراتٍ طويلةً بسبب استمساكهم بهدي القرآن الكريم وبسبب تفيئهم ظلال السنة النبوية فنعموا براحةٍ وسعادةٍ في منقلب حياتهم .

وقد أظهر الرسول ﷺ إعجابَه بمعاذِ بن جبل ـ مبعوثه إلى اليمن ـ حينما سأله ماذا تصنع إن عرض لك قضاء ؟

قال : أقضي بما في كتاب الله .

قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟

قال : فبسنّةِ رسول الله ﷺ .

قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ؟

قال : أجتهد رأيي ولا آلو (أُقَصِّرُ) .

قال : فضرب رسولُ الله ﷺ صدري ، ثم قال : « الحمد لله الذي وفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسولَ الله ﷺ »[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود ، وانظر فتح القدير : ٢٧٠/٢ ، مسند أحمد ٢٣٦/٥ ، ٢٤٢ .

وما زال المتمسكون بهذا الهدي يحيون حياةً طيبةً مباركة ، وينعمون باستقرار نفسي ، ووجداني ومادي ، يحسدهم عليه كثيرون ، أمّا الشاردون عن ذلك فتلفَحُهم الحياةُ بحرِّها القائظ ، وتبتلعهم متاهاتُ الشّهواتِ والبدع الحمقاء ، والخرافات الجوفاء ، والهوى المتَّبَع ، والادّعاءات الباطلة ، التي لا يسندها دليل ، ولا يدعمها فكر ناضج ، أو هدي مستقيم . وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال ؟

العودة إلى منهج القرآن والسُّنة :

إن الصّراعات التي نمت في المجتمع الإسلامي ، والفِرَقَ التي شَوَّهَتْ بأفكارها ساحةَ الحقّ تعود أسبابُها إلى الانحراف عن سبيل الحقّ والسير وراءَ الأفكار المستورَدة ، والفلسفاتِ العقيمة ، وما نلاقيه اليومَ من قلقٍ واضطرابٍ ، وما يعانيه عصرنا من متاعبَ ومشاكلَ ، مردُّه إلى البون الشاسع بين واقعنا وهدي القرآن الكريم وسنة رسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

والخروج من ذلك كلّه لن يكون إلاّ بالعودة إلى القرآن الكريم وسنّة النبي ﷺ القائل :

« تركْتُ فيكم ما إنْ أخذتُم به لن تَضِلُّوا بعدي أبداً ، كتابَ الله وسنّتي »[1] .

ومن هنا اختصَّ اللهُ هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفةٌ على الحقّ ، لا يَضُرُّهم من خَذَلَهُم ولا من خالَفَهُم ، حتى يأتي أمر الله ، ولو اجتمع الثَّقلان على حربهم قبيلاً ، يدعون مَنْ ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويُبَصِّرون بنور الله أهلَ العمى ، ويُحيون بكتابِهِ الموتى ، فهم أحسن الناس هدياً ، وأقوم قيلاً ، فكم من قتيلٍ لإبليسَ قد أحيَوهُ ، ومن ضالٌّ جاهلٍ لا يعلم طريقَ رُشْدِهِ قد هدوه ، ومن مبتَدِعٍ في دين اللهِ بشهب الحقّ قد رَموه جهاداً في الله وابتغاءَ مرضاته ، وبياناً لحججه على العالمين وبيناته ، وطلباً للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته[2] .

(١) الحديث أخرجه أبو داود في المناسك : ٥٦ . وابن ماجه في المناسك : ٨٤ . وفي الموطأ في القدر : ٣ .

(٢) مفتاح دار السعادة : ٢ .

هذا وإنَّ من أعظم الأسباب في إيصال المسلمين إلى ما وصلوا إليه من الانحطاط والتفريق جُبْن الكثيرين في نصرة الحق ، وتوهّمهم أنَّ المداهنة هي المداراة ، ورغبتهم في أن يقال عنهم إنهم لطفاءُ غيرُ متعصبين ولا مفرّقين ، مع أنَّ الله تعالى فرَّق بين الحق والباطل ، وفرض على عباده التفريق بينهما ، فأوجب اتّباع الحقِّ واجتناب الباطل فننصر الحقّ ونرحم الْخَلْق .

والذي أراه أنَّ التَّقْصير في زماننا واضحُ الآثار ، لا سيا في تعلُّم الفقه الإسلامي الذي يُداخِلُ العباداتِ والمعاملاتِ ، ومثلُه علم العقائد الدينية الذي هو أصل الأصول ، وأسُّ الأُسس ، وماذا ينفع العمل إن كانت العقيدة متهافتةَ الدَّعائم ، ومزلزَلة القواعد ، غيرَ محروسةٍ بالبراهين التي تَدْرَأُ عنها الأخطار وتحميها من أعاصير المضلّين وزوابعهم .

وكفانا ـ نحن المسلمين ـ فخراً ، أن نستمدَّ كل توجيهاتنا وتشريعاتنا وتعاليمنا من كتابِ ربِّنا العظيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما وصفه منزله ، عزَّ وجلَّ ، بقوله : ﴿ وإنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ ، لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميدٍ ﴾ [فُصّلت : ٤١/٤٢] .

والذي يقول فيه سبحانه : ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهْدي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ ويُبَشِّرُ الْمُؤمِنينَ الَّذين يَعْمَلونَ الصّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كَبيراً ، وأنَّ الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُم عَذاباً أليماً ﴾ [الإسراء : ١٧/١٠] .

وإنَّ من يتأمل الشريعة الإسلامية ، ويطَّلع على نصوصها وأحكامها ، يجد أنها قد تضمنت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، مع العدل الكامل ، واليُسْرِ المحبَّب .

كما يخرج بنتيجةٍ حتميَّةٍ أنَّها الشريعة السَّمحاء الكاملة التي تصلُح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولكلِّ أمةٍ ولكلِّ عصر ، حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

ولما كان الإسلام دينَ البشرية إلى قيام الساعة ، وكان رسولُه خاتَم النَّبيِّين ، كانت

تعاليمه سمحةً مرنةً ، تُسايرُ العصورَ ، ولا تعارض التَّطور ، وتتمشى مع تقدُّم الحياة وازدهارها .

الحقُّ كُلَّما جُحِدَ أو عُورِضَ أقامَ الله تعالى من الآيات ما يؤيده[1] :

قال الإمام تقي الدين رَحِمَه اللهُ : إنَّ الحقَّ إذا جُحِدَ وعُورِضَ بالشُّبهات أقام الله تعالى ما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات البيِّنات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عرضه من الحجج الدّاحِضَة ؛ فالقرآنُ لَمَّا كذَّب به المشركون واجتهدوا على إبطاله بكل طريقٍ مع أنه تحدّاهم بالإتيان بعشرِ سُوَرٍ ثم بالإتيانِ بسورةٍ واحدةٍ ، كان كل ذلك مما دلَّ ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة ، مع شدَّة الاجتهاد وقوة الأسباب ، ولو اتَّبعوه من غير معارضةٍ وإصرارٍ على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل ، وكذلك السَّحرة لما عارضوا موسى عليه السلام وأبطل الله ما جاؤوا به كان ذلك مما بيَّن اللهُ تبارك وتعالى به صِدْق ما جاء به موسى عليه السلام ، وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات ، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشياطين من التصرفات فإن بين هذين فروقاً متعددة ؛ منها ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطينُ ، تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ ﴾ [الشُّعراء : ٢٢٢/٢٦] ، ومنها ما بيَّنه في آيات التحدِّي من أنَّ آياتِ الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يُعارَض بالمثل فَضْلاً عن الأقوى ، ولا يمكن أحداً إبطالُها بخلافِ خوارق السحرة والشياطين فإنه يمكن معارضتُها بمثلها وأقوى منها ويمكن إبطالها . وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن الذين يُوحي بعضهم إلى بعض زُخرُفَ القول غروراً ، إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ويموِّهون في ذلك بما يُلَفِّقونه كان ذلك من أباب ظهور الإيمان الذي وعد الله تعالى بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان ... قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسَلَنا بِالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا

(١) هذا الفصل من كتاب التوحيد لجمال الدين القاسمي .

مَعَهُمُ الكِتابَ والميزانَ لِيَقومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وأنْزَلْنا الْحَديدَ فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ ومَنافِعُ لِلنَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ بِالغَيْبِ إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥/٥٧] ، وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل ، والحالي من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغيَّ من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد . وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب قال الله تعالى : ﴿ ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤمِنينَ على ما أَنْتُم عَلَيهِ حَتَّى يَميزَ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩/٣] . وقال تعالى : ﴿ الَمّ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكوا أن يَقولوا آمَنَّا وهُم لا يُفْتَنونَ . ولَقَد فَتَنَّا الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذينَ صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ ﴾ [العنكبوت : ١/٢٩-٣] . والفتنة هي الامتحان والاختبار كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَن تَشاءُ وتَهْدي مَن تَشاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥/٧] ، أي امتحانك واختبارك تضل بها من خالف الرسل وتهدي بها من اتبعهم ، والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا دخل كير الامتحان ، فإنها تميِّز جيدَه من رديئه ، فالحق كالذهب الخالص كلما امتُحِنَ ازداد جَودةً ، والباطل كالمغشوش الْمُغشَّى إذا امتحن ظهر فساده ، فالدين الحقّ كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظرُ ، ظهرت له البراهينُ ، وقوي به اليقينُ ، وازداد به إيمان المؤمنين ، وأشرق نوره في صدر العالمين ، والدين الباطل إذا جادل عنه المجادِل ، ورام أن يقيم عودَه المائل ، أقام الله تبارك وتعالى من يَقذِف بالحق على الباطل فيدمغُه فإذا هو زاهق ، ويبيِّن أن صاحبه الأحمق كاذبٌ مائق ، وظَهَر فيه من الفساد والتناقض والإلحاد ، والضلال والجهل والمحال ، ما يظهر به لعموم الرجال ، أن أهله من أضلِّ الضُّلاَّل ، حتى يظهر فيه من الفساد ، ما لم يكن يعرفه أكثرُ العباد ، ويتنبه بذلك من كان غافلاً من سِنَةِ الرُّقاد من كان لا يميز الغيَّ من الرَّشاد ، ويحيي بالعلم والإيمان من كان مَيْتَ القلب لا يعرف معروفَ ﴿ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ ﴾ [النِّساء : ٦٩/٤] ، ولا ينكر منكر المغضوبِ عليهم والضَّالِّين .

وقال رحمه الله أيضاً : ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبيّاً وأتى بآيةٍ دالّـةٍ على صدقه قامت بها الْحُجَّة وظهرت بها المحجَّة ، فمن طالبهم بآيةٍ ثـانيـةٍ لم تجِبْ إجـابتُهم إلى ذلك ، بل وقد لا ينبغي ذلك لأنه إذا جاء بآيةٍ ثانية طُولِبَ بثـالثـةٍ وإذا جـاء بثـالثـةٍ طولبَ برابعةٍ ؛ فإن طَلَبَ المتعنِّتين لا أمدَ له ، ومعلومٌ أنه مَنْ قامت عليه حجّة بيِّنة في مسألة عِلمٍ وحقٌّ من حقوق العبـاد التي يتخـاصمون فيهـا لوقـال : أنـا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة كان ظالماً متعدياً ، ولم يجبْ إجـابتـه إلى ذلـك ولا يمكن الحكامُ الخصومَ من ذلك ، بل إذا قامت البيِّنة بحقِّ المدَّعي حُكِمَ له بذلـك ، ولو قـال المطلوب أريد بيِّنةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً لم يجب إلى ذلك . فحقّ الله الـذي أوجبـه على عبـادِه من توحيده والإيمان به ورسلِه أولى ، إذا قـامت بيِّنـة أوجبت على الخلق الإيمـانَ برسلِـه أن لا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة .

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمةٌ فيتابع تعالى بين الآيات ، كما أرسل محمـداً ﷺ بآياتٍ متعددة ، لعموم دعوته وشمولهـا ، فـإن الأدلـة كلمـا كثرت ووردت على مـدلول واحد كان أكثرَ وأظهر وأيسر لمعرفةِ الحق ، فقد يعرف دلالـة أحـد الأدلـة من لم يعرف دلالة الآخر ، وقـد يَبْلُغ هـذا مـا لم يبلغ هـذا . وقـد يُرسلُ الأنبيـاء بـآيـاتٍ متتـابعـةٍ ويقسي قلوب الكفّار عن الإيمان لتتابع الآيات آيةً بعد آية لينتشر ذلـك ويظهر ويبلغ ذلك قوماً آخرين فيكون ذلك سبباً لإيمانهم .

الكتاب والسُّنة يشتملان على حكم كل شيء :

قال الله تعالى :

﴿ اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وأَتْمَمْتُ عَلَيكُم نِعْمَتي ﴾ [المائدة : ٥/٣] .

وقال تعالى :

﴿ ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِنْ شَيءٍ ﴾ [الأنعام : ٦/٣٨] .

وقال تعالى منوِّهاً بعمل الرسول ﷺ :

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾ [النّحل : ١٦/٤٤] .

وقـال عليـه الصلاة والسلام في حِجَّـة الوَداعِ : اللهم ، هل بَلَّغْتُ ؟ قـالوا : نعم ، قال : اللهم اشْهَدْ .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

« من أراد العلم فَلْيُثِرِ القُرآنَ ؛ فإنَّ فيه علمَ الأولين والآخِرين »[1] .

فليس شيء اختُلِفَ فيـه إلاّ وهـو في القرآن ، فصحَّ بنص القرآن أنـه لا شيء من الدين وجميع أحكامه إلاّ وقد نصَّ عليه . ونصَّ اللهُ تعالى على أنه لم يكل بيان الشريعة إلى أحـد من النـاس ، ولا إلى رأي ولا إلى قيـاس ، لكن إلى نصّ القرآن وإلى رسوله ﷺ ، مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله بـه إلاّ وقد أمرتكم به ، ولا تركتُ شيئاً مما نهاكم الله عنه إلاّ وقد نهيتكم عنه » .

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم ، فـإنْ تَنـازَعْتُم في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسولِ ، إنْ كُنتُم تُؤْمِنـونَ بـاللهِ واليَـومِ الآخِرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحْسَنُ تأْويلاً ﴾ [النّساء : ٤/٥٩] .

فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلامـاً بـأن طـاعـةَ الرسول تجب استقلالاً من غير عرض مـا أمر بـه على الكتـاب ، بل إذا أمر وجبَتْ طـاعتُـه مطلقـاً ، سواءٌ كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنَّه أُوتي الكتابَ ومثلَه معه .

قال ابن القيم :

« وقـد تضمن البيـان القرآني أن أهـل الإيمـان قـد يتنـازعـون في بعض الأحكام ، ولا يَخرجُون بذلك عن الإيمان ، إذا ردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، كما شرطه اللهُ

---

(١) ثوِّر القرآنَ : بحث عن علمه وفاتش العلماءَ في تفسيره ومعانيه (اللسان : ثور) ، والإتقـان للسيوطي : ٢/١٨٥ .

عليهم ، ونلمح أن قوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ ﴾ نكرةٌ في سياق الشرط تعمُّ كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دِقّه وجلّه ، جليّه وخفيّه ، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيانُ حكم ما تنازعوا فيه ، ولو لم يكن كافياً لم يأمر بالرّد إليه ؛ إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرَّدّ عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصلُ النِّزاع »[1] .

وقال ابن السيد البطليوسي[2] :

إن اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه ، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد ، وما أجمل قول الشاعر :

وليس كلُّ خِلافٍ جاءَ معتَبراً إلاّ خلافٌ لهُ حَظٌّ منَ النَّظَرِ[3]

وقال آخر :

وكَمْ مِن عائبٍ قولاً صَحيحاً وآفَتُـــهُ منَ الفَهمِ السَّقِيمِ
ولكِنْ تأخذُ الآذانُ منهُ على قَدْرِ القَرائحِ والعُلومِ[4]

وقد نبَّهنا رسول الله ﷺ إلى أهميَّة سنَّتِهِ وخطورةِ شأنها ، وضرورةِ العنايةِ بها ، فيما رواه أبو داود عن المقدام بن معديكرب أنَّ رسول الله ﷺ قال :

« ألا إنني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه مَعَهُ ، ألا يُوشِكُ رَجُلٌ شبعانُ مُتَّكِئٌ على أريكَتِهِ يقول :
عليكم بالقرآن فما وجَدْتُم فيه من حلالٍ فأحِلُّوه ، وما وجَدْتُم فيه مِن حرامٍ فحرِّموه .

وإنَّ ما حَرَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ كما حرَّم اللهُ » .

(١) أعلام الموقعين : ٤٩/١ .
(٢) الإنصاف : ١٢٧ .
(٣) الإتقان للسيوطي : ٥/١ .
(٤) الأبيات لأبي الطيب المتنبي .

ولا شكَّ أن غنى النص بالمفاهيم والمعاني المختلفة هو الذي يهبه خاصيَّة البقاء ، كما في حال النص القرآني والسُّنة الشريفة . وما علينا إلا التَّفكر والتَّدبر .

والذي يجب على كلِّ مُسْلِمٍ اعتقادُه : أنَّه ليس في سُنَنِ رسول الله ﷺ الصحيحة سنةٌ واحدةٌ تخالِف كتابَ الله ؛ بل السُّننُ مع كتابِ الله على ثلاثِ منازل :

المنزلةُ الأولى : سُنَّةٌ موافِقَةٌ شاهِدَةٌ بنفسِ ما شَهِدَتْ به الكُتُبُ المُنَزلةُ .
المنزلةُ الثانية : سُنَّةٌ تُفسِّر الكتابَ ، وتبيِّنُ مرادَ اللهِ منْهُ ، وتقيِّدُ مُطْلَقَهُ .
المنزلةُ الثالثة : سُنَّةٌ متضمِّنَةٌ لحكمٍ سَكَتَ عنه الكتابُ فتبيِّنَهُ بياناً مبتَدأً .

قال ابن القيم : والذي نُشْهِدُ اللهَ ورسولَه به : أنه لم تأتِ سُنَّةٌ صحيحةٌ واحدةٌ عن رسول الله ﷺ تناقضُ كتاب الله وتخالفه ألبتةَ . كيفَ ؟ ورسول الله ﷺ هو المبين لكتاب الله ، وعليه أُنزل ، وبه هداه الله . وهو مأمور باتِّباعه ، وهو أعلمُ الخلْقِ بتأْويله ومراده[1] .

فالذي جاءت به الشريعة لا مزيدَ في الحسن والحكمة والعدل عليه ، ولله الحمد .

أدلَّة القرآن والسُّنة :

إنَّ أدلَّةَ القرآنِ والسُّنَّة نوعان :

أحدهما يدلُّ بمجرد الخبر ، والثاني يدل بطريق التنبيه على الدليل العقلي ، والقرآنُ مملوء من ذِكر الأدلَّة العقلية ، التي هي آيات الله الدالَّة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته ؛ فآياته العِيانية المشهودة في خلقه تدل على صدق النوع الأول ، وهو مجرَّد الخبر ، ولم تتجرد أخباره ـ سبحانه ـ عن آية تدل على صدقها ، بل قد بيَّن لعباده في كتابه من البراهين الدّالَّة على صدقه وصدق رسوله ما فيه هدى وشفاء[2] .

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة : ٧٣ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة : ٩٧ .

فلا تجد كتاباً قد تضمن من البراهين والأدلة العقلية على هذه المطالب ما تضمنه القرآن الكريم ، قال السيوطي في الإتقان : النوع الثامن والستون :

قال العلماء : قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة ، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تُبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلاَّ وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين .

فالمقصود أنَّ القرآن مملوء بالاحتجاج[1] ، وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة . وأمر الله تعالى رسوله ﷺ فيه بإقامة الحجة والمجادلة ، فقال تعالى : ﴿ وجادِلْهُم بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النَّحل : ١٦/١٢٥] ، وقال : ﴿ ولا تُجادِلُوا أهْلَ الكِتابِ إلاَّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٤٦] . وهذه مناظرات القرآن مع الكفَّار موجودة فيه ، وهذه مناظرات رسول الله ﷺ وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم ، لا ينكر ذلك إلاَّ جاهلٌ مفرطٌ في الجهل .

الحُجَج والمناظرات في الفلسفة والمنطق :

المنطق هو العلم الذي يبحث في صحيح الفكر وفاسده ، ويضع القوانين التي تعصم الذهن من الوقوع في الخطأ في الأحكام ، ولكن المناطقة منذ عهد أرسطو قد اعتادوا أن يقسموا المباحث المنطقية إلى ثلاثة أقسام[2] :

الأول : مبحث التصورات ، ويدرسون فيه الألفاظ ودلالتها وأنواعها ثم التعريف وأنواعه .

الثاني : مبحث التصديقات ، ويدرسون فيه القضايا وأنواعها وأحكامها .

الثالث : مبحث الاستدلال ، ويدرسون فيه الحجج وأنواع الحجج .

---

(١) وقد خصص الإمام الرازي كتاباً في ذلك سماه : حجج القرآن ، وللإمام الشافعي كتاب الحجة ، صنفه في العراق سنة سبع وسبعين ومئة .

(٢) المنطق التوجيهي : ١٤ ـ ١٦ .

والاستدلال بوجه عام هو استنتاج قضية من قضية ، أو عِدَّة قضايا أخرى ، أو هو الوصول إلى حكم جديد مغاير للأحكام التي استنتج منها ، وربما كان أهم عملٍ للمنطقي هو وضع القوانين التي بمقتضاها يكون الاستدلال صحيحاً ، لأن الغاية من التفكير كسب العلم الصحيح باستخدام ما يعلمه الإنسان في الوصول إلى ما لا يعلمه ، متبعاً في ذلك القواعد الضرورية لصحة الانتقال من المعلوم إلى المجهول .

يلهج كثير من المتكلمين بأن علم المنطق ضروري في الحياة ، ويتجاوز آخرون فيدَّعون أن المنطق فرض كفاية ، وأنَّ من ليس له خبرة به فليس له ثقة بشيء من علومه .

وهذا القول في مجال التحقيق في غاية الفساد ، وبعيد عن أيّ علم من علوم الحياة : اللغة والطبيعيات وعلوم الدين ونحوها . بل الواقع قديماً وحديثاً أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به ويناظر به إلاّ وهو فاسد النظرة والمناظرة ، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه ، هذا من ناحيةٍ .

وجاء في كتاب عبقرية اللغة العربية : إذا كان من غير الممكن أن نبني دراساتنا في الأدب والفلسفة على أسس المنطق وقواعد العلم بناءً تامّاً ، فإن من غير المعقول أن نجانب هذه الأسس والقواعد في دراسة الأدب والفلسفة مجانبةً تامةً ، وقديماً قيل في الشعر :

كَلَّفْتُمونا حُدودَ مَنْطِقِكُم والشِّعْرُ يُغني عَن صِدقِهِ كَذِبُه

وفي مجال الفلسفة يبحث المتفلسفة جاهدين لإظهار الحقّ بطُرُقِ القياس والجدل والتأويلات العقلية ؛ ويدّعون أنَّ الرُّسل لم يتمكنوا من بيان الحقائق لأن إظهارها يفسد الناس ، ولا تحتمل عقولهم ذلك ، ثم قد يقولون : إنهم عرفوها ، وقد يقول بعضهم : لم يعرفوها ، أو أنا أعرفُ بها منهم ، ثم يبينونها بالطرق القياسية الموجودة عندهم ، ولا شكّ أن العقل والدين يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة أحقُّ بكل تحقيق

وعلم ومعرفة وإحاطة بأسرار الأمور وبواطنها ، هذا لا ينازع فيه مؤمن .

وهكذا إذا تدبَّر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وأهل المنطق وجد القرآن والسُّنة كاشفين لأحوالهم ، مبينين لحقهم ، مميزين بين حق ذلك وباطله ، والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك ، كما قال فيهم عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد : كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلُّفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيهم وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ولقد عرف أئمة العلم كالغزالي والرازي بُعد منهج علم الكلام والفلسفة عن منهج الحقّ بعد أن درسوا أصوله وعاشوا في غمراته وعرفوا حقيقته ، فهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ويحيل في آخر أمره على طريق أهل الكشف ، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث .

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي يقول : لقد تأمَّلْتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقربَ الطرق طريقةَ القرآن ، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني يقول : إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلاَّ الحيرَةَ والنَّدمَ .

بَدَّد ابن القيِّم بقويِّ حجته من كتاب الله وهدي رسوله ما زعمه المتفلسفون من خصومة الدين للعقل ، أو تجافيهما . وأقام البراهين الساطعة على توافقهما وتآخيهما ، إذا وضعا الوضع السليم ، على أن يكون الدين أصلاً للعقل ، ومآباً يفيء إليه ، إذا حيَّرته متاهات الظنون .

مزاعم الفلاسفة :

يزعم الفلاسفة أنهم وحدهم أرباب المنطق والعقل والحكمة ، وأنهم آلهة الفكر

المقدسون ، وهذا الادعاء ربما ينطبق على آرائهم وجهودهم في الطبيعيات ، فلهم خوض وتفصيل تميَّزوا به ، بخلاف الإلهيات فإنهم من أبعد الناس عن معرفة الحق فيها . يقول ابن تيمية :

العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولي تستوي فيه أفراده ، فإنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يجوز أن يمثّل بغيره ، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كليّة تستوي أفرادها ، ولهذا لمَّا سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلّتُهم[1] .

هذا الاقتراب من تاريخ الفلسفة يجعلنا على درايةٍ من آراء الفلاسفة على وجهها دون أن ندعي أو ننسب إليهم آراءنا نحن ، ذلكَ أنَّ نَفَراً كثيرين من الدارسين يسلُكون مع الأسف مذهباً مجانباً للصواب ، يكتب قوم عن الفارابي أو ابن رشد أو الرازي فلا ترى في ما يكتبون إلا آراءهم ، أما آراء الفارابي أو الرازي فيكون في غيابة من منازعهم هم وفي خيالٍ من هواجسهم هم .

إنَّ كثيرين من الدارسين يجانبون العلْمَ في دراساتهم الأدبية والفلسفية لأنهم يعتقدون أن الأدب شيء والعلم شيء آخر . لا ريب أن الإنتاج الأدبي والإنتاج العلمي شيئان مختلفان ، ولكن دراسةَ الأدب لا يجوز أن تكون مقطوعة الصلة بالأسس التي تجري عليها دراسة العلم . إن الدراسة منهج ، والمنهج ابن المنطق وصنو العلم ، وليس يرفع من شأن الأديب أن يكون جاهلاً بالعلم ، كما لا نرضى للعالم أن يكون غافلاً عن قيمة الآداب والفنون ، إنَّ الحياة نفسها ليست لوحاً مُسْتَعْرِضاً ، ولكنَّها بناء متعدِّد الجوانب ، والنظر إلى الحقيقة كالنظر إلى الواقع كلاهما صحيح في نطاقه ، وكلاهما ضروري في الحياة وللحياة[2] .

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول : ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢) عبقرية اللغة العربية : ٢٧٨ ـ ٢٧٩ . وانظر الإحكام في قواعد الأحكام لابن حزم : ٤/١ .

بين الأحكام الشرعيّة والأحكام اللغويّة :

من البيِّن أنَّ استنباطَ الأحكامِ الشَّرعيّـة يتوجَّـه في المقـام الأول من القرآنِ الكريم والسُّنَّةِ الشريفة ، ولا محيدَ لعالمٍ عنها ، ولا مجـال لابتـداع رأي أو اجتهـادٍ فيهما ، ومن هنا وجدنا صريحَ عبارةِ الفقهاء : (لا اجتهادَ مع النَّص) .

فالرجوع في بيـان العلـة الفقهيـة والـدليل الشرعي إلى القرآن كافٍ ووافٍ ؛ إذ هو الحكم والدليل ، وفيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبياناته مـا لو جُمِعَ كلُّ حقٍّ قـالـه المتكلمـون في كتبهم لكانت سـورة من سـور القرآن وافيـةً بمضمـونـه ، مـع حسن البيـان وفصاحة اللفظ وتطبيق المِفْصل وحُسْن الاحتراز ، والتنبيـه على مواقع الشُّبَـهِ والإرشـاد إلى جوابها ، وإذا هو كما قيل ، بل فوق ما قيل :

كَفَى وشَفَى مـا في الفُـؤادِ فَلَمْ يَـدَعْ ... لِـذِيْ أَرَبٍ في القَـوْلِ جِـدّاً ولا هَـزْلا

أما استنباطُ الأحكامِ اللغوية وبناء القواعد النحويـة واستخراجِ المسـائل الصرفيـة وبيان أسرارهـا وخصـائصهـا فـذاك راجع إلى نظرة العلمـاء العرب وعمق إدراكهم ودقـة فهمهم لطبيعة الكلام العربي وأسرار اللغة العربية . يحاولون فهمهـا وتفسيرهـا ، « وقف جمهور النحاة إزاءَ ظواهر التعبير يبحثون عن سبب ورودها في أشكالها الحالية ، وشغلوا بمعرفة العِلّة لـذلـك ، فـانطلقوا وراء الحـدس والتخمين وتفسير إرادة المتكلم وغـايـاتِـه الصوتية والتركيبية والبحث عن الحكمة الإلهية في وجود تلك الظواهر »[١] .

وإذا كُنّا نطالِبُ الفقيهَ والأصوليَّ ببيانِ الضوابط والدلائل التي يعرضها وموافقتها للكتاب والسُّنة ، فإننا ربما نفتقد هذا الرابط لـدى النحـاة واللغويين ؛ ذلـك أنَّ علمـاءَ العربيَّـة في توجّههم لـدراسـة اللغـة يحتفظون لأنفسهم بحريـة الرأي ، وانطلاق الفكر ، فلا يعرفون الْحَجْر على الآراء ، ولا تقديسَ رأي الفرد ، مهما عَلَتْ منزلتُـه ، فكلٌّ منهم

(١) النحو العربي ، مازن المبارك : ص ٥ .

يجرِّب ملكاته الذهنيَّة ، ويستنبط آراءً جديدةً بحسب ما استخزن عقله من قوة البرهان ، وأدرك من عمق الدلالة ضمن مبادئ اللغة ، وقواعد العربية وأصولها .

ويُضاف إلى ذلك أن جمهرةَ اللغويين والْحُذَّاقَ من أهل العربية يختلف بعضهم عن بعض في القدرات العقلية واللغوية ، كما تتباين مكوناتهم الثقافية ؛ لذا يقفون أمام النصّ الواحد مواقفَ تتقارب أو تتباعد في قليلٍ أو كثيرٍ . ومن المستحسن أن نبيِّنَ سَعَةَ المجال في التعليل اللغوي بآراء الأفذاذ من علماء العربية ، الذين شهد لهم التاريخ بالمكانة العالية والمقدرة الفائقة والذهن المتوقد كالخليل بن أحمد الفراهيديّ وسيبويه وأبي الفتح عثمان بن جني ومن نحا نحوهما .

سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي عن العِلَل التي يَعتَلُّ بها في النَّحو ، فقيل له : عَنِ العرب أخذتها أم اخترعتَها من نفسِكَ ؟ فقال[1] :

« إنَّ العربَ نطقَتْ على سجيَّتها وطباعها . وعرفَتْ مواقعَ كلامها وقامَتْ في عقولها عِلَلُهُ ، وإنْ لم يُنقَلْ ذلك عنها ، وعلَّلْتُ أنا بما عندي أنه عِلَّةٌ لما علَّلْتُه منه ، فإنْ أكُنْ أصَبْتُ العِلَّة فهو الذي التمسْتُ ، وإن يكن هناك عِلَّةٌ غيرُ ما ذكرتُ فالذي ذكرتُه مُحتَمِلٌ أن يكون عِلَّة له .

ومَثَلي في ذلك مَثَلُ حكيمٍ دخل داراً محكَمَة البناء ، عجيبةَ النَّظم والأقسامِ ، وقد صحَّتْ عنده حكمةُ بانيها بالخبرِ الصّادق أو بالبراهين الواضحة والْحُجَجِ اللائحة ، فكلَّما وقف هذا الرجل الداخل الدارَ على شيءٍ منها قال : إنَّما فعل هذا هكذا لعلَّةٍ ، وسبَّبَ كذا لعلَّةٍ سَنَحَتْ له وخَطَرت على باله محتملةٍ أنْ تكونَ عِلَّةً لذلك ، فجائزٌ أن يكونَ الحكيمُ الباني للدَّار فعل ذلك للعلَّةِ التي ذكرها هذا الذي دَخَل الدَّار وجائزٌ أن يكون فَعَلَه لغير تلك العِلَّة ، إلاَّ أن ما ذكره هذا الرجل مُحتَمِلٌ أن يكون عِلَّةً كذلك ، فإن سَنَحَتْ لغيري عِلَّةٌ لما عَلَّلْتُه من النَّحو هي أليَقُ مما ذكرته بالْمَعْلولِ فليأتِ بها » .

(١) النص بتمامه في الإيضاح للزجاجي : ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل ، رحمة الله عليه[1] .

وذكر الإمام ابن جني أنَّه يجتهد العالم في اللغة ويستنبط الآراء اللغوية والأسرار البيانية حسب اجتهاده ودقَّة تفكيره ، باستقراء لعبقرية اللغة العربية وأحكامها ، وفق رأيه هو ، ووفق ما أجمعت عليه الأصول اللغوية ، فقال[2] : « اعلم أنَّ إجماعَ أهل البلدين إنما يكون حُجَّةً إذا أعطاك خَصمُك يدَه ألاَّ يُخالفَ المنصوصَ ، والمقيسَ على المنصوص ، فأمَّا إنْ لم يُعطِ يدَهُ بذلك فلا يكونُ إجماعُهم حُجَّةً عليه ، وذلك أنه لم يَرِدْ مِمَّنْ يُطاعُ أمرُه في قرآنٍ ولا سُنَّةٍ أنَّهم لا يجتمعون على الخطأ ، كما جاء في النَّص عن رسول الله ﷺ من قوله : « أُمَّتي لا تجتمعُ على ضَلالَةٍ »[3] . وإنما هو علم مُنْتَزَعٌ من استقراء هذه اللُّغَةِ ، فكلُّ من فُرِق له عَنْ عِلَّةٍ صحيحةٍ وطريقٍ نَهْجَةٍ كان خليلَ نفسِه ، وأبا عمرو فِكْرِه » .

إنَّ اهتمامَ البيان القرآني بالاستدلال لبيان الحق ، وكذلك حِرصُ النَّبي ﷺ على ضرورة النظر والمناظرة ابتغاءً للحق ، ودفعاً للشبهات الفاسدة في العقائد والعبادات والأحكام والمعاملات ، ونحو ذلك . ومواصلة السَّلف في المناظرة والجدال لغرض دفع الشبهة الطارئة على الحق وتجليته ، كلُّ ذلك يُحَتِّم علينا اليومَ أن نقومَ نحن أيضاً بخدمة العلم والدفاع عن العقيدة والدَّعوة إلى سبيل الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد تكون الموعظةُ سبيلُها الجدالُ والمناظرة ، فلابُدَّ أن نسلُك ذلك ، ولا بدَّ من توفُّر طائفةٍ من أهل العلم للقيام بهذا المسلك . وليس غريباً أن يكون الحوارُ والْجَدَل والمناظرةُ اليوم فَرْضَ كفايةٍ على الأعيان المتَّفقِّفةِ المتفوّقة من أهل العلم ؛ لكثرة الشُّبَهِ

---

(١) الاقتراح للسيوطي : ٥٧ ـ ٥٨ ، الإيضاح للزجاجي : ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) الخصائص لابن جني : ١٨٩/١ ـ ١٩٠ ، باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجَّةً .

(٣) روي هذا الحديث بعدة طرق . انظر شرح الحسن السبكي لمنهاج البيضاوي في مبحث الإجماع وأخرجه الترمذي والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، بلفظ : لا تجتمع هذه الأمة على ضلال أبداً ، انظر ابن ماجه في الفتن ٨ ، تلخيص الحبير ١٦٢/٣ .

التي يَغْمِرُ بها أهلُ الكتاب والإلحاد عقولَ المسلمين ، وقد صدرت عن طواغيتِ أممٍ تملكُ العلم الماديّ اكتشافاً واختراعاً ، وتملِك أشدَّ أساليب الفكر كيداً وتضليلاً .

وهذا الإرهاب الفكري استعارته طوائفُ المسلمين اليومَ في صراعاتٍ ناشبةٍ بينها ، حتى صار كل اختلافٍ بين المسلمين في صفٍّ ، وخلاف أهلِ السُّنَّة والجماعة في صفٍ آخر .

فلهذا وَجَبَ على الأفذاذ من علماء السنة والجماعة التَّسلح بالنَّظر والتَّدبر والْجَدَل الصادر عن علمٍ وموهبةٍ فكرية وسيرةٍ عطرة ، ليكون الْجَدَلُ هادياً مَهْدِيّاً .

ولكنَّ أهلَ هذا العلم لا تكاد الأعصار تسمح منهم إلاَّ بالواحد بعدَ الواحد !!

وغنيٌّ عن البيان أنَّ العلماء في الأمَّة بمثابةِ القلوب في الأجساد .. إذا قوي نبضُها صحَّ الجسدُ ، وإذا ضعُف انهارتِ الأعضاء ، ووهَنَتْ عزيمتُها ، واستسلمت للموت جميعاً .

ومبادئ الإسلام وأصولُه التي تلقّنها العلماء ، وأنفقوا زهرةَ العمر في تحصيلها تَفرِضُ عليهم بطبيعتها أن يكونوا دُعاةً لها ، رافعين لواءَ تبليغها ، وإلاَّ كان المفرِّطون منهم كبعض علماء بني إسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَم يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسْفاراً ﴾ [الجمعة : ٦١/٥] .

فإن لم يقوموا بذلكَ ـ وهم أهلُه وأصحابُ الكلمة فيه ـ فمن ذا الذي يقوم به ؟! أيقومُ به العامة وهم لا يعرفون وجوهَ الدِّفاع عن الدين ولا بيانَ أسرارِ القرآن والمناظرات فيه ، ولا وجه الحكمة في معرفة السُّنة النَّبوية وهديها ؟

كلٌّ يَجودُ بما لديه فما النَّدى ... وقْفاً على مَنْ يُجزِلونَ عَطاء
لا تنهضُ الأوطانُ مِن كَبْواتِها ... إلاَّ على أيْدٍ تَفيضُ سَخاءَ

وفي الختام أتلو على نفسي وعلى القرّاء الكرام قول الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام : ﴿ قُلْ ياأيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، ومَنْ ضَلَّ فَإنَّما يَضِلُّ عَليها وما أنا عَلَيْكُم بِوَكيلٍ ، واتَّبِعْ ما يُوْحَى إلَيكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وهوَ خَيرُ الحاكِمينَ ﴾ .

كتبه

أيمن عبد الرّزّاق الشّوّا

٨ رمضان ١٤١٦ هـ

٢٧ كانون الثاني ١٩٩٦ م

إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة

تأليف

محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة الدمشقي

المتوفى سنة ٥٧١ هـ

فصولٌ عظيمة النفع جداً

في إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها وبيانِ العِلَل المؤثِّرة والفروق المؤثِّرة وإشارتها إلى إبطال الدَّوْرِ والتَّسلْسُل[1] بأوجز لفظٍ وأبينه ، وذكر ما تضمَّناه من التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين[2] ، والأجوبة عن المعارضات وإلغاء ما يجب إلغاؤه من المعاني التي لا تأثير لها ، واعتبار ما ينبغي اعتباره وإبداء تناقض الْمُبْطِلينَ في دعاويهم وحججهم وأمثال ذلك ، وهذا من كنوز القرآن التي ضلَّ عنها أكثرُ المتأخِّرين[3] ، فوضعوا لهم شريعةً جدليةً[4] فيها حقٌّ وباطل ، ولو أعطَوا القرآن حقَّه لرأوه وافياً بهذا المقصود ، كافياً فيه مغنياً عن غيره ، والعالِم عن الله[5] مَنْ

(١) الدَّور : توقُّف كلّ واحدٍ من الشيئين على الآخر ، والدَّور من قول الفقهاء : دارت المسألة ، أي : كلَّما تعلَّقت بمحل توقَّفَ ثبوت الحكم على غيره ، فينتقل إليه ، ثم يتوقف على الآخر ، وهكذا . ومن هنا قيل : الدور قرينة التسلسل غالباً . وقيل : كلٌّ منهما بحيث إذا ذكر الآخر معه غالباً يدل أحدهما على الآخر . (انظر التعريفات : ١٠٥ ، الكليات : ٣٣٥/٢ ، المصباح المنير : دار) .

(٢) التفريق : هو أن يأتي المتكلِّم أو الناظم بشيئين من نوع واحدٍ فيوقع بينهما تبايناً وتفريقاً يفيد زيادة ترشيح فيما هو بصدده ، من مدح أو ذم أو نسيب أو غيره من الأغراض ، كقول الشاعر :

ما نَوالُ الغمام وقتَ ربيعٍ ... كنوال الإمام يومَ سَخاء

فنوالُ الأمير بَدْرَةُ عينٍ ... ونوالُ الغمام قطرةُ ماء

(الكلّيّات : ٧٨/٢-٧٩ ، و ١٤٨/٢) .

(٣) المتقدمون فقهاء الصحابة والتابعون والأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وتلامذتهم بلا واسطة ، والمتأخرون هم الذين بعدهم من المجتهدين في المذهب (ينظر الكليات : ٣٤/٣) .

(٤) في المصباح المنير : جَدَلَ الرجل جَدَلاً إذا اشتدَّتْ خصومتُه ، وجادل مُجادَلةً وجِدالاً إذا خاصم بما يُشْغِلُ عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حَمَلةِ الشرع في مقابل الأدلة لظهور أرجحها .

(٥) لابن القيم كتاب هام سمّاه : (أعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين) ، وهو في أصول الدين وأصول الفقه ، ذكر فيه الأحكام التي تصدر عن القضاة والمفتين الموقعين عن ربِّ العالمين .

آتاه الله فهماً في كتابه ، والنبي ﷺ أوّلُ مَن بَيَّنَ العِلَل الشرعية والمآخذ والجمع والفرق والأوصاف المعتبرة والأوصاف الملغاة وبيَّن الدور والتسلسل وقطعهما .

انظر إلى قوله ﷺ[1] وقد سُئِلَ عن البعير يجرَبُ فتجرَبُ لأجله الإبلُ فقال : « مَنْ أعدَى الأوّلَ »[2] ؟! كيف اشتملت هذه الكلمة الوجيزة المختَصَرةُ البينة على إبطال الدّور والتسلسل ، وطالما تفيهق الفيلسوف[3] وتشدّق المتكلم[4] وقرّبَ ذلك بعد اللّتيا والتي[5] في عِدّة ورقاتٍ فقالَ مَنْ أوتي جوامع الكلم[6] : « فمن أعدى الأول » ، ففهم

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا عَدْوى ولا صَفَر ولا هامَة . فقال أعرابي : ما بالُ الإبلِ تكونُ في الرّمل ، كأنها الظِّباءُ ، فيخالطُها البعيرُ الأجْرَبُ ، فيجربُها ؟ قال : فَمَنْ أعدى الأوّلَ ؟! » .
(الحديث رواه البخاري في الطب : ٢٠٦/١٠ ، ورواه مسلم في السلام : ٢٢٢٠ ، وأبو داود : ٣٩١١ـ٣٩١٥ ، وابن ماجه : ٣٥٤٠) .

(٢) قوله : لاعدوى ، يريد أنّ شيئاً لا يُعدي شيئاً ، حتى يكون الضرر من قِبَلِه ، يقول : إن أول بعير جُرِب من الإبل لم يكن قبله بعير أجربَ فيعديه ، وإنما كان أول ما ظهر الجربَ في أول بعير بقضاء الله وقدره ، فكذلك ما ظهر منه في سائر الإبل بعدَ .
(انظر كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم : ٢٦٨/٢ ، معالم السنن للخطابي : ٣٧٥/٥ـ٣٧٦ ، الطب النّبوي لابن القيّم : ١١٨) .

(٣) تفيهق : أصل الفهق الامتلاء ، والمتفيهق الذي يتوسع في كلامه ، ويفهق به فمه ، وفي الحديث : « إن أبغضكم إليّ الثّرثارون المتفيهقون » .. (اللسان : فهق) .

(٤) في أساس البلاغة : تَشَدّق في كلامه : تَشَبّه بالأشدق تَفَصُّحاً .

(٥) اللّتَيا : تصغير التي ؛ يُقال للداهية . أنشد العَجّاج :

دافَعَ عَنّي بنقير مَوْتَتي
بعد اللّتيا واللّتيا والتي
إذا علتْها أنفسٌ تردّت

(لسان العرب : لتا)

(٦) بعث الله سبحانه محمداً ﷺ بجوامع الكلم ، فالكلم التي في القرآن جامعة محيطة كُلّيّة عامة لما كان متفرقاً منتشراً في كلام غيره ، ثم إنه يسمّي كل شيء بما يدل على صفته المناسبة للحكم المذكور المبين ، وما يبين وجه دلالته .

السامع من هذا أن إعداء الأول إن كان من إعداء غيره له فإنه إنْ لم ينتهِ إلى غاية فهو التسلسل في المؤثِرات ، وهو باطل بصريح العقل ، وإن انتهى إلى غاية وقد استفادَتِ الجرب من إعداء من جَرَبَ به له فهو الدَّور الممتنع .

وتأمَّل قوله في قصة ابن اللُّتبية[1] : « أفلا جَلَس في بيتِ أبيه وأمه وقال : هذا أهدِيَ لي »[2] ، كيف تجد تحت هذه الكلمة الشريفة أنَّ الدَّورانَ يفيد العِلِّية[3] ، والأصولي[4] ربما كدَّ خاطرَه حتَّى قرَّرَ ذلك بعد الْجَهد[5] ، فدلَّتْ هذه الكلمة النبوية على أن الهدية لما دارت مع العمل وجوداً وعَدَماً كان العملُ سببَها وعلَّتَها ؛ لأنه لوجلس في بيت أبيه وأمه لانتفت الهديَّة ، وإنما وُجِدَتْ بالعمل فهو عِلَّتُها .

وتأمَّل قوله ﷺ في اللُّقَطَة[6] وقد سُئِلَ عن لُقطَةِ الغنم ، فقال : « إنما هي لك

(١) اللُّتْبيَّة : (بضم اللام وسكون التاء المثنَّاة من فوق وكسر الموحدة وتشديد الياء آخر الحروف) . رجل من الأزد ، واللُّتبية أمُّه ، قال ابن دريد : بنو لُتب بطن من العرب ، منهم ابن اللُّتبية ، وفي صحيح البخاري : ابن الأُتبية [كذا] (عمدة القاري : ٢٥٢/٢٤ ، أسد الغابة (ت ٣١٥٤) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة وفي الجمعة والنذور وفي الهبة وفي ترك الحيل . وأخرجه مسلم في المغازي ، وأبو داود في الخراج عن أبي حميد الساعدي أن النبي ﷺ استعمل رجلاً من الأزد يقال له : ابن اللُّتبية .. على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ ..

(٣) في هذا الحديث بيان أن هدايا العمال سحت ، وأنه ليس سبيلُها سبيلَ سائر الهدايا المباحة ؛ وإنما يهدى إليه للمحاباة ، وليخفف عن المُهدي ، ويسوِّغ له بعض الواجب عليه ، وهو خيانة منه ، وبخس للحق الواجب عليه استيفاؤه لأهله .

وفي قوله : « ألا جَلَسَ في بيت أمه أو أبيه » دليل على أن كل أمر يُتَذَرَّع به إلى محظور فهو محظور . (معالم السنن للخطابي : ٢٠١/٤ـ٢٠٢ ، صحيح البخاري : ٣٠٦/١٢ و٣٠٧ ، أبو داود : ٢٩٤٦ ، صحيح مسلم : ١٤٦٣/٣) .

(٤) الأصولي هو العالم بأصول الدين وأصول الفقه ، وهو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه . من خلال الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية ومن خلال معاني الخطاب في القرآن والسُّنة والعام والخاص والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي ونحو ذلك .

(٥) الجهد (بفتح الجيم وضمها) الطاقة ، وقُرئ بها قوله تعالى : ﴿ والَّذينَ لا يَجِدون إلاَّ جَهْدَهُم ﴾ والْجَهْد بالفتح : المشقة .

(٦) سئل رسول الله ﷺ عن اللقطة ، فقال : احفظ عِفاصها (وعاءها) ووكاءها ، ثم عرِّفها .. قيل : =

أو لأخيك أو للذئب » ، فلما سُئِلَ عن لُقَطَةِ الإبل غَضِبَ وقال : « مالَكَ ولَها ؟ معها حِذاؤها وسِقاؤها[1] تَرِدُ الماءَ وترعى الشَّجَر » .

ففرَّقَ بين الْحُكْمَيْن باستغناء الإبل واستقلالِها بنفسِها دونَ أن يخافَ عليها الْمَهلَكَة في البَرِّيَّةِ ، واحتياجِ الغَنَم إلى راعٍ وحافظٍ ، وإنَّه إنْ غابَ عنها فهي عُرْضَةٌ للسِّباع ، بخلاف الإبل ، فهكذا تكون الفروق المؤثرة في الأحكام ، لا الفروقِ المذهبية التي إنما يفيد ضابط المذهب .

وكذلك قوله في اللحم الذي تُصُدِّقَ به على بَرِيْرة[2] : « هو عليها صَدَقَة ولنا هَدِيّة »[3] ، ففرّق في الذات الواحدة وجعل لها حُكمَيْن مختلفَيْن باختلافِ الجهتين ؛ إذ جهةُ الصَّدقةِ عليها غيرُ جهةِ الهدية منها[4] .

وكذلك الرَّجلان اللذان عَطَسا عند النبي ﷺ فشمَّتَ أحدَهُما[5] ولم يشمِّتِ الآخرَ ،

= فَضالَّةُ الغنم ؟ قال : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » . قيل : فضالَّةُ الإبل ؟ قال : « مالك ولها ؟ معها حذاؤها وسقاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها » .

(رواه البخاري في اللقطة والمساقاة ، ورواه مسلم في اللقطة ، وفي الموطأ في الأقضية . وانظر الطرق الحكمية : ص ١٠) .

(١) يقال في الناقة الضَّالّة : معها حذاؤها وسقاؤها . فالحذاء : الْخُفّ ؛ لأنها تمتنع به من صغار السباع ، والسقاء صبرها عن الماء (المصباح المنير : حذا) .

(٢) بَرِيْرَة هي مولاة رسول الله ﷺ ، (ترجمتها في الإصابة لابن حجر : ٢٤٥/٤) .
والبرير : ثمر الأراك إذا اشتد وصلب ، الواحدة بريرة وبها سُميت المرأة (المصباح المنير : بر) .

(٣) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتي بلحم ، قال : ما هذا ؟ قالوا : شيءٌ تُصُدِّقَ به على بَريرة ، قال : « هو لها صدقة ولنا هدية » ، وفي رواية : « هو عليها صدقة وهو لكم هدية ، فكلوا » .
(الحديث رواه البخاري في باب وجوب الزكاة وفي كتاب الهبة وفي باب العشر فيما يسقى) .

(٤) لا شكَّ أنَّ الصدقة عليه ، ﷺ ، حرام ؛ ذلك لأن آل محمد لا يأكلون صدقة ، فلمَّا تصدق على بريرة بلحم فأهدته جاز له أكل تلك العين لتغير الوصف .

(٥) عطس رجلان عند النبي ﷺ ، فشَمَّتَ أحدهما ولم يشمِّت الآخر .
(رواه البخاري في الأدب ومسلم في الزهد والنسائي في الاستئذان وابن ماجه في الأدب ..) . وتشميت العاطس الدعاء له ، وكل داعٍ بخير فهو مشمِّتٌ .

فلما سُئِلَ عن الفرق أجاب بأن هذا حَمِدَ الله والآخرَ لم يحمَدْه ، فدلَّ على أن تفريقه في الأحكام لافتراقهما في العِلَلِ المؤثِّرة فيها[1] .

وتأمَّل قوله ﷺ في الميتة : « إنَّما حَرُمَ منها أكلُها »[2] ، كيف تضمَّن التفرقة بين أكل اللحم واستعمال الجلد ، وبيَّن أنَّ النَّصّ إنما تناولَ تحريمَ الأكل ، وهذا تحته قاعدتان عظيمتان (إحداهما) بيان أنَّ التحليلَ والتحريم المضافين إلى الأعيان غيرُ مجمل ، وأنه غيرُ مُرادٍ من كلِّ عين ما هي مهيّأة له . وفي ذلك الرّدُّ على من زعم أن ذلك يتضمَّن لمضمر عام ، وعلى من زعم أنه مجمل . (والثانية) قطع إلحاق استعمال الجلد بأكل اللحم ، وأنه لا يصحُّ قياسُه عليه فلو أن قائلاً قال : وإن دلَّتِ الآية على تحريم الأكل وحدَه فتحريم ملابسة الجلد قياساً عليه ، كان قياسُه باطلاً بالنص ؛ إذ لا يلزم من تحريم الملابسة الباطنة بالتّعدّي تحريمُ ملابسة الجلد ظاهراً بعد الدّباغ . ففي هذا الحديث بيانُ المراد من الآية . وبيانُ فساد إلحاق الجلد باللحم .

وتأمَّل قوله ﷺ لأبي النعمان بن بشير[3] وقد خَصَّ ابنَه بالنُّحْل[4] : « أتحبُّ أنْ

---

(١) قال ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود :
« تقدَّم حديث أبي هريرة وفيه : إذا عطس أحدكم وحمد الله ، كان حقّاً على مسلم سمعه أن يقول : يرحَمُكَ اللهُ » ، ويرى أن التشميت واجب .
(تهذيب سنن أبي داود : ٣١١/٧ ـ ٣١٢ ، فتاوى الإمام النووي : ٤٧) .

(٢) أخرج الدارقطني عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس : « إنما حَرَّمَ رسول الله ﷺ من الميتة لحمها ، فأما الجلد والشعر والصوف فلا بأس به » .
وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : تُصُدِّقَ على مولاة لميمونة بشاةٍ فماتت ، فمرَّ بها رسول الله ﷺ فقال : « وهلاَّ أخذتم إهابَها فدبغتموه فانتفعتم به ؟ » ، فقالوا : إنها ميتة ، فقال : « إنما حَرُمَ أكلُها » .
(رواه الجماعة إلاَّ أن ابن ماجه قال فيه : عن ميمونة ، وليس في البخاري ولا النسائي ذكر الدباغ ، وانظر قواعد في علوم الحديث للتهانوي : ٧٦ـ٧٧ ، فتح القدير : ٥٢٨/١ ، الكافي : ٤٤٠/١ ، مراقي الفلاح : ١٩٩ ، الدارقطني : ٤٣/١) .

(٣) بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري البدري والد النعمان ، يقال إنه أول من بايع أبا بكر من الأنصار ، استشهد مع خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر سنة اثنتي عشرة . وله ذكر في صحيح مسلم وغيره (الإصابة : ١٦٢/١) .

(٤) نَحَلْتُه نُحْلاً : أعطيته شيئاً من غير عِوَضٍ بطيب نفس . (المصباح المنير : نحل) .

يكـونـوا في البرّ سـواءً ؟ »[1] ، كيف تجـده متضمنـاً لبيـان الـوصف الـداعي إلى شرع التسوية بين الأولاد وهو العدل[2] الذي قامت به السموات والأرض ، فكما أنّك تحبُّ أن يستـووا في برّكَ وأن لا ينفردَ أحـدُهم ببرّك وتحرمَـه من الآخر ، فكيف ينبغي أن تفردَ أحدَهما بالعطية وتحرمَها الآخر ؟!

وتأمّلْ قوله ﷺ لعمر وقد استأذنه في قتل حاطب[3] فقال : « ومـا يـدريـكَ أنَّ الله اطّلَعَ على أهل بدر فقال : اعملوا مـا شئتم فقـد غفرتُ لكم »[4] ، كيف تجـده متضمّنـاً

---

(١) الحـديث رواه أبو داود في بـاب : الرجل يُفَضِّـل بعضَ ولـده في النُّحـل ، ولفظُـه : « أليس يَسرُّكَ أنْ يكونوا لكَ في البرِّ سواء ؟! » .
وقـد اختلف أهـل العلم في جـواز تفضيـل بعض الأبنـاء على بعض في النُّحْـل والبر ؛ فقـال الشـافعي ومـالـك : التفضيل مكروه ، فـإن فعل ذلـك نفـذ ، وكـذلـك قـال أبو حنيفـة وقـال أحمد : لا يجـوز التفضيل ، ويحكى ذلك أيضاً عن سفيان الثوري .
وقـولـه : أيسرك أن يكـونـوا لـك في البر سـواء ، دلّ أن ذلـك من قبيـل البر والعطف ، لا من قبيـل الوجوب والإلزام . (معالم السنن للخطابي : ٥/١٩٠ـ١٩١) .

(٢) هذا الحديث هو من تفاصيل العدل الذي أمر الله به في كتـابـه وقـامت بـه السموات والأرض . وأثبتت عليـه الشريعـة ، فهو أشدُّ موافقـةً للقرآن من كلِّ قيـاسٍ على وجـه الأرض ، وهو محكم الـدلالـة غـايـة الإحكام ، فردٌ بالمتشابه من قوله : كلُّ أحدٍ أحقُّ بماله من ولده والناسِ أجمعين .
فكونه أحق به يقتضي جواز تصرفه فيه كما يشاء ويقـاس متشـابهـه على إعطـاء الأجـانب . ومن المعلوم بالضرورة أن هذا المتشابه من العموم ، والقياس لا يقاوم هذا الحكم المبين غاية البيان .

(٣) حـاطب بن أبي بلتعـة ، اتفقوا على شهوده بـدراً ، وثبت ذلـك في الصحيحين من حـديث علي في قصـة كتابة حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله ﷺ إليهم ، فنزلت فيه : ﴿ يا أيُّهـا الَّـذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أوْلِياءَ .. ﴾ فقال عمر : دعني أضربْ عنقه ، فقال : « إنه شهد بـدراً » . قـال المـدائني : مـات حـاطب في سنـة ثـلاثين ، في خـلافـة عثمان . (الإصـابـة : ١/٢٩٩ـ٣٠٠ ، الأعـلام : ٢/١٥٩) .

(٤) الحديث رواه البخاري في المغازي ، وفي تفسير سورة الممتحنة . وروى قصتـه ابن مَرْدَوَيـه من حـديث ابن عباس .

لحكم القاعدة التي اختلف فيها أرباب الجدل والأصوليون ، وهي أنَّ التعليلَ بالمانعِ هل يفتقر إلى قيام المقتضي ، فعلَّلَ النَّبيُّ ﷺ عِصْمَةَ دمِه شهودَه بدراً دونَ الإسلام العامّ ، فدلَّ على أن مقتضى قتْلِهِ كان قد وجد ، وعارضَ سبَبَ العصمة وهو الجسُّ على رسول الله ﷺ ، لكنْ عارَضَ هذا المقتضى مانعٌ منعَ تأثيره وهو شهودُه بدْراً ، وقد سبق من الله مغفرتُه لمن شهدها . وعلى هذا فالحديث حجَّةٌ لمن رأى قتل الجاسوسِ ؛ لأنه ليس ممن شهد بدراً ، وإنما امتُنِعَ قتلُ حاطِبٍ لشهودِه بَدْراً .

ومن ذلك قوله ﷺ لعمر وقد سأله عن القُبلَةِ للصائم فقال : « أرأيتَ لو تَمَضْمَضْتَ ؟ »[1] ... الحديث ، فتحتَ هذا إلغاءُ الأوصافِ التي لا تأثير لها في الأحكام ، وتحته تشبيهُ الشيءِ بنظيره وبإلحاقه به ، وكما أن الممنوع منه الصائم إنما هو الشربُ لا مقدمتُه وهو وضع الماء في الفم ، فكذلك الذي مُنِعَ إنما هو الجِماعُ لا مقدمتُه وهي القُبْلَةُ ، فتضمن الحديثُ قاعدتين عظيمتين كما تَرى[2] .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، : هَشَشْتُ وقبَّلْتُ وأنا صائم ، فقلتُ : يا رسولَ الله ، صنعتُ اليوم أمراً عظيماً ، قبّلتُ وأنا صائم ! قال : « أرأيتَ لو مَضْمَضْتَ من الماء ، وأنتَ صائم ؟ قلتُ : لا بأسَ ، قال : فَمَهْ ؟! » .

(الحديث أخرجه أبو داود في باب القُبلة للصائم ، والإمام أحمد في مسنده : ١٣٨ ، ورواه الحاكم في المستدرك : ٤٣١/١ ، وصحّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وفيه أن ابن خزيمة وابن حبّان قد صحّحاه ، وانظر موارد الظمآن للهيثمي : ٢٢٧ ، رقم الحديث ٩٠٥ ، ومنهاج الأصول للبيضاوي : ١٨٥) .

(٢) أي إثبات القياس والجمع بين الشيئين في الحكم الواحد ؛ لاجتماعهما في الشبه ؛ وذلك أن المضمضة بالماء ذريعةٌ لنزوله إلى الحلق ووصوله إلى الجوف ، فيكون به فساد الصوم ، كما أن القُبلة ذريعةٌ إلى الجماع المفسد للصوم ، يقول : فإذا كان أحد الأمرين منهما غير مفطر للصائم فالآخر بمثابته .

(انظر معالم السنن للخطابي : ٢٦٣/٣-٢٦٤ ، اختلاف الحديث لابن قتيبة : ٢٢٦ ، نيل الأوطار للشوكاني : ٢٨٧/٤) ، وفي منهاج الأصول للبيضاوي ١٥٢ ما نصّه : « رُخِّص في القُبلة لمن قَدَرَ على ضَبْطِ نفسه ، وتُكْرَهُ على مَنْ حَرَّكَتْ شَهوَتَه ، ولا تُكرَه لغيره ، لكنَّ الأولى تركُها » . وفي الكافي لابن عبد البرّ ٣٤٦/١ : « تُكره القُبلة للصائم من أجل ما يخاف عليه من التَّطرف إلى الجماع والإنزال ، فإن قبّل وسلّم فلا شيء عليه .. » .

ومن ذلك قوله ﷺ وقد سُئِلَ عن الحجِّ عن الميِّت فقال للسائل : « أرأيتَ لو كان عليه دَيْنٌ أكنتَ قاضيه ؟ قال : نعم ، قال : فدَيْنُ اللهِ أحقُّ بالقَضاء »[1] . فتضمَّن هذا الحديث بيانَ قياس الأَوْلى وأنَّ دَيْن المخلوق إذا كان يقبل الوفاءَ مع شُحِّه وضِيْقِه فدَيْنُ الواسع الكريم تعالى أحقُّ بأن يَقبلَ الوفاء[2] ، ففي هذا أن الحكم إذا ثبت في محل الأمر وثَمَّ محل آخر أولى بذلك الحكم فهو أولى بثبوته فيه . ومقصود الشارع في ذلك التنبيه على المعاني والأوصاف المقتضية لشرع الحكم والعلل المؤثرة[3] ، وإلاَّ فما الفائدة في ذكر ذلك والحكم ثابت بمجرد قوله ؟!

ومن ذلك أن النبي ﷺ ألحق الولد في قصة وليدة زمعة[4] بعبد ابن زمعة ؛ عملاً

(١) الحديث رواه النسائي في كتاب الحج : ١١ ، ورواه الإمام أحمد بلفظ : « لو كان على أبيك دين ، فقضيته عنه قُبِلَ ذلك منه » ، وفي صحيح البخاري ورد : « أرأيتِ لو كان على أمِّك دين ، أكنت قضيته ؟ » .
(البخاري : صيد ٢٢ ، مسلم : الصيام ١٥٥ـ١٦٦ ، مسند أحمد : ٦ ، ٤٢٩) .

(٢) قال النووي : وهذا هو القول الصحيح المختار الذي نعتقده ، وهو الذي صحَّحه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة . ومنه : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .
(أخرجه أبو داود في كتاب الصوم . وانظر فتاوى ابن الصلاح : ص ٢ ، قواعد الأحكام : ٢٥٦ ، الكافي لابن عبد البرّ : ٣٥٧/١) .

(٣) هذا المثال وإن نبَّه فيه على كون نظير الوصف عِلَّةً لنظير الحكم فقد نبَّه فيه على أركان القياس الأربعة ؛ فالأصل دَينُ العباد ، والفرع دَينُ الله ، والحكم جواز القضاء ، وعِلَّته في كلٍّ منهما كونه ديناً . (نشر البنود : ١٥٤/٢) .

(٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « اختصم سعدُ بن أبي وقاص وعبدُ بن زَمْعَة في غلام ، فقال سعد : يا رسول الله ، هذا ابن أخي عتبة بن أبي وقاص ، عهد إليَّ أنه ابنه . انظر إلى شَبَهه ، وقال عبد بن زمعة : هذا أخي يا رسول الله ، ولد على فراش أبي من وليدته ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شبهه ، فرأى شَبَهاً بيِّناً بعتبة ، فقال : هو لكَ ياعبدَ بن زمعة ، الولد للفراش وللعاهرِ الحَجَرُ ، واحتجبي منه ياسَوْدَةُ ، فلم ير سودة قطُّ » .

بالفراش القائم وأمر سودة[1] أن تحتجب منه ، عملاً بالشَّبَهِ المُعارض له[2] ، فرتَّب على الوصفين حكميهما وجعله أخاً من وجهٍ دون وجه[3] . وهذا من ألطف مسالك الفقه ولا يهتدي إليه إلاَّ خواصُّ أهل العلم والفهم عن رسول الله ﷺ .

وتأمَّل قوله ﷺ في التشهد وقد علَّمهم أن يقولوا : السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين ثم قال : فإذا قلتم ذلك أصابتْ كلَّ عبدٍ صالحٍ لله في السماء والأرض[4] . كيف قرَّر بهذا عموم اسم الجمع المضاف وأغنانا ﷺ عن طريق الأصوليين وتعسفها .

وكذلك قوله ﷺ[5] وقد سئل عن زكاة الْحُمُر ، فقال : لم ينزلْ عليَّ فيها إلاَّ هذه الآية الجامعة الفاذَّة[6] : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ، فسمَّى الآية جامعةً

(١) سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية ، تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة ، ترجمتها في : (الإصابة : ٣٣٠/٤) .

(٢) في أعلام الموقعين مانصه : وفي هذا ردّ على من خالف الحديث ، وقال : الأمة لاتكون فراشاً ، وإنما كان هذا القضاء في أمة . (أعلام الموقعين لابن القيّم : ٢٠٦/٢) .

(٣) إن الشافعي رضي الله عنه قال : يلحق الرجل ولد أمته إذا أقرَّ بوطئها ، وقال أبو حنيفة : لا يلحقه إلاّ أن يقرَّ بالولد ، واحتج الشافعي رضي الله عنه على قوله بحديث ابن وليدة زمعة .. وقول النبي ﷺ : هو لك ياعبد بن زمعة : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، فقال الشافعي : أجري هذا الخبر على عمومه في كل فراش ، سواءً كان من حرّة أو أمة . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه : إن المراد بالخبر ما يكون بالنكاح ، لا ما يكون بالملك فحلَّ عموم اللفظ على ولد الحرة ، وأخرج عنه ولد الأمة ، مع أن هذا الخبر إنما ورد على ولد الأمة . (مناقب الشافعي للرازي : ٦٣ ـ ٦٥) .

(٤) الحديث رواه البخاري في الأذان ١٤٨ ، والدعوات ١٦ ، ورواه مسلم في الصلاة ٥٦ ، وأبو داود في الصلاة ١٧٨ . ورواه البخاري في باب التشهد بلفظ : « أصابت كلَّ عبدٍ لله صالحٍ في السماء والأرض » .

(٥) في مسند الإمام أحمد :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل عن الْحُمُر ، فيها زكاة ؟ فقال : ما جاء فيها شيء إلاّ هذه الآية الفذّة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ ، ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ » . ورواه البخاري في تفسير سورة الزلزلة ، ورواه مسلم في الزكاة : ٢٤ ، ٢٥ ، وانظر فتح القدير : ٥٨٦/٥ .

(٦) الفذّ : الفرد الواحد . وفي الحديث : هذه الآية الفاذّة ، أي المنفردة في معناها . (لسان العرب : فذذ) .

أي عامةً شاملةً باعتبار اسم الشرط ، فدلَّ على أن أدوات الشرط العموم[1] .

وهذا في مخاطبته ﷺ ومحاورتهِ أكثرُ من أن يُذْكَر ، وإنما يَجهلُه مِنْ كلامِه ﷺ مَنْ لم يُحِطْ بهِ عِلماً .

وتأمَّل قوله ﷺ للرجل الذي استفتاه عن امرأتِه وقد وَلَدَت غلاماً أسودَ ، فأنكر ذلك[2] ، فقال له النبي ﷺ : « أَلَكَ إبل ؟ قال : نعم ، قال : فما لونُها ؟ قال : سُودٌ ، قال : هل فيها من أورَق[3] ؟ قال : نعم ، قال : فأنَّى له ذلك ؟ قال : عسى أن يكونَ نَزَعَهُ[4] عِرْقٌ ! قال : وهذا عسى أن يكون نَزَعَهُ عِرْقٌ » ، كيف تضمن إلغاءَ هذا الوصف الذي لا تأثيرَ له في الحكم ، وهو مجرَّدُ اللون ومخالفة الولد للأبوَيْنِ فيه ، وإن مثل هذا لا يوجِبُ رِيبة[5] ، وإن نظيرَه في المخلوقاتِ مُشاهَدٌ بالحسِّ ، والله خالقُ الإبل وخالِقُ بني آدم وهو الخلاّق العليم ، فكما أن الجمل الأورق قد يتولَّد من بين أبوين أسودين فكذلك الولد الأسود قد يتولد من بين أبوين أبيضين ، وإن ما جُوِّزَ به من سَبَبِ ذلِكَ في الإبلِ هو بعينه قائم في بني آدم .

---

(١) معنى الدلالة هو كإرشاد النبي ﷺ أنَّ الخاص ، وهو الحمر ، حكمه داخل تحت حكم العام وهو : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ ﴾ ، فإن من ربطها في سبيل الله فهو عامل للخير ، يرى جزاءه خيراً ، ومن ربطها فخراً ، ورياء فهو عامل للشَّر ، يرى جزاءه شرّاً . (عمدة القاري للعيني : ٧٠/٢٥) .

(٢) الحديث رواه البخاري بلفظ : إنَّ امرأتي وَلَدَتْ غلاماً أسودَ ، وإني أنْكرتُه .. ورواه أبو داود بلفظ : وإني أُنْكِرُه . (البخاري : اعتصام ١٢ ، هبة ٣٥ ، أبو داود ، طلاق ٢٨ ، مسلم في اللعان ٢٠) .

(٣) يقال للحمامة وَرْقاء لأن في لونها بياضاً إلى سواد ، والأورق من الإبل أيضاً في لونه بياض إلى سواد .

(٤) نَزَعَ إلى أبيه في الشَّبَه أي ذهب ، وفي لسان العرب : نزع إلى عرق كرم أو لؤم . قال : ونَزَعَ شَبَهَهُ عِرْقٌ ، وفي حديث القذف : إنما هو عِرْق نَزَعَه . (اللسان : نزع) .

(٥) الرِّيْبَة : الشَّك والتُّهمة ، ومنه الحديث : « دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك » فإن الكذب ريبة ، وإن الصدق طمأنينة » ، والريبة في الأصل قلق النفس واضطرابها ، ألا ترى كيف قابلها بالطمأنينة وهي السكون ؟ وذلك أن النفس لا تستقرّ متى شكَّتْ في أمر ، وإذا أيقنته سكنت واطمأنت . (المغرب للمطرزي : ريب) .

فهذه من أصحّ المناظرات والإرشاد إلى اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف ، وإلغاء ما يجب إلغاؤه منها وأنّ حُكْم الشيء حُكْمُ نظيره ، وأنّ العِلَلَ[1] والمعاني حَقٌّ شَرْعاً وقَدراً .

فصل

وإذا تأمَّلْتَ القرآن وتدبّرتَه[2] وأعَرْتَه فِكراً وافياً اطَّلَعْت فيه من أسرار المناظرات[3] ، وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشُّبَه[4] الفاسدة ، وذكر النَّقْض[5]

(١) السّبب والعِلّة يطلقان على معنى واحدٍ عند الحكماء ، وهو ما يحتاج إليه شيء آخر ، وكذا المسبّب والمعلول فإنهما يطلقان عندهما على ما يحتاج إليه شيء آخر ، لكن أصحاب علم المعاني يطلقون العلّة على ما يوجد شيئاً ، والسبب على ما يبعث الفاعل على الفعل ، والحكماء يقولون للأول : العلة الفاعلية (المؤثرة) ، وللثاني العلة الغائية . (الكلّيّات : ٢٢/٣) .

(٢) التّدبُّر : التّفكّر في الأمر ، قال تعالى : ﴿ أفَلا يَتَدَبّرونَ القُرآنَ ﴾ . قال الزّجاج : التّدبُّر : النظر في عاقبة الشيء . وقال ابن عباس : أفلا يتدبرون القرآن ، فيتفكرون فيه ، فيرون تصديق بعضه لبعض ، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر عليه . وقد جاءت عدّة آيات للحض على تدبر القرآن هي :
﴿ أفَلا يَتَدَبّرونَ القُرآنَ ﴾ [النّساء : ٨٢/٤] .
﴿ أفَلا يَتَدَبّرونَ القُرآنَ أمْ على قُلوبٍ أقْفالُها ﴾ [محمد : ٢٤/٤٧] .
﴿ أفَلَم يَدَّبّروا القَوْلَ ﴾ [المؤمنون : ٨٦/٢٣] .
﴿ كِتابٌ أنْزَلْناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيَدّبّروا آياتِهِ ولِيَتَذَكّرَ أُولو الألْبابِ ﴾ [ص : ٢٩/٣٨] .
قال القرطبي : دلّت الآية الأولى على وجوب التّدبُّر في القرآن ليعرف معناه ، فكان في هذا ردٌّ على فساد قول من قال : لا يؤخذ من تفسيره إلاّ ماثبت عن النبي ﷺ ومنع أن يُتأول على ما يسوغه لسان العرب ، وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد . (الجامع : ٢٩٠/٥) .

(٣) المناظرة : هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين ، إظهاراً للصواب . (الكلّيات : ٢٦٣/٤) .

(٤) يقال : اشتبهت الأمور وتشابهت : التبست فلم تميز ولم تظهر ، ومنه اشتبهت القِبلة ونحوها ، والشبهة في العقيدة المأخذ الملبس ، سميت شبهة لأنها تشبه الحق .. والشبهة العلقة والجمع فيهما شُبَهٌ وشُبُهات ، وتشابهت الآيات تساوت أيضاً . (المصباح المنير : شبه) .

(٥) النقض أو المناقضة : المنع . والمناقضة المصطلح عليها في علم الجدل هي تعليق أمر على مستحيل ، إشارة إلى استحالة وقوعه ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يَدْخُلونَ الجَنّةَ حَتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ ﴾

والفَرْق والمعـارضـة[1] والمنـع[2] ، على مـا يشفي ويكفي لمن بصَّره الله وأنعمَ عليـه بفهم كتابه[3] .

فمن ذلـك قـولـه تعـالى : ﴿ وإذا قيـلَ لَهُم لا تُفْسِـدوا في الأرْضِ قـالـوا إنَّما نَحْنُ مُصْلِحـون ، ألا إنَّهُم هُمُ الْمُفْسِـدونَ ﴾[4] ، فهـذه منـاظرة جرت بين المـؤمنين والمنافقين[5] ، فقال لهم المؤمنون : لا تفسدوا في الأرض فأجابهم المنـافقون بقولهم : إنمـا نحن مصلحون ، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين ، ومنعَ المنـافقون مـا ادَّعى عليهم أهلُ الإيمـان من كونهم مفسـدين ، وأنَّ مـا نسبوهم إليـه إنمـا هو صلاح لا فسـاد ، فحكم العـزيـز الحكيم بين الفريقين بـأن أسجَـلَ على المنـافقين أربـعَ إسجـالات[6] : **أحـدهـا** تكذيبُهم ، **والثاني** الإخبارُ بأنَّهم مفسـدون ، **والثـالث** حصرُ الفسـاد فيهم بقولـه ﴿ هُمُ الْمُفْسِـدونَ ﴾ ، **والرابـع** وصفُهم بغـايـة الجهـل وهـو أنـه لا شعـورَ لهم ألبتـةَ بكـونهم مفسـدين ، وتـأمَّلْ كيف نفى الشعـورَ عنهم في هـذا المـوضـع[7] ، ثم نفى عنهم العلمَ في

= [الأعراف : ٤٠/٧] ، والحجج الشرعية لا تتنـاقض أصـلاً (الكلّيـات : ٢٦٣/٤ ، فـواتـح الرحمـوت : ٣٤١/٢ـ٣٤٢) .

(١) المعارضة : ما يمنع من المضي في الأمر ، ومنه اعتراضات الفقهاء لأنها تمنع من التمسك بالدليل ، وتعارض البينات ؛ لأن كل واحدة تعترض الأخرى ، وتمنع نفوذها . (المصباح المنير : عرض) .
والمعـارضـة في الاصطـلاح : تسليم دليـل المعلّـل دون مـدلـولـه ، والاستـدلال على خـلاف مـدلـولـه ، وما يُطلق عليه اسم المعارضة لغةً نوعـان : معـارضـة خـالصـة . وهي المصطلح المـذكور ، ومعـارضـة مناقضة وهي المقابلة بتعليل معلل ، سُمِّيت بذلك لتضمنها إبطال دليل المعلل . (الكلّيات : ٢٦٥/٤) .

(٢) المنع : طلب الدليل أو التنبيه على مقدمة معينة من مقدمات الدليل الذي أورده الخصم .

(٣) ينظر في معنى تدبر كلام الله تعالى كتاب التفسير القيم : ص ١٩٧ وما بعدها .

(٤) سورة البقرة : ١٢/٢ .

(٥) انظر تفسير روح المعاني للآلوسي : ١٥٣/١ ـ ١٥٤ .

(٦) السِّجل كتاب القاضي .. وأسجَلْتُ للرجل إسجالاً كتبت له كتـابـاً ، وسجَّل القـاضي بـالتشـديـد قضى وحَكَم وأثبت حكمه في السجل (المصباح المنير : سَجِلَ) .

(٧) في قوله تعالى : ﴿ ولكن لا يَشْعُرونَ ﴾ أي لا يشعرون أن الله يطلع نبيـه على فسـادهم ، أو لا يشعرون أن ما فعلوه فساد ، لا صلاح (زاد المسير : ٣٣/١) .

قـولهم : ﴿ أَنُـؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهـاءُ ﴾[1] ، فقـال : ﴿ ألا إنَّهُم هُمُ السُّفَهـاءُ ولكِن لا يَعْلَمونَ ﴾[2] ، فنفى علمهم بسفَههم وشعورِهم بفسادِهم ، وهذا أبلغ ما يكون من الـذَّمِّ والتَّجهيل أنْ يكـون الرجـل مُفسِـداً ولا شعـورَ لـه بفسـاده ألبتـةَ ، مـع أنَّ أثرَ فسـادِه مشهور في الخارج ، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به ، وهذا يـدُلُّ على استحكام الفسـاد في مداركه وطرق علمه . وكذلك كونه سفيهاً ، والسَّفَـه[3] غـايـة الجهل ، وهو مركَّبٌ من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه ، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحـالـه كان من أشقى النوع الإنسـاني ، فنفي العلم عنـه بـالسَّفـه الـذي هو فيـه متضمن لإثبـات جهلـه ونفي الشعور عنـه بـالفسـاد الواقـع منـه متَضَمِّنٌ لفسـاد آلات إدراكـه ، فتضمنت الآيتان الإسجالَ عليهم بالجهل وفسـاد آلات الإدراك بحيث يعتقـدون الفسـادَ صلاحاً والشَّرَّ خيراً .

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضاً ، فإن المؤمنين قالوا لهم : آمِنوا كما آمَنَ النَّاسُ ، فـأجـابهم المنـافقون[4] بقولهم : ﴿ أَنُـؤمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهـاء ﴾[5] . وتقرير المنـاظرة من الجانبين أن المؤمنين دَعَوْهُم إلى الإيمان الصّـادرِ من العقلاء بـالله ورسولـه ، وأنَّ العـاقل يتعيَّنُ عليه الدُّخولُ فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم ، ولا سيما إذا قامت أدلَّتُـه وصحَّتْ شواهدُه ، فأجابهم المنافقون بما مضمونُه أنَّا إنما يجب علينا موافقةُ العقلاء ، وأمـا السُّفَهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النـافع والضّـار فلا يجب علينـا موافقتهم ، فَرَدَّ الله تعـالى عليهم ، وحكم للمؤمنين وأسجَـلَ على المنـافقين بـأربعـة أنـواع : (أحـدهـا)

(١و٢) سورة البقرة : ١٣/٢ .

(٣) السَّفَه : ضد الحِلْم ، وأصله الخفَّة والحركة والاضطراب وشاع في نقصان العقل والرأي . (روح المعاني : ١٥٥/١) .

(٤) في المقول لهم قولان ، اعتمد ابنُ القيم أنهم المنـافقون ، قـالـه مجـاهـد وابن زيـد ، والثـاني اليهود ، قـالـه ابن عباس ومُقاتِل .

(٥) سورة البقرة : ١٣/٢ . وعَنَوا بالسُّفهاء إما أولئـك النـاس المتقـدمين أو الجنس بـأسره . (روح المعـاني : ١٥٥/١) .

تسفيهُهم ، (الثـاني) حَصْرُ السَّفَـهِ فيهم[1] ، (الثـالث) نفي العلم عنهم ، (الرابع) تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سَفَه أهل الإيمـان ، (وخـامس) أيضـاً وهو تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السَّفَه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّـاسُ اعْبُـدوا رَبَّكُمُ الَّـذي خَلَقَكُم والَّـذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾[2] إلى قوله : ﴿ فَاتَّقوا النَّارَ الَّتي وَقودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِـدَّتْ للكافِرينَ ﴾[3] ، فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطـالب أصول الدين ؛ من إثبات الصّانع وصفاتِ كماله ، من قدرته وعلمه وإرادتـه وحيـاتـه وحِكْمتـه وأفعاله وحدوث العالم ، وإثبات نوعي توحيـدِه تعـالى ؛ توحيـدِ الربوبيّـة المتضمِّنِ أنَّـه وحدَهُ الرَّبُّ الخالِقُ الفاطِر[4] ، وتوحيدِ الإلهيَّة المتضمِّنِ أنه وحدَه الإله المعبود[5] المحبوب الذي لا تصلُحُ العِبادَةُ والذُّل والخضوع والحب إلاَّ لـه . ثم قرَّرَ تعـالى بعـدَ ذلـك إثبـاتَ نُبوَّةِ رَسُولِه مُحَمَّد ﷺ أبلَغَ تقريرٍ وأحسنَه وأتمه وأبعده عن المُعـارِض ، فثبت بـذلـك صدق رسوله في كلِّ ما يقوله ، وقد أخبر عن المعـاد والجنـة والنـار ، فثبت صِحَّـةُ ذلـك ضرورةً فقرَّرتْ هذهِ الآياتُ هذهِ المطالِبَ كلَّها على أحسن وجه .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ ألا إنَّهم هُمُ السُّفَهاءُ ﴾ . قال الزَّجاج : « ألا كلمة يبتدأ بها ، يُنَبَّهُ بهـا المُخـاطَب ، تدلُّ على صحَّة ما بعدها ، و (هم) تأكيد للكلام . ومعنى الحصر إنهم هم وحدهم السفهاء لا غيرهم » .
وقال ابن هشام في مغني اللبيب مبحث ألا : يقول المعربون فيها : حرف استفتـاح ، فيبيِّنون مكانهـا ؛ ويهملون معناها ، وإفادتها التحقيق من جهة تركيبها من الهمزة ولا ، وهمزة الاستفهـام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق . (مغني اللبيب : ص ٩٦) .

(٢) سورة البقرة : ٢/٢٠ ـ ٢١ .

(٣) سورة البقرة : ٢/٢٤ .

(٤) الفاطِر : المُبْتدِئ والمبدع . وفطر الله الخلق : خلقهم وبرأهم (القاموس) .

(٥) المراد بالعبادة هاهنا قولان : أحدهمـا التوحيـد ، والثـاني الطـاعـة ، رويـا عن ابن عبـاس ، والخَلْق : الإيجـاد ، وإنمـا ذكر من قبلهم ، لأنـه أبلغ في التـذكير ، وأقطع للجحـد ، وأحـوط في الحجـة .. (زاد المسير : ١/٤٨) .

فصَدَّرَها تعالى بقوله : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ ﴾ وهذا خِطابٌ لجميع بني آدم[1] ، يشتركون كلُّهم في تعلّقه بهم ، ثم قال : ﴿ اعْبُدوا ربَّكُم ﴾ فأمرهم بعبادة ربِّهم ، وفي ضمن هذه الكلمة البرهانُ القطعي على وجوب عبادته ؛ لأنه إذا كان ربَّنا الذي يربِّينا بنِعَمِهِ وإحسانِهِ وهو مالكُ ذواتِنا ورقابِنا وأنفسِنا ، وكلُّ ذرةٍ من العَبْدِ فمملوكةٌ له مُلكاً خالصاً حقيقياً وقد ربَّاه بإحسانه إليه وإنعامه عليه ، فعبادته له وشكره إيَّاه واجبٌ عليه ، ولهذا قال : ﴿ ٱعْبُدوا رَبَّكُم ﴾ ولم يقل إلَهَكُم . والرَّبُّ هو السيد والمالك والمنعم والمربِّي والمصلِح ، والله تعالى هو الرَّبُّ بهذه الاعتباراتِ كلِّها ، فلا شيءَ أوجبُ في العقول والفِطَرْ مِنْ عبادةِ مَنْ هذا شأنُه وحدَه لا شريكَ له[2] . ثم قال : ﴿ الَّذي خَلَقَكُم ﴾ فنبَّه بهذا أيضاً على وجوب عبادته وحدَه ، وهو كونُه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحدَه بلا شريك باعترافهم وإقرارهم ، كما قال في غير موضع من القرآن[3] : ﴿ ولَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقولُنَّ اللهُ ﴾[4] ، فإذا كان هو وحدَه الخالقَ فكيف لا يكون وحدَه المعبود ؟ وكيف يجعلون معه شريكاً في العبادة ، وأنتم مقرّون بأنه لا شريك له في الخلق ، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية . ثم قال : ﴿ والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُم ﴾ فنبَّه بذلك على أنه وحدَه الخالقَ لكم

---

(1) وهو قول ابن عبّاس (زاد المسير ٤٧/١) . وقد ورد هذا الخطابُ في ٩٢ آيةً في القرآن الكريم .

(2) إن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له والطمأنينة والسكون إليه . ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحقّ سِواه . (التفسير القيم ص ١٩٧ ، شفاء العليل : باب في ذكر الفطرة الأولى ومعناها .. ص ٢٨٣) .

(3) هذا الاعتراف وَرَد في عدة آيات ، كقوله تعالى :
﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ لَيَقولُنَّ اللهُ ﴾ [العنكبوت : ٦١/٢٩] .
﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأحيا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها لَيَقولُنَّ اللهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣/٢٩] .
﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لَيَقولُنَّ الله ﴾ [لقمان : ٢٥/٣١ ، الزُمر : ٣٨/٣٩] .
﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لَيَقولُنَّ: خَلَقَهُنَّ العَزيزُ الحَكيمُ ﴾ [الزُخرف : ٩/٤٣] .

(4) الزُخرف : ٨٧/٤٣ .

ولآبائكم ومَنْ تقدَّمكم ، وأنه لم يشركه أحدٌ في خلق مَنْ قبلَكم ولا في خلقكم[1] ، وخلقُه تعالى لهم مُتضَمِّنٌ لكمالِ قدرَتِهِ وإرادَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِه وحياتِه ، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله ، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته ، فلا شبيهَ له فيها ولا في أفعاله فلا شريكَ له فيها . ثم ذكر المطلوبَ مِنْ خَلْقِهم وهو أن يَتَّقُوه فيطيعونه ، ولا يعصونه ، ويذكرونه فلا ينسونه ، ويشكرونه ولا يكفرونه ، فهذه حقيقةُ تَقواه . وقوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾[2] ، قيل : إنه تعليل للأمر وقيل : تعليل للخلق[3] ، وقيل : المعنى اعبدوه لتتقوه بعبادته . وقيل : المعنى خَلَقَكُم لتَتَّقوه ، وهو أظهر لوجوه :

(أحدها) : أن التقوى هي العبادة ، والشيء لا يكون عِلّة لنفسه .

(الثاني) : أنَّ نظيره قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾[4] .

(الثالث) : أنَّ الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾ من الأمر ، ولِمَنْ نَصَرَ الأول أن يقول لا يمتنع أن يكون قوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾ تعليلاً للأمر

(1) ينظر زاد المسير : ٤٨/١ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٥/١ .

(2) سورة البقرة : ٢١/٢ .

(3) المعنى كي تتَّقوه ، أو اعبدوا اللهَ راجين للتقوى ، ولأن تقوا أنفسكم بالعبادة عذابَ ربكم ، وهذا قول سيبويه ، قال ابن عباس : لعلكم تتقون الشرك .
قال القرطبي : (لعلّ) متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذرأه الله لجهنّم لم يخلقْه ليتقي ، وهذا وما كان مثله فيما ورد في كلام الله تعالى من قوله : ﴿ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُم تَشكُرونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّكُم تَهْتَدونَ ﴾ فيه ثلاث تأويلات :
أحدها ـ أن (لعلَّ) على بابها من التَّرجي والتَّوقُّع .. فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطَّمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا .
الثاني ـ أن العرب استعملت (لعلَّ) مجردةً من الشَّكِّ ، بمعنى لام كي ، فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا .
الثالث ـ أن تكون (لعلَّ) بمعنى التَّعرُّض للشيء ؛ كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا ..
(شفاء العليل : ص ١٩٦ ، الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٦/١ ـ ٢٢٧) .

(4) سورة الذّاريات : ٥٦/٥١ .

بالعبادة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلى الَّـذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾[1] ، فهـذا تعليل لكَتْب الصيـام ، ولا يمتنع أن يكون تعليلاً لـلأمرين معاً ، وهذا هو الأليقُ بالآية ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِنـاءً وأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مـاءً فَـأخْرَجَ بِـهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقـاً لَكُم ﴾[2] ، فـذكر تعـالى دليلاً آخر متضمّنـاً للاستـدلال بحكمتـه في مخلوقـاتـه ، فـالأول متضمّنٌ لأصـل الخلـق والإيجـاد ويسمّى دليـل الاختراع والإنشاء ، والثاني متضمّن لِلحِكَم المشهودة في خَلْقِه ، ويُسمَّى دليلَ العنـايـةِ والحِكْمَـةِ ، وهو تعالى كثيراً ما يكرِّر هذَيْنِ النَّوعينِ من الاستدلال في القرآن[3] .

ونظيرُه قولـه تعـالى : ﴿ اللهُ الَّـذي خَلَقَ السَّمـواتِ والأرضَ وأَنْـزَلَ مِنَ السَّماءِ مـاءً فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُم وسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْـكَ لِتَجْرِيَ في البَحْرِ بِـأمْرِهِ وسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهـارَ وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائِبَيْنِ وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهـارَ ﴾[4]، فـذكر خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ ، ثم ذكرَ منـافعَ المخلـوقـاتِ وحكمهـا . ونظيرُه قـولُـه تعـالى : ﴿ أمَّن خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّماءِ ماءً فَأنْبَتْنا بِـهِ حَـدائقَ ذاتَ بَهْجَـةٍ مـا كانَ لَكُم أن تُنْبِتُوا شَجَرَها أإلَـهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُم قَوْمٌ يَعْـدِلونَ . أمَّن جَعَلَ الأرضَ قَراراً وجَعَلَ خِلالَها أنهاراً وجَعَلَ لَها رَواسِيَ وجَعَلَ بَينَ البَحْرَيْنِ حاجِزاً ﴾ إلى آخر الآيات[5] .

على أنَّ في هـذه الآيـات من الأسرار والحكم مـا يحسُبِ عقـول العـالمين أنْ يفهمُـوه ويدركُوه ، ولعلَّه أن يمرَّ بِكَ إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣/٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢/٢ .

(٣) انظر نُبَذ من مقاصد الكتاب العزيز : فصل : التَّمنُّنُ بالنِّعم .

(٤) سورة يونُس : ٣/١٠ .

(٥) سورة النَّمل : ٦٠/٢٧ ـ ٦٥ .

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّموات والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيل والنَّهارِ والفُلْكِ الَّتي تَجْري في البَحْرِ بما يَنْفَعُ النَّاسَ وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماء مِن ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتَصْريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماء والأَرْضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلونَ ﴾[1] . وهذا كثير في القرآن لمن تأمله .

وذكَر سبحانه في آية البقرة قرارَ العالم وهو الأرضُ وسقفَه وهو السماءُ وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء ؛ فذكر المسكَنَ والسَّاكِنَ وما يحتاج إليه من مصالحه ونبَّه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حِكْمَتِه ، في أنْ هَيَّأها لاستقرارِ الحيوان عليها فجعلها فراشاً ومهاداً[2] وبساطاً[3] وقراراً[4] ، وجعل سقفها بناءً مُحْكَماً مُسْتَوِياً لا فطورَ فيه ولا تفاوتَ ولا عَيْبَ[5] . ثم قال[6] : ﴿ فَلا تَجْعَلوا للهِ أَنْداداً وأَنْتُم تَعْلَمونَ ﴾ ، فتأمَّل هذه النتيجةَ وشِدَّة لزومِها لتلك المقدِّمات قبلَها وظَفَرِ العقل بها بأول وهلة[7] ، وخلُوصِها مِنْ كلِّ شُبْهةٍ ورِيْبَةٍ وقادحٍ ، وأنَّ كلَّ مُتَكَلِّمٍ ومُسْتَدِلٍّ ومِحْجاجٍ إذا بالغ في تقرير ما يقرِّره وأطاله وأعرض القول فيه فغايته ، إن صَحَّ ما يذكُره ، أن ينتهيَ إلى بعض ما في القرآن . فتأمَّلْ ما تحت هذه الألفاظ من البُرهان الشَّافي في التوحيد ، أي إذا كانَ اللهُ وحدَه هو الذي فعل هذه الأفعال فكيف يجعلون له أنداداً ، وقد علمتم أنه لا نِدَّ له يشاركه في فعله ؟!

---

(1) سورة البقرة : ١٦٤/٢ .

(2) في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ﴾ [النَّبأ : ٦/٧٨] .

(3) في قوله تعالى : ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً ﴾ [نوح : ١٩/٧١] .

(4) في قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً والسَّماءَ بناءً ﴾ [غافر : ٦٤/٤٠] .

(5) في قوله تعالى : ﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِباقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفاوُتٍ ، فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطورٍ ﴾ [الملك : ٣/٦٧] .

(6) سورة البقرة : ٢٢/٢ ، وسُئل عليه السلام : أيُّ الذنوب أكبرُ ؟ فقال : أنْ تَجعَلَ للهِ نِداً وهو خَلَقَكَ (صحيح البخاري : ١٢٤/٨) .

(7) ينظر زاد المسير : ٤٩/١ .

فلما قرَّر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النُّبوَّةِ فقال : ﴿ وإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُم مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾[1] ، إن حصل لكم ريب في القرآن وصِدْقِ مَن جاءَ به وقلتم : إنه مُفتَعَل فأتوا ولو بسورةٍ واحدةٍ تشبهه[2] ، وهذا خِطابٌ لأهل الأرض أجمعهم ، ومن المُحال أنْ يأتيَ واحدٌ منهم بكلامٍ يفتعِلُه ويختَلِقُه من تِلقاء نفسه ثم يُطالِبُ أهلَ الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزءٍ منه ، يكونُ مقدارُه ثلاثَ آياتٍ من عِدَّة ألوفٍ[3] ثم تعجز الخلائق كلُّهم عن ذلك ، حتى إنَّ الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه ، فإنهم أتوا بشيء يَستَحيي العقلاءُ من سماعه ويحكمون بسماجته[4] ، وقبح ركاكته[5] وخسته ، فهو كمن أظهر طِيباً لم يشمَّ أحدٌ مثلَ ريحه قط ، وتحدَّى الخلائق ملوكهم وسُوقَتَهم بأن يأتوا بذَرَّة طيبٍ مثلِه ، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم ، وجاء الحمقان بعَذِرة[6] مُنْتِنَة خبيثة ، وقالوا : قد جئنا بمثل ما جئت به ، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوةً وبرهاناً وعظمةً وجلالةً ! وأكَّد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال : ﴿ وادْعُوا شُهَداءَكُم مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾[7] ،

---

(١) سورة البقرة : ٢/٢٣ .

(٢) سبب نزول هذه الآية أن اليهودَ قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحيَ ، وإنّا لفي شَكٍّ منه ، فنزلت هذه الآية . وهذا مرويّ عن ابن عباس ومقاتل . (زاد المسير : ١/٤٩) .

(٣) عَدَدُ آياتِ القرآن الكريم أجمعوا على أنها ستةُ آلافِ آيةٍ ، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك ؛ فمنهم من لم يَزِد ، ومنهم من قال : ومئتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة ، وقيل : وتسع عشرة ، وقيل : وخمسة وعشرون ، وقيل : وست وثلاثون (٦٢٣٦ آية) ، هذا رأي الإمام الدّاني ذكره السيوطي في الإتقان : ١/٦٩ .

(٤) السَّماجةُ نقيض الملاحة ، يقال : سَمُجَ الشيء إذا لم تكن فيه ملاحة فهو سَمِج (المصباح : سمج) .

(٥) الرَّكاكة : الضعف . رَكَّ الشيء يرِك ركة ورَكاكة رقّ وضعف (الصحاح : رك) .

(٦) في المصباح : العَذِرَةُ وِزَان كلِمة : الخُرْءُ .

(٧) سورة البقرة : ٢/٢٣ .

كما يقول الْمُعجز لمن يدَّعي مقاومته : اجهَدْ عليَّ بكل مَنْ تقدر عليه من أصحابك وأعوانك وأوليائك ولا تُبقِ منهم أحداً حتى تستعين به ، فهذا لا يقدِم عليه إلا أجهلُ العالم وأحمقُه وأسخفُه عقلاً إن كان غيرَ واثقٍ بصحة ما يدَّعيه أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله .

والنَّبيُّ ﷺ يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أمِّيهم وكتابيِّهم وعَرَبهم وعجمِهم ، ويقول : لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبداً ، فيعدِلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب ، فلو قَدَروا على الإتيانِ بسورةٍ واحدةٍ لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة ، وإيتام الأولاد وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته .

وتقريرُ النُّبوَّة بهذه الآية له وجوه متعددة ، هذا أحدها[1] .

(وثانيها) إقدامه ﷺ على هذا الأمر وإسجالُه على الخلائق إسجالاً عامّاً إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبداً ، فهذا لا يقدم عليه ويخبرُ به إلاَّ عن علمٍ لا يخالجُه شكٌّ مستنِدٌ إلى وحي من الله تعالى ، وإلاَّ فعلم البشر وقدرتُه يَضعُفان عن ذلك .

(وثالثها) النظر إلى نفس ما تُحُدِّي به وما اشتمل عليه من الأمور التي تَعجِزُ قُوى البشر على الإتيان بمثله ، الذي فصاحتُه ونظمُه وبلاغتُه فردٌ من أفراد إعجازه . وهذا الوجه يكون معجزةً لمن سمعه وتأمله وفهمه . وبالوجهين الأولين يكون معجزةً لكل مَنْ بلغه خبرُه ولو لم يفهمه ولم يتأمله .

فتأمَّل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرفْ فيه قُصورَ كثيرٍ من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه ، وأنهم لن يُوَفُّوهُ عُشْرَ المِعْشار حقَّه[2] ، حتى قَصَر بعضُهم الإعجازَ على

(١) ينظر كتاب : البرهان الْمُسَدَّد في إثبات نبوَّة سيدنا محمد ، للنبهاني ، الخصائص الكبرى للسيوطي ، زاد المعاد لابن القيم . وكلٌّ من كتب حول السيرة النَّبوية أفرد فصولاً وفوائد حول معجزات النَّبي ﷺ .

(٢) العُشْر : جزء من عشرة . ومِعْشار الشيء عُشْرُه ، ولا يقال الفعال في غير العشر . وفي الأساس : فلان لا يَعْشِرُ فلاناً ظرفاً ، أي لا يبلغ معشارَه .

صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها [1] ، وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته ، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام ، وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب ، إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تَشْفي ولا تُجدي ، وإعجازه [2] فوق ذلك ووراء ذلك كله .

فإذا ثبتت النُّبوة بهذه الحجة القاطعة فقد وَجَبَ على الناس تصديقُ الرَّسول في خبره وطاعة أمره [3] ، وقد أخبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعن الْمَعاد والجنَّة والنّار ، فثبتت صحة ذلك يقيناً ، فقال تعالى : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وَقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرينَ ☆ وبَشِّرِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ أنَّ لَهُم جَنّاتٍ

(1) قال الرمّاني : ذهب قوم إلى أنّ العلّة في إعجازه الصَّرفَةُ ؛ أي صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كان مقدوراً عليها ، وغيرَ معجزة عنها ؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات .. (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ص ٢٢ ، ١٥٢ ، ٢٠٠) .

(2) لا شك أن كتاب الله العزيز مُنْطَوي على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه كما ذكر القاضي عياض في الشفا :
أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة .
الثاني : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب .
الثالث : ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيَّبات ، وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر .
الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة .
وهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيِّنَةٌ لا نزاع فيها ولا مريّة .
انظر : الشفا : ١٦٦/١ ـ ١٧٦ ، نبذ من مقاصد الكتاب العزيز : ٧٠ ـ ٧٥ ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الإتقان في علوم القرآن : النوع الرابع والستون ، البرهان في علوم القرآن للزركشي : النوع الثامن والثلاثون ، وانظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي ، تاريخ فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي .

(3) لا شكّ أنّ طاعة الرسول لا تكتفي بهذه الحجة ، إنما بما جاء في صريح الأمر بطاعته في آياتٍ كثيرةٍ نحو قوله تعالى : ﴿ قُل أطيعُوا اللهَ والرَّسولَ ﴾ [آل عمران : ٣٢/٣] ، ﴿ وأطيعوا اللهَ والرَّسولَ لَعَلَّكُم تُرْحَمونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢/٣] . وانظر : النساء : ٥٩/٤ ، المائدة : ٩٢/٥ ، الأنفال : ١/٨ ، ٢٠ ، ٤٦ ، النُّور : ٥٤/٢٤ ، ٥٦ ، محمد : ٣٣/٤٧ ، التَّغابن : ١٢/٦٤ .

تَجْري مِن تَحْتِها الأنْهارُ ﴾[1] .. الآيـة ، فـاشتملتِ الآيـاتُ على تقرير مهمَّاتِ أصول الدِّين من إثبات خالق العالم وصفاتِه ووحدانيته ورسالةِ رسوله والمعاد الأكبر[2] .

ومن ذلـك قـولـه تعـالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أن يَضْرِبَ مَثَلاً مـا بَعوضَـةً فَما فَوْقَها ﴾[3] الآية ، وهذا جوابُ اعتراضٍ اعترضَ به الكفَّارُ على القُرآن ، وقـالوا : إنَّ الرَّبَّ أعظمُ مِنْ أن يـذكر الـذُّبابَ والعنكبوتَ ، ونحوَهـا من الحيوانـات الخسيسـة[4] ، فلو كان ما جاء بـه محمد ﷺ كلامَ الله لم يـذكر فيـه الحيوانـاتِ الخسيسـةَ ، فـأجـابهم الله تعالى بأن قال : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيي أن يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعوضَـةً فَما فَوْقَهـا ﴾ فـإنَّ ضَرْبَ الأمثال بالبعوضة فما فوقهـا إذا تضمن تحقيقَ الحقِّ وإيضـاحَـه وإبطـالَ البـاطل وإدحاضه[5] كان من أحسن الأشياء ، والحسْنُ لا يُستَحيا منـه ، فهـذا جواب الاعتراض فكأن معترضاً اعترضَ على هذا الجواب ، أو طلبَ حِكْمَة ذلك ، فأخبر تعالى عمَّا لـهُ في ضَرْبِ تلك الأمثال من الحِكْمة ، وهي إضلال من شاء وهداية من شـاء ، ثم كأن سـائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك ، فأخبر تعالى عن حكمته وعدله وأنـه إنمـا يُضِلُّ

(١) سورة البقرة : ٢/٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) لعل قصدَ ابن القيم بالمعاد الأكبر ها هنا الجنَّة ؛ ذلـك أن العلمـاء ذكروا في قولـه تعـالى : ﴿ إنَّ الَّـذي فَرَضَ عليكَ القُرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ ﴾ [القصص : ٢٨/٨٥] ، أربعة أقوالٍ ؛
أحدها : إلى مكة ، والثاني : الجنَّة ، والثالث : الموت ، والرابع : القيامة والبعث . (ينظر زاد المسير : ٦/٢٥٠ ـ ٢٥١) .

(٣) سورة البقرة : ٢/٢٦ . تمامها : ﴿ فَأمَّا الَّـذينَ آمَنوا فَيَعْلَمونَ أنَّـهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِم ، وأمَّـا الَّـذينَ كَفَروا فَيَقولونَ : ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيراً ويَهْدي بِهِ كَثيراً ، وما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفاسِقينَ ﴾ .

(٤) لمـا نزل قولـه تعـالى : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَـاسْتَمِعوا لَـهُ إنَّ الَّـذينَ تَـدْعونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقـوا ذُبابـاً ولَـوِ اجْتَمَعـوا لَـهُ ﴾ [الحج : ٢٢/٧٣] ، ونـزل قـولـه : ﴿ كَمَثَـلِ العَنْكَبـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتـاً ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٤١] . قالت اليهود : وما هذا من الأمثال ؟! فنزلت هذه الآيـة ، قـالـه ابن عبـاس والحسن وقتادة والفراء . (زاد المسير : ١/٥٣ـ٥٤) .

(٥) هـذه اللفظـة سقطت من المخطوط ، وكتبت في المطبوع : إضحـاده ، قـال الفيومي : دَحَضَتِ الحُجَّـة دَحْضاً : بَطَلَتْ . وفي القاموس : دَحَضَتِ الحجّة دُحوضـاً : بَطَلَتْ ، وأدحَضْتُهـا ، وفي تـاج العروس : أي دفعتها وأبطلتها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ ﴾ .

به الفاسقين ﴿ الَّـذينَ يَنْقُضُونَ عَهْـدَ اللهِ مِن بَعْـدِ ميثـاقِـهِ ويَقْطَعونَ مـا أمَرَ اللهُ بـِهِ أن يوصَلَ ويُفْسِدونَ في الأرْضِ ﴾ [1]، فكانت أعمـالهم هـذه القبيحـة التي ارتكبوهـا سببـاً لأن أضلّهم وأعماهم عن الهدى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَيفَ تَكْفُرونَ بِاللهِ وكُنْتُم أمْواتاً فَـأحْيـاكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحْييكُم ثُمَّ إليهِ تُرْجَعونَ ﴾ [2] ، فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بـالله أمر مستقر في الفِطَر [3] والعقول ، وأنه لا عُذْرَ لأحدٍ في الكفر به ألبتةَ ، فذكر تعـالى أربعـة أمور ، ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم ، والرابع : مُنتَظَر موعود به وَعْد الحقّ .

(الأول) كونهم كانوا أمواتاً لا أرواحَ فيهم ، بل نطفاً وعَلَقاً ومضغةً مواتـاً لا حيـاةَ فيها .

(الثاني) أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة .

(الثالث) أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة .

(الرابع) أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه ، فما بال العاقل يشهد الثلاثـة الأطوار الأُول ويكـذب بـالرابع [4] ، وهل الرابع إلاّ طورٌ من أطوار التخليق ، فـالـذي أحياكم بعد أن كنتم مواتاً ، ثم أماتكم بعد أن أحياكم ، مـا الـذي يُعجزه عن إحيـائكم بعـد ما يميتكم ؟ وهل إنكارُكم ذلك إلاّ كفرٌ مجرَّد بـالله فكيف يقع منكم بعـد مـا شـاهـدتموه ؟ ففي ضمن هذه الآية الاستدلالُ على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧/٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨/٢ .

(٣) الفِطْرَةُ : الخِلْقة ، وهي من الفَطْر : إيجاد الشيء ابتداءً وابتداعاً ، يقال : فطر اللهُ الخلقَ إذا ابتدعهم .. وجُعِلت الفِطرة اسماً للخلقة من الْخَلْق في أنها اسم للحالة ، ثم إنها جُعِلَت اسماً للخلقة القابلة لـدين الحقّ على الخصـوص ، وعليـه الحـديث المشهـور : « كل مَـوْلـود يُـوْلَـدُ على الفِطرة » . (المغرب للمطرزي : فطر ، وانظر مفتاح دار السعادة : ٣٠٤/١ ، شفاء العليل : ٢٨٣) .

(٤) ومن هنا نلاحظ أن الاستفهام جـاء في معنى التعجب ، وهـذا التعجب للمؤمنين ، أي اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون ، وقد ثبتت حجة الله عليهم . قاله ابن قتيبة والزجاج . (زاد المسير : ٥٧/١) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً ، قالوا أتَجْعَلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ قالَ إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ . وعَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم على المَلائِكَةِ فَقالَ : أنْبِئوني بِأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنتُم صادِقينَ . قالوا : سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ . قالَ : يا آدَمُ أنْبِئْهُم بِأسْمائِهِم ، فَلَمَّا أنْبَأهُم بِأسْمائِهِم قالَ : ألَمْ أقُلْ لَكُم إنِّي أعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدونَ وما كُنْتُم تَكْتُمونَ ﴾[1] . فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم ؛ كأنهم قالوا : إن استخلَفْتَ في الأرضِ خَليفةً كان منه الفسادُ وسفكُ الدِّماء ، وحكمَتُك تقتضي أنْ لا تفعلَ ذلك ، وإن جعلتَ فيها فتجعلُ فيها من يسبِّحُ بحمدك ويقدِّس لك ، ونحن نفعل ذلك ، فأجابهم تعالى عن هذا السؤال بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلَمه الملائكةُ ، وإن وراءَ ما زعمتم من الفساد مصالحَ وحِكَماً لا تعلمونها أنتم[2] ، وقد ذكرنا منها قريباً من أربعين حكمة في كتاب (التُّحفة المكِّيَّة)[3] ، فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياءَ والرُّسل والأولياءَ والمؤمنين وعَمَرَ بهم الجنةَ ، ومَيَّز الخبيثَ مِن ذريته من الطيب فعمَرَ بهم النَّار . وكان في ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تَعلُّمه .

---

(١) سورة البقرة : ٢/٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) اختلفوا ما المقصود في إخبار الله عزّ وجلّ الملائكة بخلق آدم على أقوال منها :
أحدها : أن الله تعالى علم في نفس إبليس كبراً فأحب أن يطلع الملائكة عليه .
الثاني : أنه أراد أن يبلو طاعة الملائكة .
الثالث : أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده ، ليكونوا معظمين له إنْ وُجد .
الرابع : أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه ، فأخبرهم حتى قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ؟ فأجابهم : إني أعلم ما لا تعلمون .
الخامس :لأنه أراد إعلامهم بأنه خلقه ليسكنه الأرض ، وإن كان ابتداء خلقه في السماء .
(انظر شفاء العليل لابن القيِّم : ٢٠٣ ، زاد المسير : ١/٥٩ـ٦٠) .

(٣) هذا الكتاب من الكتب النفيسة في التفسير ومعاني القرآن والنحو واللغة ذكره ابن القيِّم في عدة مواضع من كتبه ، ذكره في بدائع الفوائد : ١/١١٩ ، ٢/٦٢ و٨٩ . وفي طريق الهجرتين : ص ٣٧٨ ، وذكره ابن رَجَب في ذيل طبقات الحنابلة والداودي في معجم المفسرين وابن العماد في شذرات الذهب .

ثم إنه سبحانه أظهرَ فضلَ الخليفةِ عليهم بما خصَّه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة ، وأمرهم بالسجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله . وفي ضمن ذلك من الحِكَم ما لا يعلمه إلا الله .

فمنها امتحانُهم بالسُّجود لمن زَعَموا أنه يفسد في الأرض ويسْفِكُ الدماء ، فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم لَمَّا أثنوا على أنفسهم وذَمُّوا الخليفةَ ، كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنّه أعْلَمُ أهلِ الأرضِ[1] ، فامتحنه بالْخَضِر[2] وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث[3] .

وهذه سنّتُه تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم .

ومنها خَبَرُه لهذا الخليفة[4] وابتداؤه له بالإكرام والإنعام[5] ، لِما علم مما يحصل له

---

(١) روى البخاري حديث : إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئِلَ : أيُّ النّاس أعلمُ ؟ قال : أنا ، فَعَتبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه ، فأوحى الله إليه ، إنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلمُ منكَ ، قال موسى : يا رَبِّ فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتك فتجعله في مِكْتَلٍ ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة ، ووضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه : ﴿ آتِنا غَداءَنا ﴾ إلى قوله : ﴿ واتَّخَذَ سَبيلَهِ في البَحْرِ عَجَباً ﴾ . (انظر جامع البيان : ١٥/٢٧٦-٢٧٧ وفتح القدير : ٣/٣٥٥) .

(٢) الْخَضِر عليه السلام من نسل نوح ، وكان أبوه من الملوك . آتاه الله رحمةً ، قيل : نبوةً ، وقيل : ولايةً ، وقيل : كان مَلَكاً . (ينظر الجامع لأحكام القرآن : ١١/١٦) .

(٣) الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر مذكورة في سورة الكهف ؛ الآيات : ٧٠ وما بعدها ، وهي خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار .. (انظر الجامع لأحكام القرآن : ١١/١٦-٣٣) .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ رَبُّكَ للملائكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٢/٣٠] .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ وقُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وكُلا مِنها رَغَداً حَيثُ شِئْتُما ﴾ [البقرة : ٢/٣٥] .

من الانكسار والمصيبة والمحنة فابتداه بالجبر والفضل ، ثم جاءت المحنة والبليّة والزَّل[1] وكانت عاقبتُها إلى الخير والفضل والإحسان ، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين : إنعام قبلها ، وإنعام بعدها ، ولذريته المؤمنين نصيبٌ مما لأبيهم ؛ فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداءً وجعل العاقبة لهم ، فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلَها وإنعام بعدها[2] ، فتباركَ الله ربُّ العالمين .

ومنها استخراجه تعالى ما كان كامناً في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود ، فاستحقَّ اللَّعنةَ والطَّرد والإبعاد على ما كان كامناً في نفسه عند إظهاره ، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبَه على علمه فيه ، بل على وقوع معلومه فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مُظهِراً لِلْخُبْثِ والكُفْر الذي كان كامناً فيه ، ولم تكن الملائكةُ تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافياً عنهم من أمره فكان في الأمر بالسجود له تكريماً لخليقته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبراً له وتأديباً للملائكة ، وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس وكان ذلك سبباً لتمييز الخبيث من الطيِّب ، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادِهم لآدم .

ثم إنه سبحانه لما علَّم آدم[3] ما علَّمه ثم امتحن الملائكةَ بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم ، وكان في طَيِّ ذلك جواباً لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدةَ في جعله في الأرض فإنه يُفسِدُ فيها ويسفك الدماء[4] ، فأراهم من فضله وعلمه خلافَ ما كان في ظنِّهم[5] .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطانُ عَنها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كانا فيهِ ﴾ [البقرة : ٣٦/٢] .

(٢) يُستأنس في ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلَم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقولوا : آمَنَّا وهُم لا يُفْتَنونَ ، ولَقَد فَتَنَّا الَّذينَ مِن قَبْلِهِم ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذينَ صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١/٢٩-٣] .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم على المَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئوني بِأَسْماءِ هَؤلاءِ إن كُنْتُم صادِقينَ ، قالوا : سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنتَ العَليمُ الحَكيمُ ﴾ [سورة البقرة : ٣١/٢-٣٢] .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ﴾ [البقرة : ٣٠/٢] .

(٥) ﴿ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ ﴾ [البقرة : ٣٠/٢] .

فصل

في ذكر مناظرة إبليسَ عَدوِّ الله في شأنِ آدَمَ وإبائِهِ مِنَ السُّجودِ له وبيانِ فسادها ، وقد كرَّر الله تعالى ذكرها في كتابه[1] ، وأخبر فيها أن امتناع إبليسَ من السجود كان كِبْراً منه وكفراً ومجرَّدَ إباءٍ ، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنُّتاً وإلاَّ فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر[2] ، وإلاَّ فليس في أمره بالسُّجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجهٍ ، وأما شبهته الدَّاحِضَةُ وهي أنَّ أصلَه وعنصره النّار وأصلُ آدم وعنصره التراب ورتَّبَ على ذلك أنه خيرٌ مِنْ آدم ، ثم رتَّبَ على هاتين المقدِّمتين أنه لا يحسُنُ منه الخضوعُ لمن هو فوقه وخير منه ، فهي باطلة مِنْ وجوه عديدة :

(أحدُها) أن دعواه كونه خيراً من آدم دعوى كاذبةٌ باطلة ، واستدلاله عليها بكونه مخلوقاً من نارٍ وآدم من طين استدلال باطل ، وليست النار خيراً من الطين والتراب ؛ بل التراب خيرٌ من النار وأفضل عنصراً من وجوه[3] :

(أحدها) أن النار طبعها الفساد وإتلافِ ما تعلقت به بخلاف التراب .

(الثاني) أن طبعَها الخِفَّةَ والحِدَّة والطَّيْش ، والتراب طبعُه الرَّزانَة والسُّكُونَ والثَّبات .

(الثالث) أن الترابَ يتكون فيه ومنه أرزاقُ الحيوان وأقواتُهم ولباسُ العباد وزينتهم وآلاتُ معايشهم ومساكنهم ، والنَّار لا يتكون فيها شيء من ذلك .

---

(١) انظر سورة البقرة : ٣٤/٢ ، الأعراف : ١١/٧ ، الحجر : ٣١/١٥-٣٢ ، الإسراء : ٦١/١٧ ، الكهف : ٥٠/١٨ ، طه : ١١٦/٢٠ ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) ذكر الإمام الرازي في تفسيره الكبير ما نصُّه :
« اعلم أنَّ المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكبار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر » . (التفسير الكبير : ٢٢٧/٢٦) .

(٣) انظر التفسير الكبير للرازي : ٢١١/١ - ٢٢٨ و ٢٣٢/٢٦ .

(الرابع) أن التراب ضروريّ للحيوان لا يستغني عنه ألبتةَ ، ولا عن ما يتكون فيه ومنه ، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً ، وقد يستغني عنها الإنسان الأيامَ والشهورَ فلا تدعوه إليها الضرورة[1] ، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنَّار في بعض الأحيان ؟.

(الخامس) أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعافَ أضعافِ ما وُضِعَ فيه ، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفاً ، ولو استودَعْتَهُ النّارَ لخانتك وأكلته ولم تبقِ ولم تذر .

(السادس) أنَّ النَّارَ لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها ، والترابَ لا يفتقر إلى حامل ، فالتراب أكمل منها .[2]

(السابع) أنَّ النَّار مفتقرة إلى التراب وليس بالتراب فقر إليها ؛ فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلاّ مكوناً من التراب ، أو فيه فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها .

(الثامن) أن المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف[3] يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال ، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه ، فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضاً سريعَ الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه ، وكان إبليس بالعكس من ذلك

---

(١) وهذا مصداقُ ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها : « إنَّا كنَّا آلَ محمدٍ نمكُثُ شهراً ما نَستَوقِدُ بنارٍ ، إنْ هو إلا التَّمرُ والماء » . (أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٧٢ ، وانظر مختصر الصواعق المرسلة : ١٥٤) .

(٢) انظر فوائد التراب كتاب (تذكرة أولي الألباب) للأنطاكي : ٩١/١-٩٢ .

(٣) أصل المرج القلق ، مرج أمره يمرجه : ضيَّعه ، ورجل ممراج : يمرج أموره ولا يحكمها ، والمارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وقيل : المارج اللهب المختلط بسواد النار ، قال الجوهري ؛ مارج من نار : نارٍ لا دخانَ لها ، خلق منها الجان .. (لسان العرب ، تاج العروس : مرج) .

فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره ، آدمُ إلى أصله الطيب الشريف ، واللَّعين إلى أصله الرَّديء .

(التاسع) أنَّ النَّار وإن حصل بها بعضُ المنفعة والمتاع فالشَّرُّ كامِنٌ فيها لا يصدُّها عنه إلا قسرُها وحبسها ، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدتِ الْحَرْثَ والنَّسْلَ . وأما التُّراب فالخير والبر والبركة كامن فيه ، كلَّما أُثير وقُلِب ظهرَتْ بركتُه وخيرُه وثمرتُه ، فأين أحدهما من الآخر ؟

(العاشر) أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه[1] ، وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً[2] وكفاتاً للأحياء والأموات[3] ، ودعا عبادَه إلى التفكر فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها ، ولم يذكر النار إلاَّ في معرض العقوبة والتخويف والعذاب[4] إلاَّ موضعاً أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومَتاعٌ لِلْمُقْوِين[5] ، تذكرةٌ بنار الآخرة ومتاعٌ لبعض أفراد الإنسان ، وهم المقوون النازلون بالقوا ، وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتَّع بالنار في منزله ، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن ؟!.

---

(١) ذكرت الأرض في القرآن الكريم ٤٥١ مرةً ؛ بالرفع (الأرضُ) ٣٤ مرةً ، بالنصب (الأرضَ) ٨٦ مرةً ، بالجر (الأرض) ٣٣١ مرةً . (انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) .

(٢) وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ﴾ [النَّبأ : ٧٨/٦] .
- ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً ﴾ [سورة البقرة : ٢/٢٢] .
- ﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً ﴾ [نوح : ٧١/١٩] .
- ﴿ اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً والسَّماءَ بِناءً ﴾ [غافر : ٤٠/٦٤] .

(٣) ﴿ أَلَم نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً . أَحْياءً وأَمْواتاً ﴾ [المرسلات : ٦٧/٢٥] . قال اللغويون : الكفت في اللغة : الضم . والمعنى أنها تضم أهلها أحياءً على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها . (تاج العروس : كفت ، زاد المسير : ٨/٤٤٩) .

(٤) ذكرت النار في القرآن الكريم ١٢٦ مرةً ، وذكرت بلفظ (ناراً) ١٩ مرةً .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتي تورُونَ ، أَأَنْتُم أَنْشَأْتُم شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤونَ ، نَحنُ جَعَلْناها =

(الحادي عشر) أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً ، وأخبر أنه بارك فيها عموماً فقال : ﴿ إئنَّكُم لَتَكْفُرونَ بالَّذي خَلَقَ الأرْضَ في يَوْمَيْنِ وتَجْعَلونَ لَهُ أنْداداً ، ذلِكَ رَبُّ العالَمينَ وجَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وبارَكَ فيها وقَدَّرَ فيها أقْواتَها في أرْبَعَةِ أيَّامٍ سَواءً للسّائلينَ ﴾[1] ، فهذه بركة عامة ، وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله : ﴿ ونَجَّيْناهُ ولُوطاً إلى الأرْضِ الَّتي بارَكْنا فيها للعَالَمينَ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وجَعَلْنا بَيْنَهُم وبَيْنَ القُرَى الَّتي بارَكْنا فيها قُرًى ظاهِرَةً ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْري بِأمْرِهِ إلى الأرْضِ الَّتي بارَكْنا فيها ﴾[3] .

وأمّا النّار فلم يخبر أنه جعل فيها بركةً أصلاً ، بل المشهور أنها مُذهِبَةٌ للبركة ماحِقَة لها[4] ، فأين المبارَكُ في نفسِه المبارِكُ فيما وُضِعَ فيه إلى مزيل البركة وماحِقها .

(الثاني عشر) أنَّ الله تعالى جعل الأرض محلَّ بيوتِه الَّتي يُذْكَرُ فيها اسْمُه ويسبّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصال[5] ، عموماً ، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً فيهِ

= تَذْكِرَةً ومَتاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة : ٥٦/٧١-٧٣] ، ويستأنس كذلك بقوله تعالى : ﴿ لَعَلّي آتيكُم منها بِقَبَسٍ أو أجِدُ على النّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٢٠/١٠] .
وانظر النمل : ٨، القصص : ٢٩ .

(١) سورة فصّلت : ٤١/٩ ـ ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢١/٧١ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢١/٨١ .

(٤) المَحقُ : النقصان وذهاب البركة ، وقيل : هو أن يذهب الشيء كلُّه حتى لا يُرى منه أثر ، ومنه : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ﴾ [البقرة : ٢/٢٧٦] : أي يستأصله ويذهب ببركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ ﴾ [النُّور : ٢٤/٣٦] .

وهدًى للعالمين[1] ، خصوصاً ، ولو لم يكن في الأرض إلا بيتُه الحرامَ لكفاها ذلك شَرَفاً وفَضْلاً على النّارِ .

(الثالث عشر) أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمراتِ والحبوبِ والأقواتِ وأصنافِ الحيواناتِ وأمتعتِها والجبالِ والجِنانِ والرِّياض والمراكب البهيّة والصُّور البهيجة مالم يودع في النار شيئاً منه ، فأيّ روضةٍ وُجِدَتْ في النار أو جنّة أو معدَنٍ أو صورةٍ أو عينٍ فَوّارة أو نهرٍ مطرد[2] أو ثمرةٍ لذيذة أو زوجةٍ حسنةٍ أو لباسٍ وسترة ؟

(الرابع عشر) أن غاية النار أنها وُضِعَتْ خادمةً لما في الأرض ؛ فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمِّل لها ، فهي تابعةٌ لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها ، وإذا ما احتاجت إليها استدعتها استدعاءَ المخدوم لخادِمِه ومَنْ يقضي حوائجه .

(الخامس عشر) أنَّ اللَّعينَ لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورةَ الطين تراباً ممتزجاً بماءٍ فاحتقره ، ولم يعلم أنَّ الطين مركبٌ من أصلين : الماء الذي جعل الله منه كلَّ شيء حي[3] ، والترابِ الذي جعله خزانة المنافع والنعم ، هذا وكم يجيء من الطين من

(١) في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِياماً للنّاسِ ﴾ [المائدة : ٩٧/٥] . قال الطبري : صيَّر اللهُ الكعبة البيت الحرام قِواماً للناس ، الذين لا قِوام لهم من رئيسٍ يحجز قويهم عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم .. (جامع البيان : ٧٦/٧) ، وقال القرطبي : قياماً للناس : أي صلاحاً ومعاشاً لأمن الناس بها ، وعلى هذا يكون (قياماً) بمعنى يقومون بها ، وقيل : قياماً أي يقومون بشرائعها . (الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٥/٦) .

(٢) في المطبوعة : مطَّرد ، وليس لها معنى . والصواب : مُطَّرِد . يقال : اطَّرد الشيء اطّراداً أي : تبع بعضه بعضاً وجرى . والأنهار تطَّرد أي تجري .

(٣) مِصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ .

المنافع[1] وأنواع الأمتعة ، فلو تجاوزَ نظرُه صورةَ الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خيرٌ من النار وأفضل .

وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن الترابَ أفضلُ من النّار وخيرٌ منها وَجَدْتَها كثيرة جداً ، وإنما أشرنا إليها إشارةً ، ثم لوسُلِّمَ بطريق الفَرْضِ الباطل[2] أنَّ النَّار خيرٌ من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من المخلوق من الطين ؛ فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة مَنْ هو خير ممن خَلَقه من المادة الفاضِلة ، والاعتبارُ بكمال النهاية لا يَنقُصُ المادَّة ، فاللَّعين لم يتجاوز نظرُه محلَّ المادَّة ولم يعبُر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة ، فأين الماءُ المهين الذي هو نُطفَةٌ ومُضْغَةٌ واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسنِ خَلْقاً وخُلُقاً ، وقد خلق الله تعالى الملائكةَ من نورٍ وآدمَ من ترابٍ ، ومن ذريَّة آدم مَنْ هو خيرٌ من الملائكة[3] وإن كان النُّور أفضلَ من التراب ، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظَرَةِ

(١) انظر بعض هذه المنافع في كتاب : تذكرة أولي الألباب للأنطاكي : ١/٢٣٣ .

(٢) الفرض الباطل : مافقد منه ركن أو شرط بلا ضرورة ، ويرادفه الفاسد ، ولا ينافيه اختلافهما في بعض الأبواب . (الحدود الأنيقة : ٧٤) .

(٣) اختلف الناس في التفضيل الواقع بين البشر والمَلَك ، وقد فصّل الإمام العزُّ بنُ عبدِ السّلام ذلك في كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) صفحة ٦٩٤ ، والزمخشري في تفسيره الكشّاف عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ما هذا بَشَراً ﴾ [يوسُف : ١٢/٣١] . وخصّص الإمام أبو بكر محمد الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) ، الباب الرابع والعشرين في كتابه التعرُّف لمذهب أهل التَّصوُّف حول قولهم في الملائكة والرُّسل ، فأورد عدّة آراء منها :

أولاً : سكت الجهور عن تفضيل الرُّسل على الملائكة ، وتفضيل الملائكة على الرُّسل . وقالوا : الفضل لمن فضَّله اللهُ .

ثانياً : فضَّل بعضهم الرُّسلَ وبعضُهم الملائكةَ .

ثالثاً : قال محمد بن الفضل : جملةُ الملائكة أفضلُ من جملة المؤمنين ، وفي المؤمنين مَنْ هو أفضل من الملائكة ، كأنّه فضل الأنبياء عليهم السلام وعلى الملائكة .

وقال صاحب الجوهرة :

وأفضَلُ الخلقِ على الإطلاقِ   نَبيُّنا ، فَملْ عَنِ الشِّقاقِ =

اللّعين وفسادِ نظره وإدراكه ، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعَه لآدم ، فعارض حكمةَ الله وأمرَه برأيه الباطلِ ونظرِه الفاسدِ ، فقياسه باطل نَصّاً وعقلاً ، وكلُّ مَنْ عارَضَ نصوصَ الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه .

فنعوذ بالله من الخذلان[1] ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رُمِيَ العبدُ بِشَرٍّ منه ، ولأنْ يَلْقى اللهَ بذنوبِ الخلائق كلّها ما خلا الإشراكَ به أسلمُ له من أن يلقى الله وقد عارض نصوصَ أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه[2] ، وهل طَرَدَ الله إبليس ولَعَنَه وأحلَّ عليه سخطَه وغضبَه إلاّ حيثُ عارض النَّصّ بالرأي والقياس ، ثم قدَّمه عليه ؟ والله يعلم أن شُبَهَ عَدوِّ الله مع كونها داحِضَةً باطلةً أقوى من كثيرٍ من شُبَه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم ، فالعالِم يتدبَّر سرَّ تكرير الله لهذه القصة مرةً بعد مرةٍ ، وليحذر أن يكونَ له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر ، فقد أقسم عدوّ الله أنه ليغوينَّ بني آدمَ أجمعين إلا المخلَصين منهم[3] ، وصدق تعالى ظنَّه عليهم ، وأخبر أنَّ المخلَصينَ لا سبيل له عليهم[4] ، والمُخلَصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء ، فيجرّد عبادة الله عن عبادة ما سواه ، ويجرّد متابعةَ رسوله وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره ، فليزن

=
والأنبيا يلونه في الفضل — وبعدهم ملائكة ذي الفضل
هذا وقوم فصّلوا إذ فضّلوا — وبعضُ كلٍّ بعضَه قد يفضل

(١) الخِذْلان : ترك العون والنصرة .

(٢) وردت في هذا أحاديثُ عدّةٌ ؛ منها : ما جاء في الحديث القدسي : « قال ربكم أنا أهلٌ أن أُتّقى فلا يُشْرَكَ بي غيري ، وأنا أهلٌ لمن اتّقى لن يُشركَ بي أن أغفرَ له » (رواه ابن ماجه في الزهد) ، ومنها : « يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقُراب الأرضِ خطايا ، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً ، لأتيتك بقُرابها مغفرةً » (رواه الترمذي في الدعوات ، باب : في فضل التوبة والاستغفار) .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرض ، ولأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعينَ ، إلاّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخْلَصينَ ﴾ [الحجر : ٣٩/١٥ـ٤٠] . وقوله : ﴿ قالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُم أجْمَعينَ ، إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصينَ ﴾ [ص : ٨٢/٣٨ـ٨٣] .

(٤) وذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ عِبادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطانٌ ﴾ [الإسراء : ٦٥/١٧] .

العاقل نفسَه بهذا الميزان قبل أن يُوزَنَ يومَ القُدوم على الله ، والله المستَعانُ وعليه التُّكلان[١] ، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدودَةً قُل أتَّخَذْتُم عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أم تَقولونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمونَ ﴾[٢] ، فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم[٣] وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بدَّ مِنْ واحدٍ منهما ، وقد تعيَّنَ بُطلانُ أحدِهما فلزم ثبوتُ الآخر ؛ فإن قولهم[٤] : لن تمسَّنا النّارُ إلاّ أيّاماً معدودةً خبر عن غيبٍ لا يُعلم إلاّ بالوحي ، فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهدٍ عَهِدَه إلى المخبر ، وهذا منتَفٍ قطعاً ، فتعين أنْ يكون خبراً كاذباً ، قائلُه كاذبٌ على الله تعالى .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا ميثاقَكُم لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُم ولا تُخْرِجُونَ أنفُسَكُم مِن دِيارِكُم ثُمَّ أقْرَرْتُم وأنْتُم تَشْهَدونَ ، ثُمَّ أنْتُم هؤلاء تَقْتُلونَ أنفُسَكُم وتُخْرِجونَ فَريقاً مِنْكُم مِن دِيارِهِم تَظاهَرونَ عَلَيهِم بالإثْمِ والعُدوانِ وإنْ يَأْتوكُم أُسارى تُفادُوهُم

(١) توكَّل على الله اعتمد عليه ، واتَّكَلَ عليه في أمره كذلك ، والاسم التُّكْلان (بضم التاء) ، ومنه الحديث : « اللّهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التُّكْلان » (رواه الترمذي في الدُّعاء : ٣٠) .

(٢) سورة البقرة : ٨٠/٢ .

(٣) جاء في جامع البيان للطبري : ٣٨٣/١ ما نصُّه :
« عن قتادة قال : قالت اليهود : لن ندخل النار إلاّ تَحِلَّةَ القَسَم عِدّةَ الأيام التي عَبَدْنا فيها العِجْلَ ، فقال الله : ﴿ أتَّخَذْتُم عِندَ اللهِ عَهْداً ﴾ بهذا القول الذي تقولونه ، ألكم بهذا حُجَّةٌ وبرهانٌ ﴿ فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ﴾ فهاتوا حجّتكم وبرهانكم ﴿ أمْ تَقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمونَ ﴾ .

(٤) قال الألوسي : وقد قالوا ذلك حين دخل النّبي ﷺ المدينة وسمعه المسلمون فنزلت هذه الآية . (تفسير روح المعاني : ٣٠٤/١) .

وهُـوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُم إخْراجُهُم أفَتُـؤمِنـونَ بِبَعْضِ الكِتـابِ وتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ ﴾[1] ، فهـذه حجَّة من الله احتَجَّ بها على أهلِ الكتاب[2] ؛ فإنَّه كان قد أخذَ عليهم الميثاقَ أنْ لا يقتُلَ بعضهم بعضاً ، ولا يجلِّيه عن ديارِه ، وأن يفديَ بعضُهم بعضـاً من الأسر ، فهـذه ثلاثـة عهود ، خـالفوا منهـا عهـدين وأخـذوا بـالثـالث ؛ فقتـل بعضُهم بعضـاً ، وأخرجـه من دياره ، ثم فادَوْا أسراهُم ؛ لأنَّ اللهَ أمرهم بذلك ، فإنْ كنتم قد فادَيْتم الأُسارى ؛ لأنَّ الله أمركم بفدائهم فلِمَ قتلتم بعضَكُم بعضاً وأخرجتموهم من ديارهم ، والله قد نهاكم عن ذلـك ؟ والأخذُ ببعضِ الكتاب يُوجبُ عليكم الأخـذَ بجميعـه ، فكيف تكفرون ببعض الكتـاب وتؤمنون ببعض ﴿ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِـكَ مِنْكُم إلاَّ خِزْيٌ في الْحَيـاةِ الـدُّنيـا[3] ويَـومَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذابِ وما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلونَ ﴾[4] .

فصل

ومن ذلـك قـولـه تعـالى : ﴿ أفَكُلَّما جـاءَكُم رَسـولٌ بِما لا تَهْـوَى أنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُم

---

(١) سورة البقرة : ٨٤/٢ ـ ٨٥ .

(٢) روى السُّدِّي عن أشياخه قال : كانت قرَيظَةُ حلفاءَ الأوس ، والنضيرُ حلفـاءَ الخزرج ، فكانوا يقـاتلون في حرب سمير (بين الأوس والخزرج) ، فيقاتل بنو قريظـة مع حلفـائهـا النضير وحلفـاءهـا ، وكانت النضير تقاتل قريظـة وحلفـاءهـا ، فيغلبونهم ويخربون الـديـار ويخرجون منهـا ، فإذا أُسِرَ الرجل من الفريقين كليهما ، جمعوا له حتى يفدوه ، فتعيِّرهم العرب بذلك ، فتقول : كيف تقـاتلونهم وتفـدونهم ؟! فيقولون : أمرنـا أن نفـديهم ، وحُرِّم علينـا قتلهم ، فتقول العرب : فلِمَ تقـاتلونهم ؟ فيقولون : نستحي أن يستـذل حلفـاؤنـا ، فعيَّرهم الله ، عزّ وجلّ ، فقـال : ﴿ ثُمَّ أنتُم هؤلاءِ تَقْتُلونَ أنفُسَكُم ﴾ » . (زاد المسير : ١١١/١) .

(٣) سورة البقرة : ٨٥/٢ ، والمراد بـالخزي قولان ؛ أحـدهمـا : الجِزْيَـة ، قـالـه ابن عبـاس . والثـاني : قتل قريظة ونفي النضير ، قاله مقاتل . (زاد المسير : ١١٢/١) .

(٤) أثبت ابن القيِّم قراءَة نافع (يعملون) باليـاء ، وقرأهـا ابن كثير وابن عـامر (تعملون) بـالتـاء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : (يعملون) باليـاء . (انظر السبعـة في القراءات لابن مجاهـد : ١٦٠ـ١٦١ ، النشر لابن الجزري : ٢١٨/٢) .

فَفَريقاً كَذَّبْتُم وفَريقاً تَقْتُلونَ ﴾[1] ، فهذا هو الذي تسمّيـه النُّظّـارُ والفقهـاء التَّشهِّي[2] والتَّحكُّم[3] ، فيقول أحدُهم لصاحبه : لا حُجَّة لكَ على ما ادَّعَيْت سوى التَّشهِّي والتَّحكُّم الباطل ، فـإن جـاءك مـا لا تشتهيـه دفعتَـه وردَدْتَـه . وإن كان القول موافقـاً لمـا تهواه وتشتهيه إما من تقليدِ مَنْ تُعَظِّمُه أو موافقـةِ مـا تريـده قَبِلْتَـهُ وأجَزْتَـهُ فتردّ مـا خـالف هواك وتقبل ما وافق هواك ، وهذا الاحتجـاج والـذي قبلـه مفحمان للخصم[4] لا جواب له عليها ألبتـة[5] ؛ فـإنَّ الأخـذَ ببعضِ الكتـابِ يوجِبُ الأخـذَ بجميعـه ، والتزامُ بعضِ شرائعه يُوجِبُ التزام جميعهـا ، ولا يجوز أن تكون الشرائع تـابعـةً للشهوات ؛ إذ لو كان الشرع تابعاً للهوى والشهوة لكان في الطِّباع مـا يغني عنـه وكانت شهوةُ كل أحـد وهواه شرعاً له[6] ﴿ ولَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ ومَنْ فِيْهِنَّ ﴾[7] .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولَمَّا جاءَهُم كِتابٌ مِن عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَهُم وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الَّذينَ كَفَروا فَلَمَّـا جـاءَهُم مـا عَرَفوا كَفَروا بِـهِ فَلَعْنَـةُ اللهِ عَلى الكافِرينَ ﴾[8] ، فهـذه حجـة أخرى على اليهود في تكـذيبهم بمحمـد ﷺ ؛ فـإنهم كانوا

---

(١) سورة البقرة : ٨٧/٢ ، ومعنى الآيـة : أفكلمـا جـاءكم أيهـا اليهود رسول بغير مـا يوافـق ويـلائم أنفسكم ، استكبرتم عن إجابته ، احتقاراً للرُّسل ، فريقاً كذَّبتم كعيسى ومحمد ، وفريقاً قتلتم كزكريا ويحيى ؟!

(٢) التَّشَهِّي : اقتراح شهوةٍ بعد شهوةٍ . (لسان العرب : شَها) .

(٣) التَحكُّم : يقال تَحَكَّم في كذا : فعل ما رآه . (المصباح المنير : حكم) .

(٤) الإفحـام : إسكات الخصم بـالْحُجَّـة وتعجيزه عن إثبـات مطلوبـه ، لكونـه لم يستطع الإجـابـة على المنع أو النقض أو المعارضة .

(٥) وهو نهاية الذّم لهم . (انظر التفسير الكبير للرازي : ١٧٨/٣) .

(٦) هـذا الرأي من ابن القيّم في غـايـة الـدّقّـة ؛ لاعتماده على الإنصـاف في الحكم ، وبيـان أسس الأحكام الشرعية ، وأن مصدرها البيان القرآني والسُّنّة النَّبويّة .

(٧) سورة المؤمنون : ٧١/٢٣ .

(٨) سورة البقرة : ٩١/٢ .

يحاربون جيرانَهُم من العرب في الجاهلية ويستنصِرون عليهم بالنَّبي ﷺ[1] قبلَ ظهورِه فيفْتَحُ لهم ويُنْصَرونَ ، فلما ظهر النَّبي ﷺ كفروا به وجَحَدوا نبوَّته ؛ فاستفتاحُهم به وجحدُ نبوّته مما لا يجتمعان ، فإن كان استفتاحُهم به لأنه نبي كان جحدُ نبوّته مُحالاً[2] ، وإن كان جَحْدُ نبوّته كما يزعمون حقّاً كان استفتاحُهم به باطلاً ، فإن كان استفتاحُهم به حقّاً فنبوَّتُه حقٌّ ، وإن كانت نبوَّتُه كما يقولون باطِلاً فاستفتاحُهم به باطل ، وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه ألبتةَ ، ويمكن تقريرها على صور عديدة :

(منها) أن يقال قد أقررتم بنبوَّته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعيَّنَ عليكم الإقرارُ بها بعدَ ظهورِه .

(الثانية) أن يقال : كنتم تستفتحون به ، وذلك إقرار منكم بنبوَّته قبل ظهوره استناداً إلى ما عندكم من العلم بظهوره ، فلما شاهدتموه وصار المعلوم مُعايَناً بالرؤية فالتصديق به حينئذٍ يكون أولى ، فكفرتم به عند كمال المعرفة وآمنتم به حين كانت غيباً لم تكمل ، فآمنتم به على تقدير وجوده وكفرتم به عند تحقق وجوده ، فأيُّ تناقضٍ وعِنادٍ أبلغُ من هذا ؟!

(الثالثة) أن يقال : إيمانكم بهِ لازمٌ لاستفتاحكم به ووجودُ الملزوم[3] بدون لازمه محالٌ .

(الرابعة) أن يقال استفتاحُكم به هل كان عن دليلٍ أو لا عن دليل ؟ فلابدّ أن يقولوا : كان عن دليلٍ ، وحينئذ يجب طَرْدُ الدليل[4] ، والقول بموجبه حيث وُجِدَ ، فأمّا أن يقال بموجبه في موضع ويجحد موجبه في موضعٍ أقوى منه فمِنْ أبطَلِ الباطل .

---

(١) انظر زاد المسير : ١/١١٤ ، تفسير روح المعاني : ١/٣٢٠ ، الدُّر المنثور : ١/٨٧ .

(٢) المُحال لغةً : ما يحيل عن جهة الصّواب إلى غيره ، واصطلاحاً : ما اقتضى الفساد من كل وجه ، كاجتماع الحركة والسكون في محل واحد . (الحدود الأنيقة : ٧٢) .

(٣) الملازمة : كون الحكم مقتضياً الآخر ، والأوّل هو الملزوم ، والثاني هو اللازم .

(٤) اطّردَ الأمرُ اطّراداً : تبع بعضه بعضاً ، وقولهم : اطّرد الحدُّ معناه تتابعت أفراده وجرت مجرى واحد =

(الخامسة) أن يقال إنْ كان الاستفتاحُ به تصديقاً للنَّبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه فالإيمان به متعين ، تصديقاً للنبي الأول أيضاً[1] ، وإن كان تركُ الإيمان قبل ظهوره تكذيباً للنبي الأول فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيباً ، فأنتم في كفركم به مُكَذِّبون للنَّبي الأول والثاني ، وهذا من أحسن الوجوه .

(السادسة) أن يقال : إن كان الاستفتاح به حقّاً لِمَا ظَهَرَ على يد النَّبي المبشَّر به من المعجزات فالإيمان به عند ظهوره يكون أقوى لانضمام المعجزات التي ظهرت على يده ، وهي تستلزم لصدقه المعجزات التي ظهرت على يد النَّبي المبشر به فقويت أدلة الصدق وتظافرت براهينه[2] .

(السابعة) أن يقال : أحد الأمرين لازم ولا بدّ ؛ إمَّا خطأُكم في استفتاحكم به ، وإمَّا في كفركُم وتكذيبكُم به ، فإنها لا يمكن اجتماعهما ، فأيهما كان خَطَأ كان الآخرُ صَواباً ، لكنَّ استفتاحَكُم به مستندٌ إلى الإيمان بالنَّبي الأول فهو مستند إلى حق ، فتعين أن يكون كفرُهم به هو الباطل[3] ، ولا يمكن أن يقال : إن التكذيبَ به هو الحقّ ، والاستفتاحَ به كان باطلاً لأنه يستلزم تكذيبَ مَنْ أقررتم بصدقه ولا بدَّ .

(الثامنة) أن يقال التصديق به قبلَ ظهوره من لوازم التَّصديق بالنَّبي الأول ، والتكذيبُ به حينئذٍ كُفْر ، فالتَّصديق به بعد ظهوره كذلك ؛ وإنْ كانَ التكذيبُ به قبلَ ظهورِهِ مستلزِماً للكفر بالنَّبي الأوّل فهو بعدَ ظهوره أشدُّ استلزاماً ، فلا يجتمع

= كجري الأنهار ، قاله الفيومي في المصباح المنير .
وقال صاحب الحدود : الطَّرد : وجود الحكم لوجود العلة ، والعكس : عدم الحكم لعدم العلة . (الحدود في الأصول : ٧٤-٧٥) .

(١) سيدنا موسى عليه السَّلام .
(٢) الظَّفر : الفوز بالمطلوب . وتظافرت البراهين وتضافرت بمعنىً واحدٍ .
(٣) كانت اليهود إذا قاتلت أهل الشرك استفتحوا عليهم أي استنصروا عليهم الله ، فقالوا : اللهم انصرنا بالنَّبي المبعوث إلينا ، فلما جاءهم النَّبي ﷺ ، وعرفوه كفروا به . (القُرطين للكنّاني : ٤٧) .

التكذيبُ بـه والإيمـانُ بـالنَّبي الأوّل أبـداً ، لا قَبْلَ ظهورِه ولا بعـدَه ، أمّـا قبلَ ظهوره فباعترافكم وأمّا بعد ظهوره فلأنَّ دلالة صدقه حينئذٍ أظهَرُ وأقوى كما تقدّم بيانُه .

(التاسعة) أن يقال : الاستفتاحُ بـه تصـديقٌ وإقرارٌ بنبوتـه ، وتكـذيبُـه جحـدٌ وكفرٌ بها ، والإيمان والتّصديقُ برسالة الرجل الواحد ، والتكذيبُ والجحـد بهـا مستلزم للكفر ولا بدَّ ، فإنه يستلزم أحـد الأمرين : إمّـا التّصـديق بنبوّةِ مَنْ ليس بنبيّ ، وإمّـا جحـدُ نبوة مَنْ هو نبي ، وأيُّها كان فهو كفر ، وقـد أقررتم على أنفسكم بـالكفر ولا بـدّ ، فلعنةُ الله على الكافرين .

(العاشرة) تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمـات المؤاخـذة بـالاعتراف ، فيقـال لهم : ألستم كنتم تستفحون بـه ؟ فيقولون : بلى ، فيقـال : أليس الاستفتـاحُ بـه إيمانٌ به[1] ؟ فلابدَّ من الاعتراف بـذلـك ، فيقـال : أفليسَ ظهورُ مَنْ كنتم تؤمنون بـه قبل وجوده موجِبـاً عليكم الإيمـانَ بـه فلا بـدَّ من الاعتراف أو العِنـاد الصَّريـح ، وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراضٌ ألبتةَ سوى أن قـالوا : هـذا كلّـه حقٌّ ، ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنّا نستفتح به ، وهذا من أعظم البَهْت[2] والعِناد[3] ؛ فإن الصفـاتِ والعلاماتِ التي فيه طابقتْ ما كان[4] عندَهم مطابقةَ المعلوم لعلمه ، فـإنكارُ أن يكونَ هُوَ إنما يكون جحداً للحقّ وإنكاراً له باللسان ، والقلبُ يعرفه ، ولهذا قالَ تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَـاءَهُم مـا عَرَفوا كَفَروا بِـهِ ، فَلَعْنَـةُ اللهِ على الكافِرينَ ﴾[5] ، فـأغنى عن هـذه الوجوه والتقريرات كلّها قولُه تعالى : ﴿ ولَمَّا جاءَهُم كِتـابٌ مِن عِنـدِ اللهِ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَهُم[6]

---

(١) (ليس) ها هنا تُسمى الشأنية . يضمر فيها الشأن والحديث (انظر المقتضب للمبرد : ٤/١٠٠ ح ١) .

(٢) البَهْتُ ، يقال : بَهَتَه أخذهُ بَغْتَةً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ ، وبَهَتَه أيضاً قال عليه مـالم يفعَلْهُ .

(٣) العِناد من عَنَدَ أي خالف الحق وردّه وهو يعرفه ، وعانده معاندةً وعِناداً بالكسر عارضه .

(٤) في المطبوع : كانت .

(٥) سورة البقرة : ٢/٨٩ .

(٦) في المخطـوط ذكر : ﴿ ولَمّـا جـاءَهُم رَسـولٌ .. ﴾ الآيـة . وورد في المطبـوع : مصـدقـاً ، والصـواب ما ذكرتُ .

وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ عَلى الَّذينَ كَفَروا فَلَمَّا جاءَهُم مـا عَرَفوا كَفَروا بِـهِ فَلَعْنَـةُ اللهِ عَلى الكافِرينَ ﴾[1] .

والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة ، وفي أي قالَبٍ أُفرِغَتْ وصورةٍ أُبْرِزَت ظَهَرت صحيحةً ، وهذا شأن موادّ براهين القرآن ، في أي صورةٍ أبرَزْتَها في غاية الصِّحّة والبيان ، فالحمد لله المانّ بالهدى على عباده المؤمنين .

فصل

وتأمَّل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ ولَمَّا جاءَهُم رَسُولٌ من عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم ﴾[2] ، كيف تجد تحته برهاناً عظيماً على صِدْقِه ، وهو مجيء الرَّسول الثاني بما يطابقُ ما جاء به الرسولُ الأول ، ويصدِّقه ، مع تباعد زمانهما[3] وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقَّه مِنْ بَشَرٍ ؛ ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياءَ يعلمون أنه لا يُخبِرُ بها إلاّ نبي أو مَنْ أخذ عنه ، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحدٍ ألبتةَ ، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ، ولعارضوه بمثل ما جاء به ؛ إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذاً عن بشر أن يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به[4] .

والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقّي منه ولا ممن أخذ عنه دليلٌ قاطع على صِدْقِ الرسولين معاً .

---

(١) سورة البقرة : ٨٩/٢ .

(٢) تمام الآية : ﴿ نَبَذَ فَريقٌ مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ كِتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِم كأنَّهُم لا يَعْلَمونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٠١/٢] .

(٣) إن الله تعالى لما أظهر الدلائل الدالة على نبوّة محمد ﷺ وعلى صحة شرعه كان ذلك كالعهد منه سبحانه ، وقبولهم لتلك الدلائل كالمعاهدة منهم لله سبحانه وتعالى .

(٤) قال الرازي : اعلم أن معنى كون الرسول مصدقاً لما معهم هو أنه كان معترفاً بنبوّة موسى عليه السلام ، وبصحة التوراة ، أو مصدقاً لما معهم من حيث إن التوراة بشرت بمقدم محمد ﷺ ، فإذا أتى محمد كان مجرد مجيئه مصدقاً للتوراة . (التفسير الكبير : ٢٠١/٣) .

ونظير هذا أن يشهد رجلٌ بشهادةٍ فيخبرُ فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادتـه صـدقـاً لا يتطرَّقَ إليـه شُبْهـة ، فيجيء آخر من بلادٍ أخرى لم يجتمع بـالأول ولم يتـواطـأ معـه ، فيخبر بنظير تلك الشهادة سواءً ، مع القطع بأنه لم يجتمع به ، ولا تلقَّاها عن أحدٍ اجتمع به ، فهذا يكفي في صدقـه إذا تجرَّد الإخبـارُ ، فكيف إذا اقترن بـأدلـةٍ يقطع بها بـأنـه صادقٌ أعظمُ من الأدلـة التي اقترنت بخبر الأول فيكفي في العلم بصـدق الثـاني مطـابقـةُ خبره لخبر الأول ، فكيف إذا بشَّر بـــه الأول ؟ فكيف إذا اقترن بـــالثـــاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم .

فصل

ومن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قـالـوا نُـؤْمِنُ بِمَا أُنْـزِلَ عَلَينا ويَكْفُرونَ بِمَا وَراءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُم قُلْ فَلِمَ تَقْتُلونَ أَنْبِياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ ﴾[1] . هذه حكاية منـاظرة بين الرسول ﷺ وبين اليهود[2] لَمّـا قـال لهم : ﴿ آمِنوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ ، فأجابوه بأن قالوا : ﴿ نُؤمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْنـا ﴾ ، ومرادُهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزَل علينا دونَ غيره ، فظهرت عليهم الحجَّـة بقولهم هـذا من وجهين دلَّ عليها قولُـه تعـالى : ﴿ ويَكْفُرونَ بِمَا وَراءَهُ وَهُوَ الْحَـقُّ ﴾ إلى آخر الآيـة . قال : إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حقٌ فقـد وَجَبَ عليكم أن تؤمنوا بمـا جـاءَ بـه محمدٌ لأنه حق مصدِّق لما معكم ، وحكمُ الحقِّ الإيمـانُ بـه أين كانَ ، ومعَ مَنْ كان ، فلزمكم الإيمانُ بالحقَّيْن جميعاً ، أو الكفر الصُّراح .

---

(١) سورة البقرة : ٢/٩١ .

(٢) إذا قيل لليهود : صدّقوا بالقرآن ، قالوا : نصدّق بالتَّوراة المنزلة علينـا ، ويكفرون بمـا سواه من الكتب الأخرى ، فوراءه أي غيره ، والقرآن حق مؤيد للتوراة ؛ لأن كتب الله يؤيد بعضهـا بعضـاً ، وقل لهم أيهـا النَّبي : إن كنتم مـؤمنين بمـا أنـزل عليكم فكيف تقتلـون أنبيـاء الله الـذين حرَّم الله عليكم قتلهم ؟ والخطـاب وإن كان للحـاضرين زمن النَّبي ﷺ فـالمراد بـه أسلافهم ، وصح خطـابهم لرضـاهم بمـا فعـل أسلافهم ، فكانوا منهم . (التفسير الوجيز للزحيلي : ص ١٥) .

وفي قوله : ﴿ ويَكْفُرونَ بِما وَراءَهُ وهُوَ الْحَقُّ ﴾ نُكْتَةٌ بديعة جداً ؛ وهي أنهم لما كفروا به ، وهو حق ، لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حقّ ، فإذا لم يتبعوا الحقَّ فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد ﷺ لأنهم لوآمنوا بالمنزل عليهم أنه حقٌّ لآمنوا بالحقّ الثّاني[1] ، وأعطوا الحقَّ حقَّه من الإيمان ، ففي ضمن هذه الشّهادةُ عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحقّ الأول ولا بالثاني ، وهكذا الحكم في كلِّ من فَرَّقَ الحقَّ فآمن ببعضِهِ وكفَرَ ببعضِهِ ، كمن آمَن ببعضِ الكتاب وكفَر ببعض ، وكمن آمنَ ببعضِ الأنبياء وكفَرَ ببعضٍ ، لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمنَ بالجميع .

ونظير هذا التفريق تفريقُ من يَرُدُّ آياتِ الصفات وأخبارَها[2] ويقبل آياتِ الأوامر والنّواهي ، فإن ذلك لا ينفعه ؛ لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض ، فإن كانت الشُّبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غيرَ نافعةٍ فالشبهة التي عرضت لمن ردَّ بعضَ ماجاءَ به النَّبي ﷺ أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذراً له فشبهة من كذَّب بعضَ الأنبياء مثلُها ، وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمنَ بجميع الأنبياء ، ومَنْ كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كَفَر بجميعهم ، فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمنَ بجميع ما جاء به الرَّسولُ ، فإذا آمنَ ببعضه وردَّ بعضَه فهو كمن كفر به كله .

فتأمّل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائِفِهم يتبيَّن لك أن أكثر من يدَّعي الإيمان بريء من الإيمان ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله .

---

(١) أورد سبحانه هذه الحكاية عنهم على سبيل الذَّمِّ لهم ؛ وذلك أنه لا يجوز أن يقال لهم : آمنوا بما أنزل الله إلا ولهم طريق إلى أن يعرفوا كونه منزلاً من عند الله ، وإلاّ كان ذلك تكليف ما لا يطاق ، وإذا دلَّ الدليل على كونه منزلاً من عند الله وجب الإيمان به ، فثبت أن الإيمان ببعض ما أنزل الله دون بعض تناقض . (التفسير الكبير : ١٨٥/٣) .

(٢) أي الصفات القائمة بالإله سبحانه وتعالى ، وقد أفردها العلماء بمؤلفات خاصة ضمن علم أصول الدين . (ينظر أصول الدين للبغدادي ٤٢٩ هـ ، مختصر الصواعق المرسلة لابن القيّم ، وأسماء الله الحسنى لابن القيّم ، والأسماء والصفات للبيهقي) وغيرها .

الوجه الثاني من النقض[١] قوله : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلونَ أنبياءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إن كُنْتُم مؤمِنينَ ﴾[٢] ، ووجهُ النَّقضِ أنَّكم إنْ زَعَمتم أنَّكم تؤمنون بما أُنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلِمَ قتلتموهم من قبل ؟ وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم ؟ فلا آمنتم بما أُنزلَ إليكم ولا بما أُنزِلَ على محمد ﷺ ، ثم كأنه توقَّع منهم الجوابَ بأنا لم نقتلْ مَنْ ثبتت نبوَّتُه ولم نكذِّب به ، فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم بأن موسى قد جاءكم بالبيِّنات وما لا ريبَ معه في صحَّة نبوتِهِ ثم عبدتم[٣] بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله وكفرتم به ، وقد علمتم نبوةَ موسى وقيامَ البراهين على صدقه فقال : ﴿ ولَقَد جاءَكُم موسَى بِالبَيِّنات ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتُمْ ظالِمونَ ﴾[٤] . فهكذا تكونُ الْحُجَجُ والبراهِيْنُ ومُناظَراتُ الأنبياء لِخُصومِهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ ﴾[٥] . كانوا يقولون : نحن أحبَّاءُ الله ولنا الدَّارُ الآخِرَة خالصَةً مِنْ دونِ النَّاس ، وإنَّما يُعذَّبُ منَّا مَن عَبَدَ العِجْلَ مدَّةً ، ثُمَّ يُخرَجُ منَ النَّار ، وذلك مُدَّةُ عبادَتِهم له[٦] ، فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم : إنَّ النَّار لن

---

(١) أي من تناقض أقوالهم بعضها ببعض وردّ القرآن الكريم لهم بالحجج البيّنات .
(٢) هذه الآية دالّة على أن المجادلة في الدّين من حِرَف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأن إيراد المناقضة على الخصم جائز . (التفسير الكبير : ١٨٦/٣) .
(٣) اتّخذوا العِجْلَ إلهاً من بعد مجيء موسى بالبيّنات ، وهم في هذا كافرون ؛ لعبادتهم ما لا يَسْتَحِقُّ العبادة .
(٤) سورة البقرة : ٩٢/٢ .
(٥) سورة البقرة : ٩٤/٢ .
قال أبو إسحاق الزّجاج : في هذه الآية أعظم حجّة وأظهر دلالة على صحة الرسالة ؛ لأنه قال لهم : فتَمَنَّوُا الموتَ ، وأعلمهم أنهم لن يتمنّوه أبداً ، فلم يتمنّه واحد منهم ، وعن النّبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلاّ غَصّ بريقِهِ » ، يعني يموت مكانه ، فصرفهم الله عن تمنّيه ، وجزّعهم ليظهر صدق رسوله وصحّة ما أوحي إليه . (الشفا : ١٧٦/١) .
(٦) وهو ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لن تَمَسَّنا النّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدودةً ﴾ .

تمسَّهم إلاَّ أيّاماً معدودة ، بالمطالبة وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند الله عهدٌ عَهِدَه إليهم ، وبينَ أن يكونوا قد قالوه عليه ما لا يعلَمون ، ولا سبيلَ لهم إلى ادّعاء العهد فتعيَّنَ الثاني ، وقد تقدَّم . ثم أجابهم عن دَعْوَاهُم خلوصَ الآخرة لهم بقوله : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُم صادِقِينَ ﴾ ؛ لأن الحبيبَ لا يكرهُ لِقاءَ حبيبَه ، والابنَ لا يكره لقاءَ أبيه ، لا سيا إذا عَلِمَ أنَّ كرامتَه ومثوبتَه مختصَّةٌ به ، بل أحبُّ شيء إليه لقاءُ حبيبه وأبيه ؛ فحيث لم يُحبَّ ذلك ولم يتمنَّه فهو كاذب في قوله مُبطِلٌ في دَعواه .

ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردّاً عليهم قولَهم : ﴿ نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبكُم بِذُنوبِكُم ﴾[1] . يعني أنَّ الأبَ لا يُعَذِّبُ ابنَه ، والحبيبَ لا يعذِّب حبيبَه .

وههنا نكتة لطيفة جداً قلَّ مَن ينتبه لها ، ونحن نقررها بسؤال وجواب ، فإن قيل : معلومٌ أنَّ الأبَ قد يُؤدِّبُ ولدَه إذا أذنب ، والحبيبَ قد يهجُرُ حبيبَه إذا رأى منه بعضَ ما يكره .

قيل : لو تأمَّلتَ أيها السائل قوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنوبِكُم ﴾ لعلمتَ الفرقَ بين هذا التعذيب وبين الهِجْرانِ والتّأديب ، فإن التَّعذيب بالذنب ثمرةُ الغضب الْمُنافي للمحبة ، فلو كانت المحبةُ قائمةً كما زعموا لم يكن هناك ذنوبٌ يستوجبون عليها العذاب من المسخ قِرَدَةً وخنازير[2] وتسلُّط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبَّداتهم ويسْبُونَ ذراريهم ، فالمحبُّ لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه . ومعلوم أن الرَّحمن الرَّحيم لا يفعل هذا بأمَّةٍ إلاَّ بعد فرط إجرامها وعُتُوِّها[3] على الله واستكبارها

(١) سورة المائدة : ١٨/٥ .

(٢) مِصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦٦/٧] .

وقوله : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيهِ وجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ والْخَنازِيرَ ﴾ [المائدة : ٦٠/٥] .

(٣) العُتُو : الطغيان ، والعاتي : المجاوز للحدّ في الاستكبار ، والعاتي : الجبّار أيضاً . وقيل : العاتي هو =

عن طاعته وعبادته ، وذلك ينافي كونهم أحبابه ، فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك ، ولو أحبهم لأدَّبهم ولم يعذِّبهم ، فالتَّأديب شيء والتَّعذيب شيء ، والتَّأديب يُرادُ به التَّهذيبُ والرَّحمة والإصلاحُ ، والتَّعذيبُ للعقوبة والجزاء على القبائح ، فهذا لونٌ وهذا لون .

وفي ضمن هذه المناظرة معجزةٌ باهرة للنَّبي ﷺ ، وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عداوته وتكذيبه ، وهو يخبرهم خبراً جزماً[1] أنهم لن يتمنّوا الموت أبداً ، ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقاً إلى الرَّدّ عليه ، بل ذُلُّوا وغُلِبوا وعَلِموا صحَّةَ قولِه ، وإنما منعهم من تمنّي الموت معرفتُهم بما لهم عند الله من الخِزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ .

فإن قيل : فهلا أظهروا التَّمنِّي ، وإن كانوا كاذبين فقالوا : فنحن نتمنَّاه ، قيل : وهذا أيضاً معجزة أخرى[2] ، وهي أن الله تعالى حبس عن تمنِّيه قلوبَهم وألسنَتَهم فلم تُرِدْه قلوبُهم ولم تَنطِقْ به ألسنَتُهم تصديقاً لقوله : ﴿ ولَن يَتَمَنَّوْهُ أبداً ﴾[3] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كانَ هُوداً أو نَصارى ، تِلْكَ أمانِيُّهُم قُلْ هاتوا بُرهانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾[4] ، هذه دعوى من كلِّ واحدٍ من الطائفتَيْن أنَّه لن يدخلَ الجنّة إلاَّ من كان منهما ، فقالت اليهود لا يدخلُها إلاَّ مَنْ كان هُوداً . وقالت النَّصارى : لا يدخلها إلاَّ مَنْ كان نصرانيّاً ، فاختصر الكلام أبلغ اختصار

= المبالغ في ركوب المعاصي المتمرد الذي لا يقع منه الوعظ والتنبيه موقعاً .
وانظر الآيات في : الطلاق : ٨ ، الأعراف : ٧٧ ، ١٦٦ ، الفرقان : ٢١ ، الذّاريات : ٤٤ .

(١) الْجَزْم : التأكيد . يقال : افعل هذا جَزْماً ، أي حَتْماً لا رُخْصةَ فيه ، وهو كما يقال : قولاً واحداً ، وحكمٌ جَزْمٌ وقَضاءٌ حَتْمٌ أي لا يُنْقَض ولا يُرَدّ . (المصباح المنير : جزم) .

(٢) إن عدم التَّمني ثبوت للقول بصحة نبوّة محمد ﷺ ، وبتقدير حصول هذا التَّمنّي يبطل القول نبوَّته .
(ينظر التفسير الكبير : ١٩١/٣ ، الشفاء للقاضي عياض : ١٦٢/١) .

(٣) سورة البقرة : ٩٥/٢ .

(٤) سورة البقرة : ١١١/٢ .

وأوجزه[1] مع أمن اللَّبس ووضوحُ المعنى ، فطالبَهُم اللهُ تعالى بالبرهان على صِحَّة الدَّعوى فقال : ﴿ قُلْ : هاتوا بُرْهانَكُم إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾ ، وهذا هو المسمَّى سؤال المطالبة بالدليل ؛ فمن ادَّعى دعوى بلا دليل يُقالُ له : هاتِ برهانَك إنْ كنتَ صادقاً فيما ادَّعيتَ ، ويحتجُّ بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليلَ كما يلزم المُثبِت ، وحكوا في ذلك ثلاثة مذاهب .

(ثالثها) يلزمه في الشرعيات دون العقليات ، واستدلالهم بالآية لا يصحّ ؛ لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد ، بل ادَّعوا دَعْوَى مضمونُها إثباتُ دخولهم هم الجنةَ وأنَّ غيرَهم لم يدخلها ، فطُولِبُوا بالدليل الدّالّ على هذه الدعوى المركبة من النَّفي والإثبات[2] ، وصاحب هذه الدَّعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس ، وإنما الخلاف في النفي المجرَّد . ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ وقالوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلاَّ أيّاماً مَعْدودَةً ﴾[3] ، لكان أقربَ مع كونه مُتَضمِّناً للنَّفي والإثبات ، لكن الدعوى فيه إنما توجَّهت إلى النَّفي ومقصود الكلام أنّا لا نُعَذَّبُ بعد تلك الأيام ، فلم يُنكر عليهم اعترافَهم بالتَّعذيب تلك الأيام ، بل دعواهم أنهم لا يُعذَّبون بعدها ، وذلك نفي محض ، فلذلك قلنا إن الاستدلال بها أقربُ من هذه الآية .

وبعد فالتحقيق في مسألة : النافي هل عليه دليل ، أنَّ النَّفي نوعان[4] :

---

(١) هنا من الفنون البلاغية ، وتفصيل الكلام كأنه قال : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى ، فَلَفَّ بين هذين القولين ، وجُعلا مقولاً واحداً اختصاراً وثقةً بفهم السامع أن ليس المقصد أن كل واحد من الفريقين يقول هنا القول المردد . (تفسير روح المعاني : ٣٥٩/٢) .

(٢) النفي بـ (لن) والإثبات بـ (إلا) المسماة بأداة الحصر .

(٣) سورة البقرة : ٨٠/٢ .

(٤) أي أنَّ المدَّعيَ سواءً ادَّعى نفياً ، أو إثباتاً ، فلا بُدَّ له من الدليل والبرهان ، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد ، قال الشاعر :

مَنِ ادَّعى شيئاً بلا شاهِد ... لابُدَّ أن تَبطُلَ دَعْواهُ

(التفسير الكبير : ٣/٤) .

(نوع) مُستَلزِم لإثبـاتِ ضـدٍّ المنفي ، فهـذا يلزم النـافي فيـه الـدليل ؛ كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بـالـدليل[1] قطعـاً ، لأن نفيَهـا يستلزمُ ثبوتَ ضِـدٍّ من أضـدادِهـا ولا بدَّ من دليل ، وكذلك نفي التعذيب بِالنَّار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخولَ الجنة والفوز بالنَّعيم ، ولا بدَّ له من دليلٍ .

(النوع الثـاني) نفي لا يستلـزِمُ ثبـوتـاً ؛ كنفي صحَّـة عقـد من العقـود أو شرط أو عبادة في الشرعيات ونفي إمكان شيءٍ ما من الأشياء في العقليات ، فـالنـافي إن نفى العلمَ به لم يلزمه دليل ، وإنْ نفى المعلومَ نفسَه ادَّعى أنَّه منتَفٍ في نفس الأمر فلا بـدَّ لـه من دليل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقـالوا اتَّخَـذَ اللهُ وَلَـداً سُبْحـانَـهُ ﴾ إلى قولـه : ﴿ كُنْ فَيَكونُ ﴾[2] ، فردَّ عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذَ الولـد ونزَّه نفسـه عنـه ، ثم ذكر أربعَ حُجَجٍ على استحالة اتِّخاذه الولد :

(أحدها) كون ما في السموات والأرض ملكاً له وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد لـه لأن الولـد بعضُ الوالـد وشريكـه فلا يكون مخلوقـاً لـه مملوكاً لـه ؛ لأن المخلـوق مملـوك مربوب ، عبـد من العبيـد ، والابن نظير الأَب ، فكيف يكون عبـدُه تعـالى ومخلـوقُـه ومملوكُه بعضَه ونظيرَه ؟ فهـذا من أبطل البـاطل ، وأكَّـد مضمون هـذه الحجَّـة بقولـه : ﴿ كُلٌّ لَهُ قـانِتُونَ ﴾ ، فهـذا تقرير لعبوديتهم لـه ، وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد ، فإثبـات الولـد لله من أعظم الإشراك بـه ، فـإن المشرك بـه

---

(١) المختار عند الإمام فخر الإسلام وغيره من المحققين في هذه المسألة أنه إن كان راوي النفي اكتفى بالأصل يَقدُّم الإثبات تقديمَ الجرح على التعديل ؛ لأن النفي حينئذٍ من غير دليل ، وإن كان النفي ممـا يُعرَف بـدليلـه لا بـالأصل تعـارضـا ، لأن كليهما خبران عن علم ، فـالنفي كالإثبـات ، ويطلب الترجيح من خارج . (راجع فواتح الرحموت : ٢/٢٠١ـ٢٠٢) .

(٢) ﴿ وقالوا اتَّخذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قـانِتونَ ، بَـديعُ السَّمواتِ والأَرْضِ وإذا قَضَى أمْراً فَإنَّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾ [البقرة : ٢/١١٦ـ١١٧] .

جعل لـه شريكاً من مخلوقـاتـه ، مع اعترافـه بـأنـه مملوك كما كان المشركون يقـولـون في تلبيتهم : لبّيـكَ اللّهُمَّ لَبَّيـك ، لَبَّيـكَ لا شريـكَ لـكَ إلاَّ شريـكٌ هـو لـك ، تملكـه وما مَلَكَ[1] . فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكاً له عبداً مخلوقاً ، والنصـارى جعلوا لـه شريكاً هو نظير وجزء من أجزائه ، كما جعل بعضُ المشركين الملائكة بناتِه فقال تعالى : ﴿ وجَعَلوا لَهُ مِن عِبادِهِ جُزْءاً ﴾[2] ، فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيـد قـانتون مربوبون مملـوكـون استحـال أن يكـون لـه منهم شريـك ، وكلٌّ من أقرَّ بـأن لله مـا في السموات وما في الأرض لزمـه أن يقولـه بـالتوحيـد ولا بـدَّ ، ولهـذا يحتج سبحـانـه على المشركين بإقرارهم بـذلـك كقولـه : ﴿ قُلْ لِمَنِ الأرْضُ ومَنْ حَوْلَها ومَنْ فيهـا إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ ، سَيَقولونَ للهِ ، قُل أفَلا تَذَكَّرونَ ﴾[3]. وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيـان لهذا في موضعه .

(الحجة الثانية) قولـه تعـالى : ﴿ بَـديعُ السَّمواتِ والأرْضِ ﴾[4] ، وهـذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبـة الولـد إليـه ، ولهـذا قـال تعـالى في سورة الأنعـام : ﴿ بَـديعُ السَّمواتِ والأرْضِ أنّى يَكونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾[5] . أي من أين يكون لبـديع السموات والأرض وَلَد .

ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هـذه السموات والأرض مع عظمها وآيـاتها وفطرهـا وابتـدعها فهـو قـادر على اختراع مـا هـو دونَها ، ولا نسبـةَ لـه إليها البتـةَ ،

(١) انظر تفسير غريب القرآن نقلاً عن أبي عبيدة : ٢٧ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢٧٢/٩ .

(٢) سورة الزُّخرف : ١٥/٤٣ .
وهـذا متّصل بقولـه : ﴿ ولَئِنْ سَـألْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ لَيَقولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزيزُ العَليمُ ﴾ ، أي ولئن سـألتهم عن خـالق السموات والأرض ليعترفن بـه ، وقـد جعلوا لـه مـع ذلـك الاعتراف من عبـاده جزءاً أي قـالوا : الملائكـة بنـات الله ، فجعلوهم جزءاً لـه وبعضـاً منـه كما يكون الولـد جزءاً لـوالـده . (تفسير النسفي : ١١٥/٢) .

(٣) سورة المؤمنون : ٨٥/٢٣ . وانظر : (تفسير النَّسفي : ١٢٦/٣) .

(٤) سورة البقرة : ١١٧/٢ .

(٥) سورة الأنعام : ١٠١/٦ .

فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه ، ويجعلونه نظيراً وشريكاً وجزءاً مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه ، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أبٍ حتى يقولوا : إنه وَلَده فإذا كان قد ابتدع العالم علويَّه وسفليّه فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي ، فمن نسب الولد لله فما عَرَف الرَّبَّ تعالى ، ولا آمن به ، ولا عبده ، فظهر أن هذه الحجَّة من أبلغ الحجج على استحالة نسبةِ الولد إليه .

وإنْ شِئْتَ أن تقرر الاستدلال بوجهٍ آخرَ وهو أن يقال : إذا كان نسبةُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما إليه إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع ، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالنبوة ، وقدرتُه على اختراع العالم وما فيه لم تزل ، ولم يَحتَجْ فيها إلى معاونٍ ولا صاحبٍ ولا شريكٍ .

وإن شِئْتَ أن تقررها بوجهٍ آخرَ فتقول : النسبة إليه بالبُنُوّة تستلزم حاجتَه وفقره إلى محل الولادة ، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله[1] : ﴿ قالوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ ﴾[2] ، فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبة الولد إليه ، ونسبتُه إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته . ولذلك كان نسبةُ الولد إليه مسبَّةً له ، تبارك وتعالى ، كما ثبت في الصحيحين عن النَّبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى شَتَمَني عبدي ابنُ آدم ، وما ينبغي له ذلك ، وكذَّبَني ابنُ آدم وما ينبغي له ذلك ؛ أمّا شتمه إيّاي فقوله اتَّخذَ ولَداً وأنا الأحدُ الصَّمدُ الذي لم أَلِدْ ولم أولَد ولم يكن لي كُفواً أحد ، وأمّا تكذيبه إيّاي فقوله : لن يعيدَني كما بدأني ، وليس

(١) سورة يونُس : ١٠/٦٨ .

(٢) تكرر هذا المعنى في عدّة آيات : [البقرة : ٢/١١٦ ، يونس : ١٠/٦٨ ، مريم : ١٩/٨٨ ، الأنبياء : ٢١/٢٦] .

أولَ الخلق بأهونَ عليَّ مِنْ إعادَته »[1] . وقـال عمر بن الخطـاب في النَّصـارى : « أذِلُّوهم ولا تظلموهم ؛ فلقد سبُّوا اللهَ مسبَّـةً مـا سبَّـهُ إيّـاهـا أحـدٌ من البشر » . وقـال تعـالى : ﴿ ويُنْذِرَ الَّـذينَ قـالوا اتَّخَـذَ اللهُ وَلَـداً ، مـالَهُمْ بـهِ مِن عِلْمٍ ولا لآبـائِهِم ﴾[2] الآيـة ، وأخبر تعـالى أن السموات كادَتْ تَنفَطِرُ من قولهم هـذا وتنشَقُّ الأرض منـه وتَخِرُّ الجبـال هَدّاً[3] ، وما ذاك إلاّ لتضمنه شتم الرَّب تبارك وتعالى ، والتنقص به ونسبـة مـا يمنع كمال ربوبيته وقدرته وغناه إليه .

(الحجة الثالثة) قوله تعالى : ﴿ وإذا قَضَى أمْراً فَإنَّما يَقولُ لَـهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾[4] ، وتقرير هذه الحجَّة أن مَنْ كانت قـدرتُـه تعـالى كافيـةً في إيجـاد مـا يريـد إيجـادَه بمجرد أمره ، وقـولـه ﴿ كُن ﴾ فـأيُّ حـاجـةٍ بـه إلى وَلَـد ؟! وهـو لا يتكثَّرُ بـه مِنْ قِلَّـة ، ولا يتعزَّزُ به ، ولا يستعينُ به ، ولا يعجز عن خَلْق ما يريـد خلقَـه[5] ، وإنما يحتـاج إلى الولـد مَنْ لا يخلُق ولا إذا أراد شيئـاً قـال لـه : كُن فَيَكونُ . وهـذا المخلوق العـاجـز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد .

وقد ذكر تعالى حُجَجاً أخرى على استحالَةِ نسبة الولد إليـه[6] ، فنـذكرهـا في هـذا

---

(١) صحيح البخـاري ، تفسير سورة البقرة ، ومسنـد أحمـد : ٣٥١/٢ ، وسئـل عليـه السـلام ، أيّ الـذنـوب أكبر ؟ فقال : « أن تجعل للهِ نِدّاً وهو خلقـك » (صحيح البخـاري : ١٢٤/٨ ، صحيح مسلم في الإيمـان رقم ٨٦ ، والترمذي في التفسير رقم ٣١٨١) .

(٢) سورة الكهف : ٤/١٨ـ٥ .

(٣) ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً . لَقَـد جِئْتُم شَيْئـاً إدّاً . تَكادُ السَّمواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنـهُ وتَنْشَقُّ الأرْضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدّاً ﴾ [مريم : ٨٨/١٩ـ٩٠] .

(٤) سورة البقرة : ١١٧/٢ .

(٥) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وقُلِ الْحَمْـدُ للهِ الَّـذي لَم يَتَّخِـذْ صـاحِبَـةً ولا وَلَـداً ، ولَم يَكُنْ لَـهُ شَريـكٌ في المُلْكِ ، ولَم يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وكَبِّرْهُ تَكْبيراً ﴾ [الإسراء : ١١١/١٧] .

(٦) قال الإمام ابن تيمية : استحالت الولادة عليه تعالى لأنها لا تكون إلاّ من أصلَيْن ، ومـا كان من المتولـد عيناً قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضـاً قـائمـاً بغيره فلابـدَّ لـه من محل يقوم =

الموضع ؛ فمنها كمالُ علمه وعموم خلقه لكل شيء ، واستحالةُ نسبة الصاحبة إليه فقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ بَديعُ السَّموات والأرْضِ أنَّى يَكونُ لَهُ وَلَدٌ ولَم تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ ﴾[1] الآية . فأمّا منافاةُ عمومِ خلقِه لنسبة الولد إليه فظاهر ، فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقاً ، بل جزءاً ، وهذا ينافي كونه خالقَ كلِّ شيء ، وبهذا يعلم أن الفلاسفةَ الذين يقولون بتولُّد العقولِ والنفوسِ عنه بواسطةٍ أو بغير واسطة شرٌّ من النَّصارى ، وأنَّ مَنْ زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقاً لله ، وقوله أخبَثُ من قول النصارى ؛ لأنَّ النصارى أخرجوا عن عموم خلقِه شَخصاً واحداً أو شخصين ، ومَن قال بقِدَمِ العالم فقد أخرج العالَم العُلويَّ والسُّفليّ والملائكةَ عن كونه مخلوقاً لله ، والنَّصارى لم يَصِلْ كفرُهُم إلى هذا الحدّ . وأمّا منافاةُ عَدَمِ المصاحبة للولد فظاهر أيضاً لأن الولد إنَّما يتولَّد مِنْ أصلَيْن : فاعلٍ ومحلٍّ قابلٍ يتَّصلان اتِّصالاً خاصّاً فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد ، فمن ليس له صاحبةٌ كيف يكونُ له ولد[2] ؟ ولذلك لما فَهِمَ عوامُّ النصارى أنَّ الابنَ يستلزمُ الصاحبةَ لم يستنكِفوا من دعوى كون مريم إلَهةً وأنها والدة الإله عيسى فيقول عوامُّهم : يا والدةَ الإلهِ اغفري لي ويصرِّحُ بعضُهم بأنها زوجةُ الرَّبِّ .

ولا رَيبَ أنَّ القول بالإيلاد يستلزم ذلك أو إثباتَ إيلادٍ لا يعقل ولا يتوهم ،

= به . فالأول نفاه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ ﴾ ، فإن الأحد هو الذي لا كُفؤ له ولا نظير فيمتنع أن يكون له صاحبة ، ﴿ وخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ ﴾ ، فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء وكل ما سواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له ، والثاني نفاه بكونه سبحانه ﴿ الصَّمد ﴾ .. فإنه أحد ليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صَمَد لا يخرج منه شيء . فكل واحد من كونه أحداً ومن كونه صَمَداً يمنع أن يكون والداً ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأحرى . (دلائل التوحيد للقاسمي : ٧٦) .

(١) سورة الأنعام : ١٠١/٦ . تمامها : ﴿ وخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ ﴾ .

(٢) ينظر كتاب (تفسير سورة الإخلاص) لابن تيمية ، فقد عقد فيه فصلاً للرَّدِّ على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وصدوره عن علّة موجبة ، وتولد الخلق من ذاته واستحالة ذلك . وكذلك خصَّص فصلاً في كتابه (النُّبوات) للحديث عن بطلان هذا الزعم وردّه بأبلغ الحجج والبراهين .

فخواصُّ النَّصارى في حَيْرَةٍ وضَلالٍ ، وعوامُّهم لا يستنكِفونَ أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول ، تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيراً[1] ، والقومُ في هذا المذهب الخبيث أضلُّ خَلْقِ الله ، فهم كما وصفهم الله بأنهم قد ضَلُّوا من قبلُ وأضلُّوا كثيراً وضَلُّوا عن سَواء السَّبيل[2] .

وأما منافاةُ عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهمٍ خاص ، وتقريرُه أن يقال : لو كان معه ولد لعلِمَه لأنه بكلِّ شيء عليم ، وهو تعالى لا يَعلم له ولداً فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه ، وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه ؛ إذ لو كان[3] لعلمه ، فحيثُ لم يعلمه فهو غيرُ كائن .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ويَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنْفَعُهُم ﴾[4] الآية ، فهذا نفي لما ادَّعوه من الشفعاء بنفي علم الرَّب تعالى بهم المستلزم لنفي المعلوم ، ولا يمكن أعداء الله المكابرة وأن يقولوا : قد علم الله وجودَ ذلك لأنه تعالى إنما يعلم وجودَ ما أوجدَه وكوَّنَهُ ويعلم أنه سيُوجِدُ ما يريد إيجاده ، فهو يعلم نفسَه وصفاتِه ويعلمُ مخلوقاتِه التي دخلت في الوجود وانقطعت والتي دخلت في الوجود وبقيت ، والتي لم تُوجَد بعدُ . وأمّا شيء آخر غيرُ مخلوق له ولا مربوب فالرَّبُّ تعالى لا يعلمه لأنه مستحيل في نفسه فهو يعلمه مستحيلاً ، لا يعلمه واقعاً إذ لو علمه واقعاً لكان العلم به عين الجهل وذلك من أعظم المحال .

---

(١) من حكمة الله سبحانه أن نزَّه نفسه تعالى عن كل هذه الأقاويل ، وجاءت خاتمة الآيات في مثل هذه الادّعاءات بقوله : ﴿ سُبحانَهُ وتَعالى عَمَّا يَصِفونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠/٦] ، وقوله : ﴿ سُبْحانَهُ وتَعَالَى عَمّا يُشْرِكونَ ﴾ [يونُس : ١٨/١٠] ، ﴿ سُبْحانَهُ وتَعالَى عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ﴾ [الإسراء : ٤٣/١٧] .

(٢) الآية : ﴿ ولا تَتَّبِعوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثيراً وضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧/٥] .

(٣) كان هنا فعل تام بمعنى حدث وتمَّ ووجد .

(٤) سورة يونُس : ١٨/١٠ .

فهذه حُجَج الرَّبِّ تبارك وتعالى على بطلان ما نسبه إليه أعداؤه المفترون عليه ، فوازِنْ بينَها وبين حُجَج المتكلِّمين الطويلة العريضة التي هي كالضَّريع[1] الذي لا يُسْمِن ولا يُغْني من جوعٍ ، فإذا وازنتَ بينهما ظهرت لك المفاضلة إن كنت بصيراً ﴿ ومَنْ كانَ في هَذهِ أعْمَى فَهُوَ في الآخِرَةِ أعْمَى وأضَلُّ سَبيلاً ﴾[2] .

فالحمدُ لله الذي أغنى عبادَه المؤمنين بكتابه وما أودعه مِنْ حُجَجه وبَيِّناتِه عَنْ شَقاشِقِ المتكلمين[3] وهَذَيانات المتهوِّكين[4] ، فلقد عظُمَت نعمة الله على عبدٍ أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿ أوَلَمْ يَكْفِهم أنّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إنَّ في ذلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤمِنونَ ﴾[5] .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقالوا كُونُوا هُوداً أو نَصَارى تَهْتَدوا ﴾[6] ، فأجيبوا عن هذه الدَّعوى بقوله : ﴿ قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وما كانَ مِنَ الْمُشْرِكينَ ﴾[7] . وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمَّن المنع والمعارضة ، أما المنع فما تضمنه حرف ﴿ بل ﴾ من الإضراب ؛ أي ليس الأمر كما قالوا . وأما المعارضة ففي قوله : ﴿ مِلَّةَ إبْراهيمَ

---

(١) الضريع : هو نبت له شوك كبار يُقال له الشِّبْرِق ، وقيل هو نبات منتن يرمي به البحر ، وقد جاء في التنزيل على طعام أهل النار . (المخصص لابن سيده : ١٧٢/١١) .

(٢) سورة الإسراء : ٧٢/١٧ .

(٣) الشقشقة في الأصل لهاةُ البعير ، وقيل هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج ، والجمع الشقاشق ، ومنه سمي الخطباء شقاشق ، شبّهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر ، وفي حديث علي رضي الله عنه : « إنَّ كثيراً من الْخُطَب من شقاشق الشيطان » (لسان العرب : شقق) .

(٤) الهَذيان : كلام غير معقول ، مثل كلام الْمَعْتوه .
والتَّهوُّك : التَّحيُّر ، وفي الحديث : « أمُتَهوِّكونَ أنتم كما تَهَوَّكَتِ اليَهودُ والنَّصارى ؟ » ، قال الحسن : معناه متحيِّرون .

(٥) سورة العنكبوت : ٥١/٢٩ .

(٦) سورة البقرة : ١٣٥/٢ .

(٧) سورة البقرة : ١٣٥/٢ .

حَنيفاً ﴾ أي أتتبَّعُ أو يتبعوا مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً ، وفي ضمن هذه المعارضة إقامةُ الحجّة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنَّصرانية ؛ لأنه وصف صاحب الملَّة بأنه حنيفٌ غيرُ مشرك ، ومن كانت مِلَّته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يُتَّبَع ممن ملَّته اليهوديّة والنصرانيّة ، فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه[1] ، وهو الفِطْرَةُ التي فَطَرَ الله عليها عبادَه ، فمن كان عليها فهو الْمُهْتَدي ؛ لأن من كان يهوديّاً أو نَصْرانيّاً فإن الحنيفية تَتَضمَّن الإقبالَ على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذُّل . والتوحيدُ يتضمن إفرادَه بهذا الإقبال دونَ غيرِه فيُعْبَدُ وحدَه ويُحَبُّ وحدَه ويُطاعُ وحدَه ، ولا يجعل معه إلهاً آخر ، فمن أولى بالهداية صاحبُ هذه المِلّة أو ملَّةُ اليهوديّة والنَّصرانيّة ؟ ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلاَّ سؤالٌ واحدٌ ، وهو أن يقولوا : فنحنُ على مِلَّتِه أيضاً لم نَخرُجْ عنها ، وإبراهيمُ وبنوه كانوا هوداً أو نصارى ، فأُجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه ، وأنَّ الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، فقال تعالى : ﴿ أمْ يَقولونَ إنَّ إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ والأسْباطَ كانوا هُوداً أو نَصارى ﴾ الآية[2] .

وقرَّر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهودِيّاً ولا نَصْرانِيّاً ﴾[3] إلى قوله : ﴿ واللهُ وَلِيُّ المؤمِنينَ ﴾ ، فإن قالوا : فَهَبْ أنَّ إبراهيمَ لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً فنحن على مِلَّته ، وإن انتحلنا هذا الاسم ، فأُجيبوا عن هذا بقوله تعالى : ﴿ قولوا آمَنّا باللهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ ﴾[4]، فهذه

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥/٣] .

(٢) سورة البقرة : ١٤٠/٢ . والأسباط ج سِبط : ولد الولد . والسبط أيضاً الفريق من اليهود . (المصباح المنير) .

(٣) تتمة الآية : ﴿ ولكِنْ كانَ حَنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المُشْرِكينَ ، إنَّ أوْلى النّاسِ بِإبْراهيمَ لَلَّذينَ اتَّبَعوهُ وهذا النَّبِيُّ والَّذينَ آمَنوا ، واللهُ وَلِيُّ المُؤمِنينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧/٣ـ٦٨] .

(٤) ﴿ قولوا آمَنّا بِاللهِ وما أُنزِلَ إلَيْنا وما أُنْزِلَ إلى إبْراهيمَ وإسْماعيلَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ والأسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنهُم ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦/٢] .

للمؤمنين . ثم قال : ﴿ فَإِن آمَنوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾[1] ، وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم على ملّة إبراهيم ، وهم مهتدون ، وإن لم يأتوا بإيمانٍ مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيمَ ومِلّته في شيء ، وإنما هم في شقاق وعَداوةٍ ، فإنَّ مِلّة إبراهيمَ الإيمانُ بالله وكتبه ورسله ، وأنْ لا يفرق بين أحدٍ[2] منهم ، فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم ، فمن لم يأتِ بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملّة إبراهيم ، مشاقٌّ لِمَنْ هو على مِلّته . وقوله تعالى : ﴿ قُل ءأنْتُم أعْلَمُ أمِ اللهُ ﴾[3] ، أي الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل ، وأنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، فالله تعالى يعلم ذلك فلو كانوا يهوداً أو نصارى ، واللهُ تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم ، هذا مع أن عندكم شهادةً وبيِّنَةً من الله بما كان عليه إبراهيم ، وبأنَّ هذا النَّبيَّ على مِلّته ، ولكنَّكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعِكم فلم تؤدُّوها إليهم مع تَحَقُّقِكم لها ، ولا أظلم ممن[4] كتم شهادةً استشهده الله بها فهي عنده من الله إلاَّ أنَّه كَتَمَها من الله ، فالمجرور متعلّق بما تضمنه الظرف الذي هو (عنده) من الكَوْن والْحُصول[5] .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٧/٢ .

(٢) وكذلك هي مذهب الأنبياء الكرام جميعهم والمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ والْمُؤمِنونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ ومَلائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم ﴾ الآية [البقرة : ٢٨٥/٢] .

(٣) سورة البقرة : ١٤٠/٢ .

(٤) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٤٠/٢] .
قال الزمخشري : أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية . (الكشاف : ٣١٦/١) .

(٥) مِنْ في قوله : ﴿ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ مثلها في قولك : هذه شهادة منّي لفلان إذا شهدت له ، ومثله ﴿ بَراءَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ ﴾ ، ويحتمل أن تكون (من) متعلقة بـ (كتم) ، أي كتم من عباد الله شهادةً عنده . (ينظر البحر المحيط : ٥٨٨/١ ، ط . دار الكتب) .

فصل

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقولُ السُّفَهاءُ ﴾ إلى قوله : ﴿ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾[(١)] ، هذا سؤال من السفهاء أوردوه على المؤمنين ، ومضمونُه أن القبلة الأولى إن كانت حقّاً فقد تركتم الحقَّ ، وإنْ كانت باطلاً فقد كنتم على باطلٍ[(٢)] ، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا فالسفهاء المجادِلون في القِبلة قالوه[(٣)] ، فأجاب الله تعالى عنه بجوابٍ شافٍ بعد أن ذكر قَبْلَهُ مُقدِّماتٍ تقرِّره وتوضِّحه ، والسؤالُ من جهة الكفّار أوردوه على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد ، فقالوا ماتقدَّم ، وقالوا لو كان نبيّاً ماترك قِبلَةَ الأنبياء قبْلَه ، وقالوا : لو كان نبيّاً ما كان يفعلُ اليومَ شيئاً وغداً خلافَه ، وقال المشركون : قد رجع إلى قبلتِكُم فيوشِكُ أن يرجع إلى دينكم ، وقال أهل الكتاب : لو كان نبيّاً ما فارق قِبلةَ الأنبياء ، وكثر الكلام وعظُمت المحنة على بعضِ الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ كانَتْ لَكَبيرَةً إلاّ على الَّذينَ هَدَى اللهُ ﴾[(٤)] .

وتأمَّل حكمة العزيز الحكيم ولُطفَه وإرشادَه في هذه القصة لما علم أنَّ هذا التحويلَ أمرٌ كبير كيف وطَّأه ومهَّده وذلَّله بقواعدَ قبله ؛ فذكر النسخ[(٥)] وأنَّه إذا نسخَ شيئاً أتى بمثله أو خيرٍ منه[(٦)] ، وأنه قادر على ذلك فلا يُعجزُه ، ثم قرر التَّسليمَ للرسول وأنه

---

(١) ﴿ سَيَقولُ السُّفَهاءُ مِنَ النّاسِ ما وَلاّهُم عَنْ قِبْلَتِهِمُ الّتي كانوا عَلَيها ، قُلْ للهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ [البقرة : ١٤٢/٢] .

(٢) حاصل ذلك أنَّ النَّبي ﷺ كان يستقبل الكعبة في صلاته وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر باستقبال بيت المقدس ، فأنزل الله هذه الآية ليعلمه بأنه سيحوّله للكعبة فيُعتَرَضُ عليه وليكون معجزةً له من حيث إخباره بالمغيبات ، ثم نزل آية تحويل القبلة . (حاشية الصاوي : ١٣٢/١ـ١٣٣) .

(٣) وهم اليهود والمشركون .

(٤) سورة البقرة : ١٤٣/٢ .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِن آيَةٍ أوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنها أو مِثْلِها ، أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦/٢] . وقد أفرد العلماء والمفسرون مؤلفات خاصة حول موضوع النَّسخ في القرآن الكريم . انظر كتاب جمال القرّاء للسَّخاوي : ٢٤٥/١ ، حاشية ١ .

(٦) قال ابن القيِّم في تحقيق معاني النسخ مانصُّه : « جَعَل سبحانَه أحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان

لا ينبغي أن يُعترَضَ عليه[١] ويُسألَ تعنُّتاً[٢] كما جرى لموسى مع قومه ، ثم ذكر البيتَ الحرامَ وتعظيمَه وحرمتَه وذكر بانيه ، وأثنى عليه وأوجب اتِّباع مِلَّتِه ، فقرَّر في النفوس بذلك توجُّهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة ، وإلى بانيه بالاتِّباع والموالاة والموافقة ، وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابةً للناس[٣] يثوبون إليه ولا يقضون منه وَطَراً ، فالقلوبُ عاكفةٌ على محبَّته[٤] ، دائمة الاشتياق إليه متوجهةٌ إليه حيث كانت ، ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلِّين[٥] ، وأضافه إليه بقوله : ﴿ أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ ﴾ وهذه الإضافة[٦] هي التي أسكنَتْ في القلوب من محبته

= بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات ... والنَّسخ هاهنا رَفْعُ ماألقاه الشيطان ، لا رفعُ ماشرَعه الرَّبُّ سبحانه . وللنَّسخ معنى آخر وهو النسح من أفهام المخاطبين مافهموه مِمَّا لم يردْه ولا دلَّ اللفظ عليه ، وإن أوهمه كما أطلق الصحابة النسخ على قوله : ﴿ وإن تُبْدوا ما في أنفُسِكُم أو تُخْفوهُ يُحاسِبْكُم به اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤/٢] ، قالوا : نسخها قولُه : ﴿ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسينا أو أخْطَأنا ﴾ الآية . فهذا نسخ من الفهم لا نسخ للحكم الثابت ... وللنسخ معنى ثالث عند الصحابة والتابعين ، وهو ترك الظاهر إما بتخصيص عام أو بتقييد مطلق ، وهذا كثيرٌ في كلامهم جداً ، وله معنى رابع ، وهو الذي يعرفه المتأخرون ، وعليه اصطلحوا وهو رفع الحكم بجملته بعد ثبوته بدليل رافعٍ له . (شفاء العليل : ١٩٢ـ١٩٣) ، وانظر (روح المعاني للألوسي : ٣٥١/١ـ٣٥٣) .

(١) في قوله تعالى : ﴿ أمْ تُريدونَ أنْ تَسْألوا رَسُولَكُم كَما سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ [البقرة : ١٠٨/٢] . وهو قولهم : ﴿ أرِنا اللهَ جَهْرَةً ﴾ وقولهم : ﴿ اُدْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ ﴾ ، وقولهم : ﴿ اجْعَلْ لَنا إلهاً كما لَهُم آلِهَةٌ ﴾ ، ونحو ذلك .

(٢) العَنتُ والتَّعنُّت : المشقة . وتعنته أدخل عليه الأذى ، وأعنَتَهُ : أوقعه في العنت وفيما يشق عليه تحمله . (المصباح المنير : عنت) .

(٣) وذلك قوله تعالى : ﴿ وإذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً لِلنّاسِ وأمْناً ، واتَّخذوا مِنْ مَقامِ إبْراهيمَ مُصَلَّى ﴾ [البقرة : ١٢٥/٢] . وانظر روح المعاني : ٣٧٨/١ .

(٤) ورد أنه ينزل من السماء مئةٌ وعشرون رحمةً ، على البيت ؛ ستون للطائفين ، وأربعون للمصلِّين ، وعشرون للناظرين .

(٥) وذلك قوله : ﴿ وعَهِدْنا إلى إبْراهيمَ وإسْماعيلَ أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ للطّائفينَ والعاكِفينَ والرُّكَّعِ السُّجودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥/٢] .

(٦) هذه الإضافة للتشريف ، لا أنَّه مكان له ، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً . (روح المعاني : ٣٨١/١) .

والشوق إليه ماأسكنَتْ ، وهي التي أقبلت بأفئدةِ العالَم إليه ، فلما استقرَّت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذُكِّروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة ، ولكن توقَّفت على ورود الأمر من ربِّ البيت ، فلما بَرَزَ مرسوم ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ﴾[1] ، تلقَّاه رسول الله ﷺ والراسخون في الإيمان بالبشرى والقَبول ، وكان عيداً عندهم[2] ، لأن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يقلِّبُ وجهَهُ في السماء ينتظر أن يُحوِّله اللهُ عن قِبلة أهل الكتاب ، فولاّه الله القِبلةَ التي يرضاها ، وتَلَقَّى ذلك الكفَّارُ بالمعارضة وذكرِ الشُّبهاتِ الداحِضَة ، وتلقَّاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقَّة ، فذكر تعالى أصنافَ الناسِ عند الأمر باستقبال الكعبة وابتدأ ذلك بالتَّسْلية لرسوله وللمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس فلا تعبؤوا بقولهم ، فإنه قولٌ سفيه ، ثم قال : ﴿ قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾[3] .

فأخبرَ تَعالى أنَّ المشرق والمغرب له ، وأنه ربُّ ذلك ، فأينما تُعبدُ له عبادةٌ بأمره ، إلى أيِّ جهةٍ كانت فهم مُطيعون له ، كما قال : ﴿ ولله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فَأينَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾[4] ، فلمْ يُصَلِّ مُستقبِل الجهات بأمرِهِ إلاّ لهُ تعالى ، فإذا كنتم تُصلُّون إلى غير الكعبة بأمره ثم أمركم أن تُصلُّوا إليها فما صَلَّيْتم إلاَّ له أولاً وآخراً ، وكنتم على حقٍّ في الاستقبال الأول والآخر ؛ لأنَّ كليهما كان بأمره ورضاه ، فانتقلتم من رِضاه إلى رِضاه ، ثم نبَّه على فَضْلِ الجهةِ التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانياً بأنه يَهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم ، كما هداكم للقِبلة التي جعلها قبلَتكم وشرَّعها لكم ورضيها ، ولكنْ أمركم باستقبال غيرِها أولاً لحكمةٍ له في ذلك ، وهو أن يعلم سبحانه مَنْ يَتَّبِعُ الرسولَ ويدورُ معه حيثما

---

(١) سورة البقرة : ٢/١٤٤ .

(٢) كان عيداً لهم حتى صار فضل من صلّى مع النبي للقبلتين أعظم ممن أتى بعد ذلك . قال صاحب الجوهرة : والسّابقون فَضْلُهُم نَصّاً عُرِفْ . (شرح الصاوي : ٢٢٤) .

(٣) سورة البقرة : ٢/١٤٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢/١١٥ .

دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت[1] ، وهو العالم بكل شيء ، ولكنْ شاءَ أن يعلم معلومه الغيبي عِياناً مُشاهَداً فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلِّم للرسول المنقاد له ممن يعبدُ اللهَ على حرف[2] ، فينقلبُ على عقبه بأدنى شبهة . فهذا مِنْ بعض حِكَمِه في أن جعل القِبلة الأولى غيرَ الكعبة فلم يُشَرِّع ذلك سُدىً ولا عبثاً ، ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسَطَ الجهاتِ قِبلةً بتعبُّدهم فكذلك جعلهم أمةً وَسَطاً ، فاختار القِبلة الوَسَط في الجهاتِ للأمة الوسط في الأُمم ، ثم ذكر أنَّ هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأُمم فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة[3] .

ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون من صلاتهم إلى القبلة الأولى وصلاة مَنْ مات من إخوانهم قبل التحويل ، فقال : ﴿ ومَا كانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانَكُم ﴾[4] ، وفيه قولان : أحدُهما ما كان ليضيع صلاتَكم إلى بيت المقدس ، بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه . والثاني ما كان ليضيع إيمانكم بالقِبْلَة الأولى وتصديقكم بأن الله شَرَعها ورضيها . وأكثر السَّلَف والْخَلَف على القول الأول ، وهو مستلزم للقول الآخر[5] ، ثم ذكر مِنَّتَه على رسوله واطِّلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى فقال : ﴿ قَد نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرام وحَيْثُما كُنْتُم فَوَلُّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ ﴾[6] ، ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحقُّ من

---

(١) وذلك قوله : ﴿ وما جَعَلْنا القِبْلَةَ الَّتي كُنْتَ عليها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسولَ مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] .

(٢) كقوله تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يَعبُد اللهَ على حَرْفٍ ، فإن أصابَهُ خَيرٌ اطمَأَنَّ بِهِ ، وإن أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ على عَقِبَيْهِ ، خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةِ ذلكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبينُ ﴾ [الحج : ١١/٢٢] .

(٣) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وكَذلكَ جَعَلْناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النّاسِ ، ويَكونَ الرَّسولُ عَلَيْكُم شَهيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] . وانظر فتح القدير للشوكاني : ١٧٦/١ .

(٤) سورة البقرة : ١٤٣/٢ . وفي الصحيح أنَّه لما وُجِّهَ رسول الله ﷺ إلى القبلة قالوا : يا رسول الله ، فكيف بالذين ماتوا وهم يُصَلُّونَ إلى بيت المقدس . فنزلت الآية .

(٥) انظر تفسير روح المعاني للألوسي : ٧/٢ .

(٦) سورة البقرة : ١٤٤/٢ .

ربِّهم[١] ، ولم يـذكر للضمير مُفَسِّراً غيرَ مـا في السيـاق[٢] ، وهو الأمر بـاستقبـال المسجـد الحرام ، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بنـاه إبراهيم في صلاته ، ثم أخبر تعالى عن شِدَّة كفر أهل الكتـاب بـأنهم لوأتـاهم الرسول بكل آيـة مـا تبعـوا قبلتـه[٣] ، ففي ذلـك التسليـة لهم وتركُهم وقبلَتَهم ، ثم برَّأه من قبلتهم فقال : ﴿ ومـا أنتَ بتـابعٍ قِبلَتَهُم ﴾[٤] ، ثم ذكر اختلافهم في القِبْلَـة ، وأنَّ كل طـائفـة منهم لا تتبع قبلة الطائفـة الأخرى ؛ لأن القِبلَـةَ من خواصِّ الـدِّين وأعلامـه وشعـائرهِ الظاهرة،فأهل كل دين لا يفارقون قِبلتهم إلاَّ أن يُفارِقوا دينَهم ، فأخبر تعـالى في هـذه الجمل الثـلاث بثـلاث إخبـاراتٍ تتضمن براءة كلّ طـائفـة من قبلـة الطـائفـة الأخرى ، وتتضمن الإخبـار بـأنَّ أهل الكتـاب لو رأوا كلَّ آيـة تـدلُّ على صـدق الرسول لمـا تبعـوا قِبْلَتَه ، عِناداً وتقليـداً لآبـائهم ، وأنهم وإن اشتركوا في خِلاف القِبلـة الحقِّ فهم مختلفون في باطلهم ، فلا تتبعُ طائفةٌ قِبلةَ الأخرى ، فهم متفقون على خلاف الحق ، مختلفون في اختيار الباطل .

وفي هـذه الآيـة أيضـاً تثبيتٌ للرسـول ﷺ والمؤمنين على لـزوم قبلتهم ، وأنـه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتـاب[٥] : ارجعُوا إلى قبلَتنـا فنتبعكم على دينكم ، فـإن هـذا خِداعٌ ومَكْرٌ منهم ، فإنهم لو رأوا كلَّ آية تدل على صِدْقكَ مـا تبِعوا قبْلَتَـك ؛ لأنَّ الكفر

---

(١) في قولـه تعـالى : ﴿ وإنَّ الَّـذينَ أُوتوا الكِتـابَ لَيَعْلَمـونَ أنَّـهُ الْحَـقُّ مِن رَبِّهم ، ومـا اللهُ بغـافـلٍ عمَّـا يَعْمَلونَ ﴾ .

(٢) المقصود الضمير في أنَّـه . أي التحويل أو التوجـه المفهـوم من التـوليـة . (الآلـوسي : ١٠/٢ ، القرطبي : ١٦١/٢) .

(٣) وذلك قوله : ﴿ ولَئِنْ أتَيْتَ الَّذين أُوتوا الكِتابَ بِكُلِّ آيةٍ ما تَبِعوا قبْلَتَكَ ﴾ [البقرة : ١٤٥/٢] .

(٤) سورة البقرة : ١٤٥/٢ .

(٥) قالوا : يا محمد ، عُدْ إلى قِبلَتِنا ونؤمنْ لكَ ونتَّبِعْكَ ، مُخادَعةً منهم ، لَعَنَهُمُ اللهُ تعـالى . (روح المعـاني : ١١/٢) .

قـد تمكَّنَ من قلوبهم ، فلا مطمَع للحقِّ فيها ، ولستَ أيضاً بتـابعٍ قبلتَهم ، فليقطعـوا مطـامعَهم منْ موافقتـك لهم وعودِك إلى قِبلتهم ، وكـذلـك هم أيضاً مختلفـون فيا بينهم فلا يتبعُ أحدٌ منهم قِبلـةَ الآخر ، فهم مختلفون في القبلـة . ولستم أيهـا المؤمنون موافقين لأحدٍ منهم في قبلته ، بل أكرمكم الله بقبلةٍ غير قبلـةِ هؤلاء المختلفين ، اختـارَهـا الله لكم ورضيَها ، وأكَّدَ تعالى هذا المعنى بقوله : ﴿ ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُم مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظَّالمينَ ﴾[(١)] ، فهـذا كلُّه تثبيتٌ وتحذيرٌ من موافقتهم في القِبلـة وبراءةٌ من قبلتهم كما هم بُرآء من قبلتـك ، وكما بعضهم بريء من قبلـة بعض ، فـأنتم أيهـا المؤمنون أولى بالبراءة من قِبلَتِهِم التي أكرَمَكم الله بالتحويل عنها ، ثم أكَّد ذلـك بقولـه : ﴿ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرينَ ﴾[(٢)] .

ثم أخبرَ تعـالى عن اختصـاص كلِّ أمـةٍ بقبلتهم فقـال : ﴿ ولِكُلٍّ وِجْهَـةٌ هُـوَ مُوَلِّيها ﴾[(٣)] ، وأصحُّ القولين[(٤)] أن المعنى هو مُتَوَجِّـهٌ إليهـا أي موليهـا وجهَـه ، فـالضمير راجع إلى (كل) ، وقيل إلى الله ، أي الله موليهـا إيَّـاه ، وليس بشيء ؛ لأنَّ الله لم يُوَلِّ القبلة الباطلة أبداً[(٥)] ، ولا أمرَ النَّصارى باستقبال الشرق قطُّ ، بل هم تَوَلَّوا هذه القِبلـة

---

(١) سورة البقرة : ١٤٥/٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٧/٢ . والمِرْيَـة : الشَّـكُّ .. وليس المرادُ نهي الرسـول ﷺ عن ذلـك ؛ لأن النهي من شيء يقتضي وقوعـه أو ترقبـه من المنهي عنـه ، وذلـك غير متوقـع من سـاحـة حضرة الرسـالـة ﷺ ، فلا فائدة في نهيه ، ولأن المكلَّف به يجب أن يكون اختيارياً ، وليس الشَّـكُّ والتَّردُّد مما يحصل بقصدٍ واختيارٍ ، بل المراد إمـا تحقيق الأمر وأنـه بحيث لا يشـكُّ فيـه أحـدٌ ، كائنـاً مَنْ كان ، أو الأمر للأمـة بتحصيل المعارف المزيلة لما نهى عنه .. (روح المعاني : ١٤/٢ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٦٣/٢) .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨/٢ .

(٤) القول الأول معناه : لكل صاحب مِلَّـةٍ قبلـةٌ ، صـاحبُ القِبلـة مولهـا وجهَـهُ ، وهو قول الربيع وعطـاء وابن عباس . قال القرطبي : ويحتمل أن يكون (هو) ضمير اسم الله عزَّ وجلَّ ، وإن لم يجرِ له ذكر ؛ إذ معلوم أنَّ الله عزَّ وجلَّ فاعل ذلك ، والمعنى : لكل صاحب ملَّة قِبلةٌ اللهُ موليها إياه . (الجـامع لأحكام القرآن : ١٦٤/٢ ـ ١٦٥ ، تفسير روح المعاني : ١٤/٢) ، وقد ردَّه ابن القيِّم ولم يرتضه .

(٥) هكذا في المخطوط ، ولعلَّ الصواب أحداً .

مِنْ تلقاء أنفسهم وولُّوها وجوهَهُم ، وقوله : ﴿ فاسْتَبِقوا الْخَيراتِ ﴾[1] مُشعِرٌ بصحَّة هذا القول ؛ أي إذا كان أهلُ المِلَل[2] قد تَوَلَّوا الجهاتِ فاستبقوا أنتم الخيرات وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إيَّاه ولا تتوقفوا فيه ﴿ أينَما تَكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً ﴾[1] ؛ يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة ، كما تجتمعون من سائر الجهات إلى القِبلة التي تأمُّونَ ، فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يَؤُمُّه الخلائق .

وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُم شِرْعَةً ومِنهاجاً ، ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحِدَةً ولكِنْ لِيَبْلُوَكُم فيما آتاكُم فاستبِقوا الْخَيراتِ ﴾[3] ، وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم ، كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم . فقال : ﴿ ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فاسْتَبِقوا الْخَيراتِ أيْنَما تَكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً ﴾[4] ، وتحت هذا سرٌّ بديع يفهمه مَنْ يفهمه ، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقِبَل يكون أقربُها إلى الحق ما كانَ أدلَّ على الله وأوصل إليه ؛ لأنه كما أن مَرجِع الجميع إليه يوم القيامة وحدَه ، وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم ، فمرجعهم إلى ربٍّ واحدٍ وإلهٍ واحد ، فهكذا ينبغي أنْ يكونَ مَرَدُّ الجميع ورجوعُهم كلُّهم إليه وحدَهُ في الدنيا ، فلا يعبدون غيرَه ولا يدينون بغير دينه ؛ إذ هو إلهُهم الحقُّ في الدنيا والآخرة ، فإذا كان أكثرُ الناس قد أبى ذلك إلاَّ كُفوراً وذَهاباً في الطرق الباطلة وعبادةِ غيره ، وإنْ دانوا غيرَ دينه فاستبقُوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات ، وبادِروا إليها ، ولا تذهبوا مع الذين يُسارِعون في الباطل والكُفر .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨/٢ .
(٢) المِلَّة : الدين والشريعة .
(٣) سورة المائدة : ٤٨/٥ .
(٤) سورة البقرة : ١٤٨/٢ .

فتأمَّل هذا السِّرَّ البديع في السورتَيْن . وفي قوله : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم فيه تَخْتَلِفونَ ﴾[1] سِرٌّ آخر أيضاً ، وهو أن هذا الاختلاف دليلٌ على يوم الفصل ، وهو اليوم الذي يفصِل الله فيه بين الخلائق بيَّن لهم حقيقةَ ما اختلفوا فيه ، فنفسُ الاختلاف دليلٌ على يوم الفصل والبعث ، وقد أوضح ذلك قولُه تعالى في سورة النَّحل : ﴿ وأَقْسَموا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهم لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَموتُ ، بَلى وَعْداً عَلَيهِ حَقّاً ولكنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي يَخْتَلِفونَ فيهِ ولِيَعْلَمَ الَّذينَ كَفَروا أَنَّهُم كانوا كاذِبينَ ﴾[2] ، فذكر تعالى حكمتَيْن بالغتَيْن في بعثه الأمواتَ بعدما أماتهم ؛ إحداهُما أن يُبيِّنَ للناس الذي اختلفوا فيه ، وهذا بيان عِيانيّ[3] تشترك فيه الخلائقُ كلُّهم ، والذي حَصَلَ في الدنيا بيان إيماني اختصَّ به بعضهم .

الحكمة الثانية علم المبطِلُ بأنَّه كانَ كاذِباً ، وإن كانَ على باطِلٍ ، وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي .

فتأمَّل أسرارَ كلام الرَّبِّ تعالى وما تضمنته آياتُ الكتابِ المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنَّه كلام ربِّ العالمين والشاهدة لرسوله بأنه الصَّادق المصدوق ، وهذا كلُّه من مقتضى حكمته وحمده تعالى ، وهو معنى كونه خَلَقَ السموات والأرض وما بينهما بالحق ، ولم يخلق ذلك باطلاً بل خلقه خلقاً صادِراً عن الحق آيلاً إلى الحق مشتملاً على الحق[4] ، فالحقُّ سابقٌ لخلقها ، مقارِنٌ له غايةٌ له ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى[5] ، دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدَها ، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق

---

(١) تمام الآية : ﴿ ... إلى اللهِ مَرْجِعُكُم جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنْتُم فيهِ تَخْتَلِفونَ ﴾ [المائدة : ٥/٤٨] .

(٢) سورة النَّحل : ١٦/٣٨ ـ ٣٩ .

(٣) عايَن الشيء عِياناً رآهُ بعينِه .

(٤) انظر شفاء العليل لابن القيم ، الباب الحادي والعشرين : في تنزيه القضاء الإلهي عن الشَّر . ص ١٩٨ .

(٥) إن أصل الباء في اللغة الإلصاق ، وهو معنى لا يفارقها ، فلهذا اقتصر عليه سيبويه . مغني اللبيب : ١٣٧ .

والمقارن والغاية ، فالحقُّ السابقُ صدورُ ذلك عن علمه وحكمته ، فمصدرُ خلقه تعالى وأمره عَنْ كمال علمه وحكمته ، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ عَليمٍ ﴾ (١) ، فأخبر أنَّ مَصدر التَّلَقِّي عَنْ عِلم المتكلِّم وحكمته ، وما كان كذلك كان صدقاً وعدلاً وهدى وإرشاداً . وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالَتْ : ﴿ أألدُ وأنا عَجوزٌ عقيم (٢) . قالوا : كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إنَّهُ هُوَ الْحَكيمُ العَليمُ ﴾ (٣) ، وهذا راجع إلى قوله وخلقه ، وهو خلق الولد لها على الكبر .

وأما مقارَنَةُ الحقِّ لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت مِنَ الحِكَم والمصالح والمنافع والآيات الدّالّة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله ، وأنَّ لقاءَه حقٌّ لا ريبَ فيه ، ومَنْ نظر في الموجودات ببصيرةِ قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك ، بل شهادتُها أتمُّ مِنْ شهادةِ الخبرِ المجرَّد لأنها شهادة حال لا يقبل كذباً ، فلا يتأمَّلُ العاقل المستبصر مخلوقاً حقَّ تأمُّلِه إلاَّ وَجَدَه دالاًّ على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته وأسمائه ، وعلى صدق رسله وعلى أنَّ لقاءَه حقٌّ لا ريب فيه .

وهذه طريقة القرآن في إرشادِه الخلقَ إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنُّبوّات ؛ فمرةً يُخبرُ أنه لم يخلُقْ خَلْقَه باطلاً (٤) ولا عَبَثاً (٥) ، ومرةً يخبر أنه خلقهم بالحق (٦) ، ومرةً يخبرهم وينبههم على وجوه

(١) سورة النَّمل : ٦/٢٧ .

(٢) جمع ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ بين آيتين : ﴿ قالَت : يا وَيْلَتىٰ أألِدُ وأنا عَجوزٌ ﴾ [هود : ٧٢/١١] ، و ﴿ وقالَتْ عَجُوزٌ عَقيمٌ ﴾ [الذَّاريات : ٢٩/٥١] .

(٣) سورة الذَّاريات : ٣٠/٥١ .

(٤) كقوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ﴾ [ص : ٢٧/٣١] .

(٥) كقوله تعالى : ﴿ أفَحَسِبْتُم أنَّما خَلَقْناكُم عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : ١١٥/٢٣] .

(٦) كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرْضَ بالْحَقِّ ﴾ [العنكبوت : ٤٤/٢٩] . وانظر : [إبراهيم : ١٩ ، الحجر : ٨ و ٨٥ ، الرُّوم : ٨ ، الزمر : ٥ ، الدُّخان : ٣٩ ، الأحقاف : ٣ ، التَّغابن : ٣] .

الاعتبار[١] والاستدلال بها على صدق ما أخبَرَتْ بـه رسلُـه ، حتى يبين لهم أنَّ الرُّسُلَ إنمـا جاؤوهم بما يشاهدون أدلة صدقه ، وبمـا لوتـأمَّلوهُ لَرَأوه مركوزاً في فِطَرِهم ، مستقِرّاً في عقولهم ، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شـاهـد بمـا أخبرت بـه رسلـه عنـه ، من أسمائـه وصفاته وتوحيده ولقـائـه ووجود ملائكتـه . وهـذا بـاب عظيم من أبواب الإيمـان إنمـا يفتحه الله على مَنْ سَبَقَتْ له منه سابقةُ السعادة ، وهذا أشرف علم ينالـه العبـد في هـذه الدار .

وقد بَيَّنْتُ في موضعٍ آخَر أنَّ كلَّ حركة تُشاهَدُ على اختلاف أنواعهـا فهي دالّـة على التوحيد والنُّبوّات والمعادِ بطريقٍ سهلةٍ واضحة برهانية ؛ وكذلك ذكرتُ في رسـالـةٍ إلى بعض الأصحاب بدليلٍ واضحٍ أن الروح[٢] مركوزٌ في أصل فطرتهـا وخلقتهـا شهـادةُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وأنَّ محمّـداً عبـده ورسولـه ، وأن الإنسـانَ لواستقصى التفتيشَ لوجـد ذلـك مركـوزاً في نفس روحـه وذاتـه وفطرتـه ، فلـو تـأمَّـلَ العـاقِـلُ الرُّوحَ وحركَتَهـا فقـط لاستخرج منها الإيمانَ بالله وصفاتِه والشهادةَ بأنَّه لا إلهَ إلاّ هو ، والإيمان برُسلِه وملائكتِه ولقائهِ ، وإنما يُصَدِّق بهذا مَنْ أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه وانجابت عنه سحـائبُ غيبـه وانكشف عن قلبـه حجـاب ﴿ إنَّـا وَجَـدْنـا آبـاءَنـا على أُمَّـةٍ وإنّـا على آثـارِهم مُقْتَدونَ ﴾[٣] ، فهنالك يبدو له سِرٌّ طـالَ عنـه اكْتِتـامُـه ، ويَلوحُ لـهُ صَبـاحٌ هو لَيلُـه وظلامُه .

فقف الآن عنـد كل كلمـةٍ من قولـه تعـالى : ﴿ إنَّ في السَّموات[٤] والأرضِ لآيـاتٍ للمُؤمنينَ . وفي خَلْقِكم وما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوْقِنونَ . واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهـارِ وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأحْيا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهـا وتَصْريفِ الرِّيـاحِ آيـاتٌ

(١) كقوله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِروا يا أُولي الأبصارِ ﴾ [الحشر : ٢/٥٩] .

(٢) للمؤلف كتاب واسع سمّاه (الرّوح) ، وضمَّنه مثل هذه البراهين .

(٣) سورة الزُّخرف : ٢٢/٤٣ ، ومعنى (أُمّة) ها هنا الدِّين والطريقة .

(٤) في الأصل : إنَّ في خلق السموات .. وكذلك هي في المخطوط : ق/٢٦٩ ، والصواب ما أثبتّه .

لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ﴾[1] ، ثمَّ تأمَّلْ وَجْهَ كونِها آيةً ، وعلى ماذا جُعِلَت آيةً ، أعلى مطلوبٍ واحدٍ أم مطالبَ متعددةٍ ؟ وكذلك سائرُ ما في القرآن مِنْ هذا النَّمط ، كآخرِ آل عمران[2] ، وقوله في سورة الرُّوم : ﴿ ومِن آياتِهِ ﴾[3] إلى آخرها ، وقوله في سورة النَّمل : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذينَ اصْطَفى ﴾[4] ، إلى آخر الآيات ، وأضعافِ أضعافِ ذلك في القرآن ، وكقوله في سورة الذَّاريات : ﴿ وفي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنينَ . وفي أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرونَ ﴾[5] ، ﴿ وَكَأَيِّنِ مِنْ آيَةٍ في السَّمَواتِ والأَرْضِ يَمُرُّونَ عَليها وهُم عَنها مُعْرِضونَ ﴾[6] .

فهذا كلُّه مِنَ الحقِّ الذي خُلِقَتْ به السَّمواتُ والأرضُ وما بينهما ، وهو حقٌّ مُقارِنٌ لوجود هذه المخلوقات مسطُورٌ في صفحاتها يقرأه كلّ موفَّقٍ ، كاتبٍ وغيرِ كاتب كما قيل :

تأمَّلْ سُطورَ الكائناتِ فإنَّها ... مِنَ المَلأ الأعلى إليكَ رَسائلُ
وقد خُطَّ فيها لو تأمَّلْتَ خطَّها : ... ألاَ كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ[7]

---

(١) سورة الجاثية : ٣/٤٥ ـ ٥ .

(٢) الآيات من قوله تعالى : ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الأَلْبابِ ﴾ [١٩٠ وما بعدها] .

(٣) قوله تعالى : ﴿ ومِن آياتِهِ أنْ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ .. ومِن آياتِهِ أن خَلَقَ لَكُم مِن أنفُسِكُم أزواجاً .. ومِن آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ .. ومِن آياتِهِ مَنامُكُم بالليلِ والنَّهارِ .. ومِن آياتِهِ يُريكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً .. ومِن آياتِهِ أن تَقُومَ السَّماءُ والأرضُ بأمْرِهِ ﴾ [الآيات من : ٢٠ ـ ٢٥] .

(٤) سورة النَّمل : ٥٩/٢٧ .

(٥) سورة الذَّاريات : ٢٠/٥١ ـ ٢١ . وقد أبدع المؤلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبصِرونَ ﴾ في كتابه : التِّبيان في أقسام القرآن ، وجاء بفصول مهمة حول إعجاز القرآن في خلق الإنسان ، وهو جدير بالقراءة والاطّلاع .

(٦) سورة يوسُف : ١٠٥/١٢ .

(٧) الشعر لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الجليل الجعفري التونسي المتوفى سنة ثمانٍ وثلاثين وسبع مئة . ذكرها السيوطي في البغية : ٢٢٨/١ بلفظ : =

وأما الحقُّ الذي هو غاية خَلْقِها فهو غاية تُرادُ من العباد وغاية تراد بهم ؛ فالتي تُراد منهم أن يعرفوا اللهَ تعالى وصفاتِ كمالِه عزّ وجلّ ، وأن يعبدوه لا يُشْركوا به شيئاً ، فيكون هو وحدَه إلهَهم ومعبودَهم ومطاعَهم ومحبوبَهم ، قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَموات ومِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَموا أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللهَ قَد أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً ﴾[1] ، فأخبر أنه خلق العالَم ليعرف عبادُه كمالَ قدرَته وإحاطة علمه ، وذلك يستلزم معرفتَه ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده .

وقالَ تَعالى : ﴿ وما خَلَقْتَ الْجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدونِ ﴾[2] ، فهذه الغاية هي المرادَةُ من العباد ؛ وهي أن يعرفوا ربَّهم ويعبدوه وحدَه ، وأما الغاية المرادة بهم في الجزاء بالعدلِ والفضلِ والثوابِ والعقاب ، قال تعالى : ﴿ ولله ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذينَ أساؤا بِما عَمِلوا ويَجْزِيَ الَّذينَ أحْسَنوا بالْحُسْنى ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكادُ أُخْفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي يَخْتَلِفونَ فيهِ ولِيَعْلَمَ الَّذين كَفَروا أنَّهم كانوا كاذِبينَ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ في سِتَّةِ أيّامٍ ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ يُدَبِّرُ الأمْرَ مَا مِنْ شَفيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم فَاعْبُدوهُ أفَلا تَذَكَّرونَ .

= تأمَّلْ صُحَيْفاتِ الوُجودِ فإنَّها ... مِنَ الجانبِ السَّامي إلَيكَ رسائلُ
وقد خُطَّ فيها إن تأمَّلْتَ خطُّها : ... ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ

والشطر الأخير للشاعر لبيد ، وهي أصدق كلمة قالها شاعر ، كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ ، (صحيح البخاري ، باب الأدب ٩٠ . ديوان لبيد : ص ١٣١) .

(١) سورة الطّلاق : ١٢/٦٥ ـ ١٤ .

(٢) سورة الذّاريات : ٥٦/٥١ .

(٣) سورة النّجم : ٣١/٥٣ .

(٤) سورة طه : ١٥/٢٠ .

(٥) سورة النّحل : ٣٩/١٦ .

إليهِ مَرْجِعُكُم جَميعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إنَّه يَبْدؤا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ والَّذينَ كَفَروا لَهُم شَرابٌ مِن حَميمٍ وعَذابٌ أليمٌ بِما كانوا يَكْفُرونَ ﴾[١] .

فتأمَّل الآن كيف اشتمل خَلْقُ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما على الحقِّ أولاً وآخِراً ووَسَطاً ، وأنها خُلِقَتْ بالحقِّ ولِلْحَقِّ وشاهدة بالحق ، وقد أنكر تعالى على من زعم خِلافَ ذلك فقال : ﴿ أفَحَسِبْتُم أنَّما خَلَقْناكُم عَبَثاً وأنَّكُم إلَينا لا تُرْجَعونَ ﴾[٢] ، ثمَّ نزَّه نفسَه عن هذا الْحُسْبان الْمُضادِّ لحكمته وعلمه وحمده فقال : ﴿ فَتَعالى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إلهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَريمِ ﴾[٣] . وتأمَّل ما في هذين الاسمَيْن وهما الْمَلِكُ الحقُّ من إبطال هذا الْحُسبان الذي ظنه أعداؤه ، إذ هو منافٍ لكمال ملكه ولكونه الحق ، إذ الْمَلِكُ الحقُّ هو الذي يكون له الأمر والنهي ، فيتصرف في خلقه بقوله وأمره ، وهذا هو الفرق بين الْمَلِك والْمَالِك ، إذ المالك هو المتصرف بفعله ، والْمَلِكُ هو المتصرف بفعله وأمره ، والرَّبُّ تعالى مَالِكُ الْمُلكِ ، فهو المتصرِّفُ بفعلِه وأمره ، فمن ظَنَّ أنه خَلَق خلْقَه عَبَثاً لم يأمرهم ولم ينههم فقد طعن في ملكه ولم يقدِّرهُ حقَّ قدره ، كما قال تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إذْ قالوا ما أنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾[٤] ، فمن جَحَد شَرْعَ الله وأمره ونهيه وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طَعَن في مُلك الله ولم يقدره حقَّ قدره ، وكذلك كونه تعالى إلـه الخلق يقتضي كمالَ ذاته وصفاته وأسمائه ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمِّها ، فكما أنَّ ذاتَه الحقُّ فقوله الحقُّ ، ووعدُه الحقُّ ، وأمرُه الحقُّ ، وأفعالُه كلُّها حقٌّ ، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حقٌّ ، فمن أنكر

(١) سورة يونس : ١٠/٢ ـ ٤ .

(٢) سورة المؤمنين : ٢٣/١١٥ .

(٣) سورة المؤمنين : ٢٣/١١٦ .

(٤) سورة الأنعام : ٦/٩١ .

شيئاً من ذلك فما وصف الله بأنه الحقُّ المطلق من كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبار ، فكونه حقاً يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه . فكيف يُظَنُّ بالملكِ الحقِّ أن يخلق خلقه عَبَثاً وأن يتركهم سُدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾[1] ، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : مُهْمَلاً لا يُؤْمَرُ ولا يُنْهى . وقال غيره لا يُجزى بالخير والشَّرِّ ، ولا يُثابُ ولا يُعاقَب[2] ، والقولان متلازمان ؛ فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب ، وهو الأمر والنهي ، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب ، ثم تأمَّلْ قولَه تعالى بعد ذلك : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى . ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾[3] ، فمن لم يتركه وهو نطفةٌ سُدَى بل قبل النطفة وصرفها حتى صارت أكملَ مما هي ، وهي العلقة ثم قَلَب العلقة حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها فسوّى خلقها فدبَّرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها ، حتى انتهى كمالها بشراً سويّاً فكيف يتركُه سُدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خُلِقَ له ؟!

فإذا تأمَّل العاقل البصير أحوالَ النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلَّته على المعاد والنُّبوات ، كما تدلُّه على إثبات الصانع وتوحيده وصفاتِ كماله ، فكما تدلُّ أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه فكذلك تدلُّ على كمال حكمته وعلمه وملكه ، وأنه الملك الحق المتعالي عن أن يخلقها عبثاً ويتركها سُدى بعد كمال خلقها .

---

(١) سورة القيامة : ٣٦/٧٥ .

(٢) ذكر الطبري أنَّ تفسير ابن عباس لكلمة (سُدَى) بمعنى هَمَلاً ، وقال مجاهد : لا يؤمر ولا يُنهى ، وقال السُّدي : الذي لا يفترض عليه عمل ولا يعمل . وزاد القرطبي ، قيل : أيحسب أن يترك في قبره كذلك أبداً لا يبعث . قال الشاعر :

فأُقْسِمُ باللهِ جَهْدَ اليَمينِ ما تَرَكَ اللهُ شَيْئاً سُدى

(جامع البيان : ٢٠٠/٢٩ ، الجامع لأحكام القرآن : ١١٦/١٩) .

(٣) سورة القيامة : ٣٧/٧٥ ـ ٣٨ .

وتأمَّل كيف لَمّا زعم أعداؤه الكافرون أنّـه لم يـأمرهم ولم ينههم على ألسنـة رسلـه ، وأنـه لا يبعثهم للثواب والعقـاب كيف كان هـذا الـزعم منهم قـولاً بـأن خلـق السمـوات والأرض باطل ، فقال تعالى : ﴿ وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَروا فَوَيلٌ لِلَّذينَ كَفَروا مِنَ النّارِ ﴾[1] .

فلما ظنَّ أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولاً ، ولم يجعل لهم أجلاً للقائه كان ذلك ظنّاً منهم أنه خَلَقَ خَلْقَه باطِلاً ، ولهذا أثنى تعـالى على عبـاده المتفكرين في مخلوقـاتـه بـأنهم أوصلهم فكرهم فيهـا إلى شهـادتهم بـأنـه تعـالى لم يخلقهـا بـاطلاً ، وأنهم لمـا علموا ذلـك ، وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، فذكروا في دعائهم هـذين الأمرين فقالوا : ﴿ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَـذابَ النّـارِ . رَبَّنـا إنَّـكَ مَنْ تُـدْخِلِ النّـارَ فَقَـد أخْزَيْتَـهُ ومـا لِلظّـالِمينَ مِن أنصـارٍ ﴾[2] ، فلمـا علموا أنَّ خلـق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقـاب تعوّذوا بـالله من عقـابـه ، ثم ذكروا الإيمـان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض فقالوا : ﴿ رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنـا مُنـادِيـاً يُنـادي لـلإيمـانِ أنْ آمِنـوا بِرَبِّكُم فَـآمَنّـا ﴾[3] ، فكانت ثمرةُ فكرهم في خلـق السمـوات والأرض الإقرارَ به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسلـه وبثوابـه وعقـابـه ، فتوسَّلوا إليـه بإيمانهم الـذي هو من أعظم فضلـه عليهم إلى مغفرة ذنوبهم وتكفير سيـآتهم وإدخـالهم مع الأبرار إلى جنته التي وَعَدهموها ، وذلك تمام نعمته عليهم فتوسَّلوا بإنعامه عليهم أولاً إلى إنعامه عليهم آخراً ، وتلك وسيلة بطـاعتـه إلى كرامتـه ، وهو إحـدى الوسـائل إليـه ، وهي الوسيلـة التي أمرهم بهـا في قولـه : ﴿ يـا أيُّهـا الَّـذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وابْتَغـوا إلَيـهِ الوَسيلَةَ ﴾[4] ، وأخبر عن خاصة عبادة أنهم يبتغون الوسيلة إليـه[5] ، إذ يقول تعـالى :

(١) سورة ص : ٢٧/٣٨ ، وجاء في الأصل والمخطوط : السموات . والصواب ما أثبتُّه .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١/٣ ـ ١٩٢ .

(٣) سورة آل عمران : ١٩٣/٣ .

(٤) سورة المائدة : ٣٥/٥ .

(٥) من معاني الوسيلة : المسألةُ والقُرْبَة ، قال ابن زيد في قوله : ﴿ وابْتَغوا إليهِ الوَسيلَةَ ﴾ ، قال : المحبّة ، =

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذينَ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسيلَةَ أيُّهُم أقْرَبُ ﴾[1] ، على أنَّ في هاتين الآيتين أسراراً بديعة ذكرتها في كتاب (التُّحفة المكِّيَّة) في بيان المِلَّة الإبراهيمية ، فأثمر لهم فِكرُهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنها لم يخلقها باطلاً ، وأثمر لهم الإيمانَ بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه والتوسل إليه بطاعته والإيمان به . وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قَطرةٌ من بحرٍ لا ساحلَ له ، فلا تستطله ؛ فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كلَّ نفسٍ ، ولا يقبله كلُّ محروم ، والله يختصُّ برحمته من يشاء . ولنرجع إلى ما كنّا بصدده من الكلام في ذكر محاجّة أهلِ الباطل للمسلمين في القِبلة ونصْر اللهِ لهم بالحجَّة عليهم .

وقد رأيتُ لأبي القاسم السهيلي[2] في الكلام على هذه الآيات فصلاً أذكره بلفظه[3] :

قال في قول النَّبي ﷺ للبَراء بن معرور[4] : « قد كنتَ على قِبلةٍ لو صَبَرْتَ

= تحبَّبوا إلى الله . والوسيلة : درجةٌ في الجنّة ، وهي التي جاء في الحديث الصحيح بها في قوله عليه الصلاة والسلام : « فمن سأل لي الوسيلةَ حلّت له الشفاعة » .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الوسيلة الحاجة . ومن جملة ذلك : محبة أنبياء الله وأوليائه ، والصدقات ، وزيارة أحباب الله ، وكثرةُ الدُّعاء ، وصلة الرّحم وكثرة الذِّكر ، وغير ذلك ، فالمعنى كل ما يقرّبكم إلى الله فالزموه .

(انظر جامع البيان : ٢٢٦/٦ ـ ٢٢٧ ، الجامع لأحكام القرآن : ١٥٩/٦ ، روح المعاني : ١٢٤/٦ـ١٢٥ ، التفسير الكبير : ٢١٨/١١ـ٢١٩ ، حاشية الصاوي : ١٨٢/٢) .

(١) سورة الإسراء : ٥٧/١٧ .

(٢) السُّهَيْلي : أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن ابن الخطيب الإمام المشهور صاحب كتاب الروض الأُنُف في شرح سيرة رسول الله ﷺ ، ولد بمالَقة بالأندلس ، وتوفّي بمراكش سنة ٥٨١ هـ .

(٣) الروض الأُنُف : ٢٠٠/٢ ، فصل : البَراءُ بن معرور وصلاته إلى القبلة .

(٤) البَرَاءُ بن مَعْرُور الأنصاري الخزرجي ، كان من النفر الذين بايعوا البيعةَ الأولى بالعقبة ، وهو أول من بايع ، وأول من استقبل القبلة ، وأول من أوصى بثلث ماله ، وهو أحد النقباء . (الإصابة في تمييز الصحابة ، رقم الترجمة ٦٢٢ : ١٤٨/١ـ١٤٩) .

عليها ، يعني لَمّا صلّى إلى الكعبة قبل الأمر بالتَّوجُّه إليها ، ولم يـأمرْهُ بـالإعـادة لأنـه كان متأوِّلاً »[1] .

قلت : ونظير هذا أنه لم يأمر مَنْ أكل في نهار رمضانَ بالإعادة لَمَّـا رَبَـطَ الخِيطين في رجليه وأكل حتَّى تَبيَّنا له ، لأجلِ التأويل[2] .

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذرٍّ[3] بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابـة إذ لم يعرف شرع

---

(١) جاء في السِّيرة النَّبويّة ما نصُّه : « قال البراء بن معرور : يا نبيَّ اللهِ ؛ إني خرجت في سفري هذا ، وقـد هـداني ربي للإسـلام ، فرأيت أنْ لا أجعـل هـذه البنيـة (الكعبـة) منّي بطهر ، فصلَّيت إليهـا ، وقـد خالفني أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسي شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟ قال : قد كنت على قِبلـةٍ لو صبَرْتَ عليها ، قال : فرجع البراء إلى قِبلة رسول الله ﷺ وصلّى إلى الشّام » .

قال ابن هشام : وقال عونُ بنُ أيوب الأنصاري :

ومِنّـا المصلّي أولَ النّـاسِ مُقْبِـلاً على كعبـةِ الرّحمنِ بينَ الْمَشـاعرِ

يعني البراء بن مَعْرور .

قال السهيلي : فِقْهُ قوله : (لو صَبَرتَ عليها) : أنه لم يأمره بإعادة ما قد صلّى ؛ لأنه كان مُتَأوِّلاً .

(الرّوض الأنف : ١٨٨/٢ ، ٢٠٠ ، مسنـد الإمـام أحمـد : ٤٦١/٣ ، الطبراني في المعجم الكبير : ٨٧/١٩-٨٨) .

(٢) عن عديّ بن حاتم ، قال : أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَّمني الإسلام ، ونَعَتَ ليَ الصلوات ، كيف أُصلي كلَّ صلاة لوقتها ، ثم قـال : إذا جـاء رمضـان فكُـلْ واشْرَب ، حتى يتبيَّن لـك الخيـط الأبيض من الخيـط الأسود من الفجر ، ثم أتمّ الصِّيامَ إلى الليل ، ولم أدْرِ ما هو ؟ ففتلتُ خيطين من أبيض وأسود ، فنظرت فيهما عنـد الفجر ، فرأيتهما سواءً ، فـأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يـا رسـول الله كلُّ شيء أوصيتنى قـد حفِظْتُ ، غيرَ الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، قال : وما منعك يـا ابن حـاتم ؟ وتبسَّم وكأنـه قـد علم مـا فعلتُ ، قلت : فتلتُ خيطين من أبيض وأسود ، فنظرت فيهما من الليل فوجدتهما سواءً ، فضحـك رسول الله ﷺ حتى رؤي نواجـذُه ، ثم قـال : ألم أقل لـك : من الفجر ـ إنمـا هـو ضـوء النهـار وظلمـة الليل .

(جـامـع البيـان : ١٧٢/٢ ، الجـامـع لأحكام القرآن : ٣٢٠/٢ ، أحكام القرآن لابن العربي : ٩٢/١ ، وصحيح البخاري : كتاب الصوم ١٦) .

(٣) أبو ذرّ الغفاري الزّاهد المشهور الصادق اللّهجة (ترجمته في الإصابة : ٦٣/٢-٦٥ ، رقم ٣٨٤) .

التَّيمم لِلْجُنُبِ ، فقـال : يـا رسول الله إني تُصيبني الْجَنـابـة ، فـأمكث الشَّهرَ والشَّهرَيْن لا أُصلّي[1] ، يعني في البادية فقال : أين أنت عن التَّيمم ؟

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر الْمُسْتَحاضة بالإعادة[2] وقد قالت : إني أُستَحـاضُ حَيْضَـةً شديدة ، وقد منعَتْني الصوم والصلاة ، فأمرها أن تجلس أيام الحيض ثم تصلي ولم يأمرها بإعادة ما تركت[3] .

ونظيره أيضـاً أنـه لم يـأمر الْمُتَمَعِّـكِ في التراب[4] كما تتمعَّـك الـدّابـة لأجـل التَّيمُّم بالإعادة ، مع أنه لم يُصِبْ فرضَ التَّيمُّم .

---

(١) قـال أبـو ذرّ : كنتُ أعـزُبُ عن المـاء ومعي أهلي ، فتصيبني الْجَنـابـةُ ، فـأصلّي بغير طَهـور ، فـأتيت رسول الله ﷺ بنصف النهـار ، وهو في رهـط من أصحـابـه ، وهو في ظلّ المسجد ، فقـال : أبو ذر ؟ فقلت : نعم ، هَلَكْتُ يـا رسولَ الله ! قـال : ومـا أهلكَـكَ ؟ قلتُ : إني أعزُبُ عَن المـاء ومعي أهلي ، فتصيبني الْجَنابةُ ، فأصلّي بغير طَهور ؟ فأمر لي رسول الله ﷺ بماء ، فجاءت به جـاريـة سوداء بعسٍّ يتخضخض ، ما هو بملآن ، فتسترْتُ إلى بعيرٍ فاغتسلت ، ثم جئت ، فقال رسول الله ﷺ :
« يا أبا ذرّ ، إنّ الصّعيد الطَّيِّب طَهور ، وإنْ لم تَجِدِ المـاءَ إلى عَشْرِ سِنِيْنَ ، فـإذا وجَـدْتَ المـاءَ فـأمسَّـه جلدَك » (رواه النَّسائي ، وانظر مختصر سنن أبي داود : ٢٠٦/١ ، مراقي الفلاح : ١٦٠-١٦١) .

(٢) استفتت أمُّ سَلَمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ في امرأة تُهراق الدَّم فقال :
« لتنظر قدر الليالي والأيام التي كانت تحيضهن وقـدرهن من أشهر ، فتـدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستثفر ثم تصلي » (رواه الخمسة إلاّ الترمذي) .
وعن عائشة رضي الله عنها قالت : إن فاطمة بنت أبي حُبيش جاءت رسول الله ﷺ فقالت : إني امرأةٌ أُستحاض فلا أطهر ، أفأدع الصلاة ؟ قال : إنما ذلك عِرق وليست بحيضة ، فإذا أقبلت الحيضـة فـدعي الصلاة ، فإذا أدبرت فاغسلي عنك الدَّمَ ، ثم صَلّي » . (رواه البخاري في الحيض ، بـاب إقبـال الحيض وإدباره ، وأبو داود في الطهارة ، والتِّرمذي والنَّسائي وابن ماجه ، ومـالـك في الموطـأ ، وانظر غريب القرآن لابن قتيبـة : ٨٦ ، ولســان العرب : قرء ، والكافي لابن عبـد البر : ١٨٥/١ ، ونيـل الأوطـار للشوكاني : ٣١٤/١) .

(٣) في مراقي الفلاح ١٨٢ : « المستحاضة تتوضأ لوقتِ كلّ صلاة » ، رواه سبط ابن الجوزي عن أبي حنيفـة رحمه الله تعالى .

(٤) جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني أجنبت فلم أُصِبِ المـاءَ ، فقـال عمّـار بن يـاسر لعمر بن الخطّاب : « أما تـذكر أنّـا كنّـا في سَفرٍ أنـا وأنت ، فـأمـا أنت فلم تصلِّ ، وأمـا أنا فتمعَّكْتُ

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر معاوية بن الحكم السُّلمي[1] بإعادة الصَّلاة وقد تكلَّم فيها بكلامٍ أجنبي ليس من مصلحتِها .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المُسيءَ في صلاته[2] بإعادة ما تقدَّم له مِنَ الصَّلواتِ التي

= فصلَّيت ، فذكرت ذلك للنَّبي ﷺ ، فقال النَّبي ﷺ : إنما كان يكفيكَ هكذا ، فضرب النَّبي ﷺ بكفَّيْه الأرضَ ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه » . (رواه البخاري - كتاب التَّيمم - باب المتيم هل ينفخ فيهما ، وانظر عمدة القاري : ١٦/٤-١٩) ، ورواه مسلم بلفظ : « فتمرَّغْتَ في الصَّعيد كما تمرَّغ الدَّابة » .

(١) عن معاوية بن الحكم السُّلمي قال : صلَّيت مع رسول الله ﷺ ، فعطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ! فقلت : واثُكلَ أُمِّياه ! ما شأنكم تنظرون إليَّ ؟ قال : فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فعلمت أنهم يُصمتوني ، فلما رأيتهم يُسكتوني ، لكني سكتُّ ، فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ - بأبي وأمي - ما ضربني ، ولا كهرني ، ولا سبَّني ، ثم قال : « إنَّ هذه الصلاة لا يحلُّ فيها شيء من كلام الناس هذا ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ، أو كما قال رسول الله ﷺ » .

قال الخطابي : في هذا الحديث من الفقه ، أنَّ الكلام ناسياً في الصلاة لا يفسد الصلاة ، وذلك أنَّ النَّبي ﷺ علَّمه أحكام الصلاة وتحريم الكلام فيها ، ثم لم يأمره بإعادة الصلاة التي صلاَّها معه ، وقد كان تكلَّم بما تكلَّم .

وفي الحديث دليل على أن المصلِّي إذا عطس فشمَّته رجل فإنه لا يجيبه .

(الحديث رواه مسلم في المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، ورواه أبو داود في الصلاة ١٦٧ ، والنسائي في السهو ٢٠ ، وانظر معالم السُّنن للخطابي : ٤٣٥/١-٣٤٦ ، والجامع لأحكام القرآن : ٢١٥/٣ ، وانظر ترجمة معاوية في الإصابة رقم ٧٠٦٦) .

(٢) « عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ دخل المَسْجد فدخل رجلٌ فصلَّى ثم جاء فسَلَّم على رسول الله ﷺ ، فَرَدَّ رسول الله ﷺ السَّلامَ ، قال : ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّك لم تُصَلِّ ، فرجع الرَّجُل فصلَّى كما كان صلَّى ، ثم جاء إلى النَّبي ﷺ فسَلَّم عليه فقال رسول الله ﷺ : وعليك السلام ، ثم قال : ارجع فَصَلِّ فإنَّك لم تُصَلِّ ، حتى فعل ذلك ثلاثَ مراتٍ ، فقال الرجل : والذي بعثَكَ بالحقِّ ما أُحْسِنُ غيرَ هذا ؟! عَلِّمْني ، قال : إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر ، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعاً ثم ارفع حتى تعتدلَ قائماً ثم اسجُدْ حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئنَّ جالساً ثم افعل ذلك في صلاتك كلِّها » .

رواه مسلم في كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلِّ ركعة ، ورواه البخاري في كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم .

لم تكن صحيحة ، وإنما أمره بالإعادة في الوقت لأنه لم يؤدِّ فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدَّم له .

ونظيره أيضاً أنه لم يضمِّن أسامة[1] قتيلَه بعد إسلامه بقِصاصٍ ولا دِيَةٍ ولا كَفَّارة[2] . ولا تجد هذه النظائر مجموعةً في موضع فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق مَنع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين .

وقاعدة هذا الباب أنَّ الأحكام إنما تثبت في حقِّ العبد بعد بلوغه هو وبلوغِها إليه ، فكما لا يترتَّبُ في حقِّه قبلَ بلوغه هو فكذلك لا يترتَّبُ في حقِّه قبلَ بلوغها إليه ، وهذا مُجمَعٌ عليه في الحدود أنها لا تقام إلاَّ على مَنْ بَلَغَه تحريمُ أسبابها . وما ذكرناه من النظائر يدلُّ على ثبوت ذلك في العبادات والحدود[3] ، ويدلُّ عليه أيضاً في المعاملات قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وذَرُوا ما بقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ ﴾[4] ، فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الرِّبا ، وهو ما لم يُقبَض ، ولم يأمرهم بردِّ المقبوض ؛ لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرَّهم عليه ، بل أهل قُباء صَلُّوا إلى

---

(١) عن أسامة بن زيد قال : بعثَنا رسولُ الله ﷺ في سَرِيَّة فصبحنا الحُرَقات من جهينة (موضع) فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله فطعنته ، فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟! » ، قال : قلتُ يا رسول الله : إنما قالها خوفاً من السلاح ، قال : « أفلا شققتَ عن قلبه » . (رواه الإمام مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ، وانظر سنن أبي داود ـ كتاب الجهاد ٩٥ ، والدّر النَّضيد للشوكاني : ٢٢) .

(٢) ضمَّن المال : التزمه ، وغلب استعمال القصاص في قتل القاتل وجرح الجارح .
ومعنى الدِّية من دوى القاتل يديه دِيَةً إذا أعطى وليه المال الذي هو بدل النفس ، ثم سُمِّي ذلك المال دِيَةً تسمية بالمصدر .
أما الكفّارة فيقال : كفَّر الله عنه الذنب : محاه ، ومنه الكفَّارة ؛ لأنها تكفر الذنب .

(٣) انظر الموافقات للشاطبي : ٣٠٦/٣ ، الحظر والإباحة للشيباني : ص ٢٩١ ، الانتصاف لابن المنيِّر : ٤٤١/٢ ، أصول الدِّين للبغدادي : الأصل العاشر في معرفة أحكام التكليف والأمر ؛ الكافي لابن عبد البر : ٣٣١/١-٣٣٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٨/٢ .

القِبلة المنسوخة بعد بطلانها[1] ولم يعيدوا ما صلُّوا ، بل استداروا في صلاتهم وأتمُّوها ؛ لأن الحكم لم يثبت في حقِّهم إلاَّ بعد بلوغه إليهم .

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء ، وهي لأصحاب أحمد[2] . هذا أحدها ، وهو أصحُّها ، وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه[3] ، والثاني : أن الخطاب إذا بلغ طائفةً ترتَّبَ في حقِّ غيرهم ولزمهم كما لزم من بَلَغَه ، وهذا اختيار كثيرٍ من أصحاب الشافعي[4] وغيرِهم . الثالث : الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ ؛ فالخطاب الابتدائي يعمُّ ثبوتُه مَنْ بَلَغَه وغيرَه ، والخطابُ الناسخ لا يترتَّب في حقِّ المخاطب إلاَّ بعد بلوغه ، والفرق بين الخطابين أنَّه في الناسخ مستصحِبٌ لحكم مشروع مأمور به بخلاف الخطاب الابتدائي ، ذكره القاضي أبو يَعلى[5] في بعض كتبه ،

---

(١) روى أبو داود في سننه باب من صلّى لغير القبلة ثم عَلِم :
عن أنس : أن النَّبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلُّون نحو بيت المقدس ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : ١٤٤/٢] ، فمرَّ رجل من بني سَلَمة ، فناداهم ، وهم ركوع في صلاة الفجر نحو بيت المقدس : ألا إن القبلةَ قد حُوِّلَتْ إلى الكعبة ، مرّتين ، قال : فمالوا كما هم : ركوع إلى الكعبة . أخرجه مسلم بلفظ : فمالوا كما هم نحو القِبلة .
قال الخطابي : فيه من العلم أن ما مضى من صلاتهم كان جائزاً ، ولولا جوازه لم يجز البناء عليه ، وفيه دليل على أن كل شيء له أصل صحيح في التعبد ثم طرأ عليه الفساد قبل أن يعلم صاحبه به ، فإن الماضي منه صحيح . (معالم السُّنن : ٤٧٣/١ـ٤٧٤) .

(٢) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الله الشيباني ، إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة ، له المسند يحتوي على ٣٠,٠٠٠ حديث ، وله كتب (التاريخ) و (الناسخ والمنسوخ) و (التفسير) و (فضائل الصحابة) و (الزهد) وغيرها ، توفِّي سنة ٢٤١ هـ .

(٣) الإمام ابن تيميّة : أحمد بن عبد الحليم ، تقي الدِّين ، شيخ الإسلام ، كان كثير البحث في فنون الحكمة ، داعية إصلاح في الدين ، آية في التفاسير والأصول ، له تصانيف واسعة تبلغ المئة . توفي سنة ٧٢٨ هـ .

(٤) الإمام الشافعي : محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبد الله . إمام المذهب الشافعي ، وأحد الأئمة الأربعة ، له تصانيف كثيرة أشهرها : الرسالة ، والأمّ والمسند وأحكام القرآن ، توفي سنة ٢٠٤ هـ .

(٥) الإمام أبو يعلى القاضي ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء ، عالم عصره في الأصول والفروع

ونصوص القرآن والسُّنة تشهد للقول الأول ، وليس هـذا موضع استقصـاء هـذه المسـألـة وإنما أشرنا إليها إشارة .

قال أبو القاسم[(١)] : وفي الحديث دليل على أن النَّبي ﷺ كان يصلِّي بمكـة إلى بيت المقدس ، وهو قول ابن عباس يعني قولـه للبَراء : « لقـد كنْتَ على قبلـة »[(٢)] ، وقـالت طائفة : ما صلَّى إلى بيت المقدس إلاّ منذ قَـدِمَ المـدينـةَ سبعـةَ عَشَرَ شهراً أو ستـةَ عَشَر شهراً[(٣)] . فعلى هذا يكون في القبلة نسخان : نسخُ سُنَّةٍ بسُنَّة ونسخ سنَّةٍ بقرآن[(٤)] ، وقـد بيَّن حديثُ ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألـة ، فروي عنـه من طرقٍ صِحـاح أنَّ رسـول الله ﷺ كان إذا صلَّى بمكَّـة استقبـل بيت المقـدس وجعـل الكعبـة بينــه وبين بيت المقدس ، فلَمَّا كان ﷺ يتحرَّى القِبلتين[(٥)] جميعاً لم يبن توجهه إلى بيت المقدس[(٦)] للناس حتى خرج من مكة ، ولذلك ، والله أعلم ، قـال الله تعـالى في الآيـة النـاسخـة : ﴿ ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ﴾[(٧)] ، أي من أيِّ جهةٍ جئْتَ إلى الصلاة وخرجتَ إليها فـاستقبـل الكعبـة ، كنتَ مستـدبراً بيتَ المقـدِس أو لم تكُن ؛ لأنه كان بمكَّة يتحرَّى في استقباله بيتَ المقدس أن تكون الكعبة بين يـديـه . قـال[(٦)] : وتـدبَّر قـولَـه : ﴿ ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَـوَلِّ وَجْهَـكَ ﴾[(٦)] . وقـال لأُمَّتـه : ﴿ وحَيْثُ

= وأنواع الفنـون ، من بغـداد ، من تصـانيفـه (الأحكام السلطـانيـة) و « الإيمـان) و (أحكام القرآن) و (عيون المسائل) ، وغيرها ، توفي سنة ٤٥٨ هـ .

(١) الروض الأنف : ٢٠٠/٢ .

(٢) المصدر نفسه ، وانظر صحيح مسلم ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ١٩١/١ ـ ١٩٤ .

(٤) قـال ابن كثير : وفي هـذا دليـل على أنَّ النـاسـخ لا يلـزم حكـه إلاّ بعـد العلم بـه ، وإن تقـدَّم نـزولـه وإبلاغه ، والله أعلم . (تفسير ابن كثير : ١٩٠/١) .

(٥) تحرَّيتُ الشيء : قصدته ، وتحرَّيت في الأمر : طلبت أحرى الأمرين ، وهو أولاهما . (المصباح المنير : حري) . والحـديث عن ثـابت عن أنس « أن رسـول الله ﷺ كان يصلِّي نحـو بيت المقـدس فنزلت : ﴿ قد نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ .. ﴾ » . (رواه مسلم : باب تحويل القبلة) .

(٦) انظر لباب النقول للسيوطي : ص ١٧ ، وأسباب النزول للواحدي : ٢٥ ، وجامع البيان : ٥٢٨/٢ .

(٧) سورة البقرة : ١٤٩/٢ .

ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ ﴾[1] ، ولم يقُلْ : حيث ما خرجتم ، وذلك لأنه ﷺ كان إمام المسلمين ، فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلِّيَ بهم ، وكان ذلك واجباً عليه إذْ كان الإمامَ الْمُقْتَدَى به ، فأفاد ذكر الخروج في خاصَّتِه هذا المعنى ، ولم يكن حكْمُ غيره هكذا يقتضي الخروج ، ولا سيما النِّساء ومن لا جماعةَ عليه »[2] .

قلتُ : ويظهر في هذا معنى آخر وهو أن قولَه : ﴿ وحَيْثُما كُنْتُم فَوَلُّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ ﴾ خطابٌ عامٌّ له ﷺ ولأُمته ، يقتضي أمرَهم بالتَّوجُّه إلى المسجد الحرام ، في أي موضعٍ كانوا من الأرض وقوله : ﴿ ومِنْ حَيثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ﴾ خطابٌ بصيغة الإفراد ، والمراد هو والأمةُ كقوله : ﴿ يا أيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ ﴾[3] ونظائره ، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهةٍ ومكانٍ خرج منه . وقوله : ﴿ وحَيْثُما كُنْتُم فَوَلُّوا وُجوهَكُم شَطْرَهُ ﴾[4] ، يفيد الأمر باستقبالها في أي موضعٍ استقر فيه ، وهو تعالى لم يقيِّدِ الخروجَ بغايةٍ ، بل أطلق غايته كما عمَّ مبدأه ، فمن حيثُ خرج إلى أي مخرجٍ كان من صلاةٍ أو غزوٍ أو حجٍّ أو غير ذلك فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمّةُ ، وفي أي بقعةٍ كانوا من الأرض ، فهو مأمور هو والأمة باستقباله ، فتناولت الآيتان أحوالَ الأمة كلها في مبدأ تنقُّلِهم من حيث خرجوا ، وفي غايته إلى حيث انتهوا ، وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا ، فأفاد ذلك عمومَ الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد ، فتأمل هذا المعنى ، ووازِنْ بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبينْ لك الرُّجحَانُ ، والله أعلم بما أراد من كلامه ، وإنما هو كَدُّ أفهام أمثالِنا من القاصرين .

---

(١) سورة البقرة : ٢/١٥٠ .

(٢) الروض الأنف : ٢/٢٠١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٣/١ . وانظر دلالة الخطاب في القرآن لابن الجوزي من كتاب المدهش ٢ ، ونبذ من مقاصد الكتاب العزيز للإمام العزّ بن عبد السّلام ، ص ٧٢-٧٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢/١٥٠ .

فقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾[1] ، يتناولُ مَبدأ الخروجِ وغايَته له وللأمة ، وكان أولى بهذا الخطاب لأنَّ مبدأ التَّوجُّه على يديه كان ، كان شديد الحرص على التحويل ، وقوله : ﴿ وحَيْثُما كُنْتُم ﴾[1] يتناول أماكِنَ الكون كلها ، له وللأمة ، وكانوا أولى بهذا الخطاب ؛ لتعدُّدِ أماكنِ أكوانهم وكثرتها بحسب كثرتهم ، واختلاف بلادهم وأقطارهم ، واستدارتها حول الكعبة شرقاً وغرباً ويَمَناً وعِراقاً ، فكان الأحسنَ في حقِّهم أن يُقالَ لهم : ﴿ وحَيْثُ ما كُنْتُم ﴾ أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها ، ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه ﷺ ، فتأمل هذه النُّكَت البديعةَ فلعَلَّكَ لا تظفرُ بها في موضعٍ غيرِ هذا والله أعلم .

قال أبو القاسم[2] : وكَرَّر الباري تعالى الأمرَ بالتَّوجُّه إلى البيت الحرام في ثلاثِ آياتٍ ؛ لأن الْمُنْكِرينَ لتحويل القِبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم[3] ، وأهل الرَّيبِ والنِّفاق اشتدَّ إنكارهم له لأنه كان أول نسخ نزل[4] ، وكفَّار قريش قالوا : نَدِمَ محمد على فِراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا ، وكانوا قبل ذلك يحتجُّون عليه فيقولون : يزعُم محمدٌ أنه يَدعونا إلى مِلَّة إبراهيم وإسماعيل ، وقد فارق قِبلة إبراهيمَ وإسماعيلَ وآثَرَ عليها قِبلة اليهود ، فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ لئَلاَّ يَكونَ للنَّاسِ عَلَيْكُم حُجَّةٌ إلاَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنهُم ﴾[5] ، على الاستثناء المنقطع[6] ، أي لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون

(١) سورة البقرة : ١٥٠/٢ .

(٢) الروض الأُنُف : ٢٠١/٢ .

(٣) انظر كتاب المصَفَّى بأكفِّ أهل الرُّسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الْجَوْزي ص ١١ ، البرهان للزركشي : ٣٠/١ ، المغني لابن قدامة : ٦٥/١٦ ، مقاييس اللغة : ٤٢٤/٥ .

(٤) ينظر كتاب الناسخ والمنسوخ لقتادة ص ٣٢ ، تفسير الرازي : ٣٢/٤ ، روح المعاني : ١٩٨/١ ، مفتاح دار السعادة : ٣٠/٢ .

(٥) سورة البقرة : ١٥٠/٢ .

(٦) الاستثناء المنقطع ما كان فيه المستثنى مِن غير جنس المستثنى منه ، ويُختارُ فيه النصب دائماً . انظر الباب الثالث والعشرون من كتاب الاستغناء في الاستثناء للقرافي .

ولا يهتدون . وقال : ﴿ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[1] ، أي من الذين شكّوا وامتَرَوْا ، ومعنى الحقُّ من ربِّك : أي الذي أمرتك به من التَّوجُّه إلى البيت الحرام هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك ، فلا تَمترِ في ذلك فقال : ﴿ وإنَّ الَّذينَ أُوتوا الكِتابَ لَيَعْلَمونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِم ﴾[2] ، وقال : ﴿ وإنَّ فَرِيقاً مِنهُم لَيَكْتُمونَ الْحَقَّ وهُمْ يَعْلَمونَ ﴾[3] ، أي يكتمون ما علموا أنَّ الكعبةَ هي قِبلةُ الأنبياء ، ثم ساق من طريق أبي داود[4] في كتاب الناسخ والمنسوخ . قال : حدَّثنا أحمد بن صالح[5] حدَّثنا عنبسة[6] عن يونس[7] عن ابن شهاب[8] قال : كان سليمانُ بن عبد الملك[9] لا يعظِّم إيليا[10] كما يعظِّمها أهل بيته ، قال : فسرتُ معه وهو ولي عهدٍ

---

(١) سورة البقرة : ١٤٧/٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٤/٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٦/٢ .

(٤) الإمام أبو داود ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ، إمام أهل الحديث في زمانه ، له السُّنن ، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث ، وهو من كتب الحديث المعتمدة الصحيحة . توفِّي بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ . (الأعلام : ١٢٢/٣ ، حلية الأولياء : ٦٤/٦) .

(٥) أحمد بن صالح المصري أبو جعفر ؛ مقرئ عالم بالحديث وعلله ، حافظ ثقة ، توفي بمصر ٢٤٨ هـ . (الأعلام : ١٣٧/١) .

(٦) عنبسة بن إسحاق الضبي من قواد بني العباس من أهل البصرة ، ولاه المنتصر مصر سنة ٢٣٨ هـ . وهو آخر عربي ولي مصر ، توفِّي في العراق سنة ٢٤٤ هـ .

(٧) يونس بن بكير بن واصل الشيباني ، أبو بكر ، مؤرخ من حفاظ الحديث من أهل الكوفة ، (الأعلام : ٢٦٠/٨) .

(٨) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري من قريش ، أبو بكر ، أوّل من دوّن الحديث ، وأحد أكابر الحفّاظ والفقهاء ، تابعي من أهل المدينة . (الأعلام : ٩٧/٧) .

(٩) سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ، ولد في دمشق سنة ٥٤ هـ ، وتوفِّي في دابق (بين حلب ومعرّة النعمان) ، وكانت عاصمة دمشق .. (الأعلام : ١٣٠/٣) .

(١٠) إيليا هي بيت المقدس ؛ قيل : معناه بيت الله ، قال أبو علي : وقد سمّي البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق :

وبيتان : بيتُ اللهِ نحنُ ولاتُه ... وقَصْرٌ بأعلى إيلياءَ مُشَرَّفُ

(معجم البلدان : ١٩٣/١) .

قال : ومعه خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال سليمان وهو جالس فيه : إنَّ في هذه القبلة التي صلَّى إليها المسلمون والنصارى لعجباً ، كذا رأيته[١] . والصَّواب اليهود ، قال خالد بن يزيد[٢] : أمَا واللهِ إنِّي لأقرأُ الكتابَ الذي أنزله الله على محمد ﷺ وأقرأ التوراة[٣] فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم ، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة فلما غضب الله عزّ وجلّ على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم . وروى أبو داود أيضاً أن يهودياً خاصم أبا العالية في القِبلة فقال أبو العالية[٤] : إن موسى كان يصلِّي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه . وقال اليهودي : بيني وبينك مسجد صالح النبي ﷺ ، فقال أبو العالية : فإني صلَّيت في مسجد صالح وقبلته الكعبة ، انتهى[٥] .

قلت : وقد تضمَّنَ هذا الفصل فائدةً جليلة ، وهي أن استقبالَ أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله ؛ بل كان عن مشورةٍ منهم واجتهادٍ ، أما النصارى فلا ريبَ أن الله لم يأمُرْهُم في الإنجيل ، ولا في غيره باستقبال المشرق أبداً ، وهم مُقِرُّون بذلك ، ومقرُّون أن قِبلة المسيح كانت قِبلةَ بني إسرائيل ، وهي

(١) انظر الروض الأنف : ٢٠١/٢ .

(٢) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي ، حكيم قريش وعالمها في عصره ، كان موصوفاً بالعلم والدين والعقل ، توفي سنة ٩٠ هـ . (الأعلام : ٣٠٠/٢ ، حلية الأولياء : ١٢١/٦-١٢٢) .

(٣) كان خالد بن يزيد أول من نقل الكتب في الإسلام من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، انظر بعض أخباره المفحمة مع الشمامسة والرهبان ، كتاب (حلية الأولياء : ١٢١/٦-١٢٢) .

(٤) أبو العالية : رفيع بن مهران ، من كبار التابعين ، أسلم بعد النبي ﷺ بسنتين ، ودخل على أبي بكر وصلَّى خلف عمر ، أخذ القرآن عرضاً عن أُبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس .
قال أبو بكر بن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلمَ بالقرآن منه ، مات سنة تسعين ، وقيل سنة ست وتسعين . (غاية النهاية في طبقات القرّاء : ٢٨٤/١-٢٨٥ ، ترجمة رقم ١٢٧٢ ، حلية الأولياء : ٢١٧/٢-٢٢٢) .

(٥) الروض الأنف : ٢٠١/٢ .

الصخرة وإنما وَضَعَ لهم شيوخُهم وأسلافهم هذه القِبلة ، وهم يعتـذرون عنهم بـأن المسيح فوَّضَ إليهم التحليلَ والتحريمَ وشَرْعَ الأحكام ، وأنَّ مـا حلَّلوه وحرَّمـوه فقـد حَلَّلـه هـو وحرَّمـه في السماء ، فهم مـع اليهـود متفقـون على أن الله لم يشرِّع استقبـال المشرق على لسان رسوله أبداً ، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك ، وأما قِبلـةُ اليهود فليس في التوراة الأمرُ باستقبال الصخرة ألبتـةَ ، وإنمـا كانوا ينصبون التـابوت ويصلُّون إليـه من حيث خرجوا ، فإذا قـدموا نصبوه على الصخرة وصلُّوا إليـه ، فلمـا رُفِعَ صلُّوا إلى موضعـه وهو الصخرة .

وأما السَّامِرَةُ فـإنهم يُصَلُّون إلى طورٍ[1] لهم بـأرض الشـام يعظِّمونـه ويحجُّونَ إليـه ورأيته أنا ، وهو في بلد نابُلُس[2] ، وناظرتُ فضلاءَهم في استقبـالـه ، وقلتُ : هو قِبلـةٌ باطلـة مبتـدَعَـة ، فقـال مُشـار إليـه في دينهم : هـذه هي القبلـة الصحيحـة ، واليهود أخطؤوهـا ؛ لأن الله تعـالى أمر في التوراة بـاستقبـالـه عينـاً ، ثم ذكر نصّـاً يزعمـه من التوراة في استقباله فقلت له : هذا خطـأ قطعـاً على التوراة ؛ لأنهـا إنمـا أنزلت على بني إسرائيل ، فهم المخاطبون بها ، وأنتم فرع عليهم فيها وإنمـا تلقَّيتموهـا عنهم ، وهـذا النَّصُّ ليس في التوراة التي بأيديهم ، وأنا رأيتها وليس هذا فيها ، فقال لي : صَدَقْتَ إنما هو في توراتنا خاصةً ، قلت له : فمن المحال أن يكون أصحابُ التوراة المخاطبون بها وهم الذين تَلَقَّوها عن الكليم ، وهم متفرقون في أقطـار الأرض قـد كتموا هـذا النص وأزالوه وبـدَّلوا القِبلةَ التي أمروا بها وحفظتموها أنتم وحفظتم النص بها ! فلم يُرجعْ إليَّ الجوابَ .

---

(١) السّامرة : فرقـة من اليهـود ، وتخـالف اليهـود في أكثر الأحكام ، وهم مِلَّـةٌ لا يـؤمنـون بنبيٍّ غير مـوسى وهارون ويوشع وإبراهيم فقط ، ويُصَلُّون إلى جبل عزون ببلد نـابلس ، وتزعم أنهـا القبلـة التي أمر الله موسى أن يستقبلهـا ، وأنهم أصـابوهـا وأخطـأهـا اليهود ، وأن الله أمر داود أن يبني بيت المقـدس بجبل نابلوس ، وهو عنـدهم الطُّور الـذي كلَّم الله عليـه موسى فخـالفـه داود وبنـاه بـإيليـا ، فتعـدى وظلم . (أحكام أهل الذّمة لابن القيِّم : ص ٩٠-٩١) .

(٢) نابُلُسُ : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلـة لا عرض لهـا .. بينهـا وبين بيت المقـدس عشرة فراسخ . (معجم البلدان : ٥/٢٤٨) .

قلت : وهذا كلّه مما يُقوّي أن يكونَ الضمير في قوله تعالى : ﴿ ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها ﴾[1] ، راجعاً إلى (كل) ، أي هو موليها وجهه[2] ، ليس المراد أن اللهَ وليه إياها[3] لوجوه ، هذا أحدها ، (الثاني) أنه لم يتقدمْ لاسمه تعالى ذكرٌ يعود الضمير عليه في الآية ، وإن كان مذكوراً فيما قبلها ، ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون (كل) ردُّ الضميرِ إلى غيرِ مَنْ هو أولى به ، ومنعُه من القريب منه اللاحق به . (الثالث) أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال : هو موليه إيَّاها ، هذا وجه الكلام كما قال تعالى : ﴿ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ﴾[4] ، فوجه الكلام أن يقال : ولاَّه القِبلة لا يقال : ولَّى القبلة إياه[5] ، فتأمَّله .

وقول أبي القاسم إنه تعالى كرَّر ذِكر الأمرِ باستقبالها ثلاثاً رَدّاً على الطوائف الثلاث . ليس بالبيِّن ، ولا في اللفظ إشعار بذلك ، والذي يظهر فيه أنه أمر به في كلِّ سياقٍ لمعنى يقتضيه ؛ فذكره أوَّل مرةٍ ابتداءً للحكم ونَسْخاً للاستقبال الأول فقال[6] : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وحَيْثُ ما كُنْتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ ﴾[7] ، ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨/٢ .

(٢) قال أبو العالية : لليهودي وجهةٌ هو موليها ، وللنَّصراني وجهة هو موليها . وهداكم أيها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . (تفسير ابن كثير : ١٩٤/١ ، وانظر غريب القرآن لابن قتيبة : ٦٥) .

(٣) قيل : إنَّ (هو) عائد على الله تعالى ، قاله الأخفش والزجاج ، أي : الله موليها إيَّاه ، اتَّبَعَها مَن اتَّبعها وتركها من تركها ، فمعنى هو موليها على هذا التقدير : شارعها ومكلفهم بها .
(ينظر الجامع لأحكام القرآن : ١٦٤/٢-١٦٥ ، البحر المحيط : ٦١٠/١-٦١١ ، الكشّاف : ٣٢٢/١) .

(٤) سورة النِّساء : ١١٥/٤ .

(٥) في القاموس : أوليتُه الأمرَ ولَّيْتُه إيَّاه . (القاموس : ولي) .

(٦) سورة البقرة : ١٤٤/٢ .

(٧) لمّا كان النَّبي ﷺ يصلِّي إلى بيت المقدس كما مرَّ ، غير أنه كان يتجه إلى بيت المقدس جاعلاً الكعبةَ أمامه ، ولما هاجر إلى المدينة واتَّجه إلى بيت المقدس صارت الكعبة وراءَه ، فانتهزها المشركون فرصةً ، وقالوا : ترك قبلة أبيه إبراهيم ، واستغلها اليهود أيضاً وقالوا : اتجه إلى قبلتنا ؛ فراح النَّبي ﷺ يترقَّب الوحي متأمِّلاً أن تكون قبلته الكعبة فنزلت الآية : ﴿ قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ .. ﴾ الآية .

هذا هو الحق من ربِّهم ، حيث يجدونه في كتبهم كذلك ، ثم أخبر عن عبادتهم وكفرهم ، وأنه لو أتاهم بكلِّ آيةٍ ما تَبِعوا قبلَتَه ولا هو أيضاً بتـابعٍ قبلَتَهم ، ولا بعضُهم بتـابعٍ قبلَـة بعضٍ ، ثم حذَّره من اتِّباع أهوائهم ، ثم كرَّرَ معرفة أهل الكتاب بـه كمعرفتهم بـأبنـائهم وأنهم ليكتمون الحق عن علم ، ثم أخبر أنَّ هذا هو الحق من ربِّه فلا يلحقه فيه امتراء ، ثم أخبر أنَّ لكلٍّ من الأمم وجهةً هو مستقبلها ومولِّيها وَجْهَـه ، فـاستبِقوا أنتم أيهـا المؤمنون الخيراتِ ، ثم أعاد الأمر باستقبـالهـا من حيثُ خرجَ ، في ضمن هـذا السيـاق الزائـد على مجرد النسخ ثم أعاد الأمر به غيرَ مكرِّرٍ له تكراراً محضاً ، بل في ضمنه أمرهم بـاستقبـالهـا حيثما كانوا ، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا عند النسخ وابتداء شرع الحكم ، فـأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم وابتدائه وبعد المحاجَّـة والمخـاصمـة والحكم لهم وبيـان عِنادهم ومخالفتهم مع علمهم ، فـذكر الأمر بـذلـك في كل موطن ؛ لاقتضـاء السيـاق لـه فتأمله ، والله أعلم .

وقوله[1] : إنَّ الاستثناء في قولـه : ﴿ إلاَّ الَّـذينَ ظَلَموا مِنْهُم ﴾ منقطع قـد قـالـه أكثرُ الناس[2] ، ووجهه أن الظالم لا حجَّةَ له ، فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميـة يقول : ليسَ الاستثنـاء بمنقَطعٍ بل هو متَّصـل على بابه ، وإنما أوجبَ لهم أن حكموا بانقطاعه حيثُ ظنُّوا أنَّ الحجَّـة ههنـا المراد بهـا الحجَّـة الصحيحة الحق[3] . والحجَّةُ في كتاب الله يُرادُ بها نوعان . أحدُهما الحجَّةُ الحقُّ الصحيحة كقوله : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبْراهيمَ على قَوْمِهِ ﴾[4] ، وقولـه : ﴿ قُلْ فَللـهُ الْحُجَّـةُ

(١) أي الإمام السهيلي .

(٢) والمعنى : لكنْ للذين ظلموا الحجَّـةُ ، فـإنهم يحتجُّونَ عليكم بـالبـاطل ، وذلـك استثنـاء منقطع . (انظر تنزيـه القرآن عن المطـاعن للقـاضي عبـد الجبـار : ص ٣٧ ، الجـامع لأحكام القرآن : ١٦٨/٢ ، وفيـه : حجَّتُهم قولهم : راجعتَ قبلتَنا ؛ وقد أجيبوا عن هذا بقوله : ﴿ قُل للهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ ﴾) .

(٣) قال المطرّزي : الْحُجّة لأنها تُقصَد وتُعْتَمد ، أو بهـا يُقْصَـدُ الحقُّ المطلوب . وفي التـاج : الْحَجّ : الغَلَبَـة بالْحُجة ، يقال : حجه يَحُجُّه حَجّاً ، إذا غلبه على حجته . (المغرب : ١٨٠/١ ، التاج : حجج) .

(٤) سورة الأنعام : ٨٣/٦ .

البالِغَةُ ﴾[١] ، ويراد بها مطلق الاحتجاج بحقٍّ أو بباطلٍ ، كقوله : ﴿ فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ وإذا تُتْلَى عَلَيهم آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهم إلاّ أنْ قالوا ائْتُوا بآبائِنا إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ والَّذينَ يُحاجُّونَ في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجيبَ لَهُ حُجَّتُهم داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[٥] ، وإذا كانتِ الحجَّة اسماً لما يُحتَجُّ به من حقٍّ أو باطلٍ صحَّ استثناءُ حجَّةِ الظالمين من قوله : ﴿ لِئَلاّ يَكونَ لِلنّاسِ عَلَيكَم حُجَّةٌ ﴾ ، وهذا في غاية التحقيق[٦] ، والمعنى : أنَّ الظالمين يحتجُّون عليك بالحجَّة الباطلة الدّاحِضَة فلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْني .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُم لا يَعْقِلونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدونَ ﴾[٧] ، فهذه مناظرةٌ حكاها الله بين المسلمين والكفّار ؛ فإنَّ الكفّار لَجؤوا إلى تقليد الآباء وظنّوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنَّهم بهم ، فحكم الله بينهم بقوله : ﴿ أَوَلَو كانَ آباؤُهُم لا يَعْقِلونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدونَ ﴾ ، وفي موضع آخر : ﴿ أَوَلَوْ كانَ الشَّيطانُ يَدعُوهُم إلى عَذابِ

(١) سورة الأنعام : ١٤٩/٦ . والحجة البالغة : الحجة القوية الدامغة ، التي وصلت في القوة إلى نهايتها ، وذلك بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب .

(٢) سورة آل عمران : ٢٠/٣ .

(٣) سورة الجاثية : ٢٥/٤٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٥٨/٢ .

(٥) سورة الشُّورى : ١٦/٤٢ .

(٦) قالت فرقة : الاستثناء متَّصل ؛ روي معناه عن ابن عباس وغيره ، واختاره الطبري ، وقال : نفى اللهُ أن يكون لأحدٍ حجَّةٌ على النَّبي ﷺ وأصحابه في استقبالهم الكعبة ، والمعنى : لا حجةَ لأحدٍ عليكم إلاّ الحجة الدّاحِضَة . حيث قالوا : (ما وَلاَّهُم) ، وتحيَّر محمد في دينه ، وما توجَّه إلى قبلتنا إلا أنّا كنّا أهدى منه ؛ وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلاّ من عابد وثنٍ أو يهودي أو منافق .
والحجّة بمعنى المحاجّة التي هي المخاصمة والمجادلة . وسمّاها اللهُ حجّة وحكم بفسادها حيث كانت مِنْ ظَلَمَة .

(٧) سورة البقرة : ١٧٠/٢ .

السَّعيرِ ﴾[1] ، وفي موضعٍ آخر : ﴿ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُم عَلَيهِ آباءَكُم ﴾[2] ، فأخبر عن بطلان هذه الْحُجَّة ، وأنها لا تنجي من عذاب الله ؛ لأن تقليد من ليس عنده عِلْم ولا هدىً من الله ضلالةٌ وسَفَهٌ . والمعنى : ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذابِ السَّعير يقلدونهم ، ولو كانوا لا علمَ عندَهُم ولا هدىً يقلِّدونهم أيضاً ، وهذا شأن من لا غرضَ له في الهدى ولا في اتِّباع الحق ، إنْ غرضه بالتقليد[3] إلاَّ دفعَ الحقِّ ، والحجَّةِ إذا لزمتْه لأنه لو كان مقصودُه الحق لاتَّبعه إذا ظهر له ، وقد جئتكم بأهدى مِمَّا وَجدتم عليه آباءَكم فلو كنتم مِمَّن يتبع الحق لاتَّبعتم ما جئتكم به ، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حقٍّ ، فقد جئتكم أهدى مما وجدتموهم عليه ، وإنما جعلتم تقليدهم جُنَّةً لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به[4] .

---

(١) سورة لقمان : ٢١/٣١ .

(٢) سورة الزُّخرف : ٢٤/٤٣ ، وقراءة ﴿ قُلْ ﴾ قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ، وهي التي اعتمدها ابن القيِّم ها هنا . (التيسير للداني ١٩٦ ، البحر المحيط : ١١/٨) .

(٣) التقليد عند الفقهاء هو العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة منها ، وهو واجب على من عجز عن الاجتهاد في الفروع لقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلوا أهلَ الذِّكْرِ إن كُنْتُم لا تَعْلَمونَ ﴾ ، كما أشار إليه المحقق الكمال بن الهمام ، وهو تقليد محمود وصاحبه مأجور (راجع التحرير في أصول الفقه للكمال بن الهمام ، ص ٥٤٧) .

(٤) تَصَدَّى المحقِّقون من العلماء والجهابذة من النُّقَّاد إلى دعوة التقليد ، ودعوى إغلاق باب الاجتهاد ، وردُّوا عليها بالْحُجَّة والبرهان ، وحملوا عليها حملةً عنيفة لم تبق لها سنداً ولا أساساً ، ومن هؤلاء حافظ المغرب ابنُ عبدِ البر ، رحمه الله ، في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) والإمام ابن القيِّم في أغلب كتبه ، لا سيما : (أعلام الموقِّعين ، والصواعق المرسلة) ، وقد جمع فيهما وأجاد أيَّما إجادة . (وانظر تحفة الرأي السديد الأحمد لضيا التقليد والمجتهد لأحمد الحسيني ، ص ٤٠ ، وأعلام الموقِّعين : ١٩٠/٢-١٩٧ ، حجة الله البالغة للدهلوي ، ص ١٥٥) .

مَسْرَدُ المصَادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ المكتبة الثقافية ـ بيروت ١٩٧٣ م .

الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣ م .

أحكام القرآن لابن العربي ـ دار المعرفة ـ بيروت ، ١٩٧٢ م .

أحوال الناس للعز بن عبد السّلام ، دار النابغة ودار القادري ١٤١٣ هـ .

أساس البلاغة للزمخشري ـ دار المعرفة بيروت ١٩٧٩ م .

استخراج الجدل لابن الحنبلي . مؤسسة الريان بيروت ط ١، ١٩٩٢ م .

الأسماء والصفات للبيهقي دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٥٨ هـ .

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر دار الكتاب العربي ـ بيروت .

أصول الدين البغدادي دار المدينة ـ بيروت ط ١٩٢٨/١ م . طبعة مصورة .

الاعتصام للشاطبي مكتبة الرياض الحديثة .

الأعلام للزركلي دار العلم للملايين بيروت ط ٥ ، ١٩٨٠ م .

أعلام الموقعين لابن القيم دار السعادة ١٣٧٤ هـ .

الاقتراح للسيوطي دار المعارف ـ حلب .

إنباه الرواة للقفطي دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .

الإنصاف لابن المنير دار الفكر ـ بيروت ط ١٩٧٧/١ م .

الإيضاح في علل النحو للزجاجي دار النفائس بيروت ١٩٧٣ م .

البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي مطبعة السعادة بمصر طبعة مصورة .

بدائع الفوائد لابن القيم المطبعة المنيرية . الناشر دار الكتاب العربي ـ بيروت .

البدر الطالع للشوكاني .

البرهان في علوم القرآن للزركشي دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢ طبعة مصورة .
بغية الوعاة للسيوطي مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٤ م .
تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١٩٨٥،١ م .
تاج العروس للزبيدي مطبعة حكومة الكويت .
التبيان في أقسام القرآن لابن القيم . دار الفكر ـ ١٩٦٨ م .
التحرير في أصول الفقه لابن الهمام . بولاق ١٣١٦ هـ .
تذكرة أولي الألباب الأنطاكي دار الفكر ـ بيروت .
التعريفات للجرجاني دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ، ١٩٨٣ م .
تفسير الألوسي انظر روح المعاني .
تفسير ابن كثير ابن كثير الدمشقي دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية .
تفسير غريب القرآن لابن قتيبة . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨ م .
تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي .
التفسير القيّم لابن القيم لجنة التراث العربي بيروت ١٩٤٨ م .
التفسير الكبير للرازي دار الكتب العلمية ـ طهران .
تفسير النسفي للنسفي دار الكتاب العربي ـ بيروت .
التفسير الوجيز للزحيلي دار الفكر ـ دمشق ١٩٩٥ م .
تنزيه القرآن عن المطاعن . للقاضي عبد الجبار دار النهضة الحديثة بيروت .
التيسير للداني دار الكتاب العربي بيروت ط ١٩٨٥/٣ م .
ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . للخطابي والرماني والجرجاني .
جامع البيان للطبري دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٤ م .
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي ط ١ المنيرية ١٩٧٨ م .
الجامع الصغير للسيوطي مكتبة الحلبوني دمشق .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي . دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
جمال القُرّاء للسّخاوي . مكتبة الخانجي القاهرة ط ١٩٨٧/١ م .
حاشية الصّاوي للصاوي دار الفكر بيروت ط ١٩٨٨/١ م .
الحجة في علل القراءات السبع للفارسي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .
حجة الله البالغة للدهلوي المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ .
الحدود الأنيقة لزكريا الأنصاري دار الفكر المعاصر بيروت ط ١ ، ١٩٩١ م .
الحدود في الأصول لابن رشد دار الكتب العلمية ـ بيروت .
الحظر والإباحة للشيباني .
حلية الأولياء للأصبهاني دار الكتاب العربي .
الخصائص لابن جني دار الكتب المصرية ١٩٥٢ طبعة مصورة .
الخصائص الكبرى للسيوطي دار الكتب العلمية بيروت .
الدر المنثور للسيوطي مصر ١٣١٤ هـ .
الدر النضيد للشوكاني دار الكتب العلمية ـ بيروت .
دلائل التوحيد لجمال الدين القاسمي .
ديوان لبيد دار صادر ـ بيروت .
ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي .
الرسائل السلفية للشوكاني دار الكتب العلمية ـ بيروت .
رسائل التوحيد لمحمد عبده مكتبة الثقافة العربية .
رسالة المسترشدين للمحاسبي . دار السلام ـ القاهرة ـ ط ٥ ١٩٨٨ م .
الروح لابن القيّم دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٦٦ م .
روح المعاني للألوسي دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨ هـ .
الروض الأنُف للسّهيلي دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٨ م .
زاد المسير لابن الجوزي المكتب الإسلامي بدمشق ط ٤ ، ١٩٨٧ م .

زاد المعاد لابن القيم دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
السبعة في القراءات لابن مجاهد دار المعارف ـ القاهرة ط ٢ ، ١٤٠٠ هـ .
سنن أبي داود لأبي داود مطبعة مصطفى البابي الحلبي .
شذرات الذهب لابن العماد دار الآفاق الجديدة بيروت .
الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .
شفاء العليل لابن القيم دار المعرفة ـ بيروت ١٣٤٣ هـ .
الصحاح للجوهري دار العلم للملايين ط ٣ ، ١٩٨٤ م .
صحيح البخاري للبخاري طبعة دار الشعب وغيرها .
صحيح مسلم دار المعرفة ـ بيروت .
الطبّ النبوي لابن القيم دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣ م .
طريق الهجرتين لابن القيم دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٠ م .
عبقرية اللغة العربية لعمر فروخ دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٩٨١ م .
عمدة القاري للعيني دار الفكر ـ بيروت .
غريب الحديث للهروي دار الكتب العلمية ط ١٩٨٦/١ م .
غريب القرآن لابن قتيبة . انظر تفسير غريب القرآن .
الفائق في غريب الحديث للزمخشري دار الفكر ط ١٩٧٩/٣ م .
فتاوى الإمام النووي للنووي دار الكتب العلمية .
فتاوى ابن الصلاح لابن الصلاح مطبعة الحضارة العربية ـ القاهرة . ط ١٩٨٣/١ م .
فتح القدير للشوكاني دار ابن كثير ـ دار الكلم الطيب دمشق ط ١٩٩٤،١ م .
فواتح الرحموت للكنوي بولاق ١٣٢٢ هـ .
القاموس المحيط للفيروزأبادي ـ دار الجيل بيروت .
القرطين للكناني دار المعرفة ـ بيروت .
القصيدة النونية لابن القيم مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام دار القلم بيروت ١٩٩٤ ط ١ .
قواعد في علوم الحديث للتهانوي مكتب المطبوعات الإسلامية حلب ط ١٩٧٢،٣ م .
الكافي لابن عبد البر القرطبي .
الكشاف للزمخشري . دار الفكر ـ بيروت ط ١ ، ١٩٧٧ م .
الكليات للكفوي منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق ١٩٨١ م .
لسان العرب لابن منظور دار المعارف ـ مصر .
مختصر سنن أبي داود للمنذري دار المعرفة بيروت .
مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم مكتبة المتنبي ـ القاهرة .
المدهش لابن الجوزي دار مروان بيروت ١٩٧٣ م .
مراقي الفلاح : للشرنبلالي تحقيق عبد الجليل عطا .
مسند الإمام أحمد .
المصباح المنير للفيومي المطبعة البهية المصرية ١٣٠٢ هـ .
معالم السنن للخطابي (شرح سنن أبي داود) الطبعة الأولى/١٣٥١ .
معجم البلدان لياقوت الحموي . دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٧٩ م .
المعجم الكبير للطبراني .
المعجم المفهرس لمعاني القرآن الكريم لمحمد بسام الزين ، محمد عدنان سالم .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي .
معجم مقاييس اللغة لابن فارس ـ مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٤ هـ .
المغرب للمطرّزي ـ مكتبة أسامة بن زيد حلب ـ سوريا ط ١ ، ١٩٧٩ م .
مغني اللبيب لابن هشام دار الفكر ـ بيروت ط ٣ ، ١٩٧٣ م .
مفتاح دار السعادة لابن القيم دار الكتب العلمية ـ بيروت .
مناقب الإمام الشافعي للرازي ـ المكتبة العلامية بمصر .
المنصف للشمني مطبعة البابي الحلبي مصر ١٣٠٥ هـ .

المنطق التوجيهي أبو العلا عفيفي المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٠ م .
منهاج الأصول للبيضاوي دار دانية دمشق ط ١ ، ١٩٨٩ م .
الموافقات للشاطبي دار الكتب العلمية ـ بيروت .
موافقة صريح المعقول لابن تيمية .
نبذ من مقاصد الكتاب العزيز للعزّ بن عبد السلام مكتبة الغزالي دمشق ط ١ ، ١٩٩٥ م .
النبوات لابن تيمية دار الكتب العلمية . بيروت .
النحو العربي مازن المبارك دار الفكر ـ بيروت ط ٣ ، ١٩٨١ م .
النشر في القراءات العشر لابن الجزري دار الكتب العلمية بيروت
نشر البنود على مراقي السعود للشنقيطي . دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١ ، ١٩٨٨ م .
النظرات للمنفلوطي .

الفهرس

مَسْرَدُ الدِّرَاسة

الموضوع	الصفحة

مَسْرَدٌ تفصيليٌّ لموضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

المسارد



GUIDANCE OF THE QUR'AN AND THE PROPHETIC TRADITION

To the Style of Debate, Correcting it and Revealing the Affecting Reasons

Irshād al-Qur'ān wa al-Sunnah

Ila Tariq al-Mu'asarah al-Sahihah wa Bayan al-'Ilal al-Mu'athirah

By: Muhammad ibn abi Bakr ibn Qayyim al-Jawziyyah al-Dimashqi

Study & Revision, by: Ayman Abd al-Razzaq al-Shawwa

http://www.Fikr.com/
E-Mail: Fikr@net.com

ارشاد القرآن والسنة

الى طريق المناظرة وتصحيحها وبيان العلل المؤثرة

إنك أمام كتاب جليل يتحدث عن إرشاد القرآن والسنة إلى طريق المناظرة وتصحيحها، وبيان الحجج القرآنية، والبراهين العقلية في أمور العقيدة الصحيحة، ألفه عالم جليل من أفذاذ علماء القرن الثامن الهجري، هو محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الدمشقي (ت ٧٥١ هـ).

لقد كان موضع إعجاب لكل العلماء المنصفين في وقته وحتى الآن، لا يصدر رأيه في المسائل إلا بعد الوقوف بتدبر على ما قاله أهل العلم من السلف والخلف، والنظر بعين فاحصة، ورأي ثاقب ينفي به الباطل، ويؤيد به الحق الذي يراه، ويحرص على دعم اجتهاداته وأدلته بالكتاب والسنة.

ويستهدف ابن القيم من ذلك إخراج المسلمين من خلافاتهم، وتضارب آرائهم، وخصوصاً أن هذه الخلافات غريبة على المشتغلين بدين الله، وأن روح الإسلام تأباها ولا تسمح بها.

والتزم ابن القيم في مباحثه الفقهية اتباع الدليل، ونبذ التعصب الذميم، فقد سعى إلى إبراز الأحكام الفقهية من أصولها، من الكتاب والسنة.

ISBN: 1-57547-268-6